الطريق إلى النور

دليل الوصول إلى نور القلب

عبد الرحمن غراب

رمضان ١٤٤٤ هـ/ أبريل ٢٠٢٣ م

الطريق إلى النور

دليل الوصول إلى نور القلب

جمع وترتيب

عبد الرحمن غراب

رمضان ١٤٤٤ هـ / أبريل ٢٠٢٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغيّ، وفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

يهتم الكثيرون بغذاء أجسامهم، ويهتمون بجمالهم وصورهم، ولكنهم ينسون غذاء أرواحهم، ويغفلون عن تعاهد قلوبهم، والتي هي مدار فلاحهم، وأساس نجاتهم. ومهما أتقن هؤلاء في غذاء الجسد والوصول به إلى الكمال، ومهما بالغوا في تحسين صورهم والوصول بها إلى الجمال، فإنهم سيظلون تعساء قلقين بإهمالهم غذاء أرواحهم وتطهير قلوبهم، وسينقلب بهم المآل والحال في يوم من الأيام إلى الخسارة والندم، وهم في حالتهم تلك أمواتٌ غير أحياء، وهم مخالفون للفطرة التي فطر الله الإنسان عليها. فالإنسان مفطورٌ على عبادة الله وحده، وبقدر ابتعاده عن هذه الفطرة بقدر ما تموت روحه وبقدر ما ينطفئ النور في قلبه، وبجهل الإنسان لتلك الحقيقة سيظل راكضاً لاهثاً في مضمار الحياة الدنيا متخبطاً تائهاً في ظلماتها، مُتعباً مُنهكاً في تحصيل لذّاتها، حتى يُفاجأ في لحظة ما بسراب هذا المضمار واختفاء هذه الحياة كلها، ودخوله في حياة أخرى، هي الحياة الحقيقية، وهي دار القرار، ولكن سيكون هذا العلم بعد فوات الأوان.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى. يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

وفي زمن طغت فيه المادة على الروح، وتسارعت فيه الأحداث، وقلت فيه البركة، وانشغل الناس لاهثين وراء المال وحظوظ النفس، متناسين الهدف من خلقهم، تاركين الآخرة وراء ظهورهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، واستدرجوا من حيث لا يعلمون، وظنوا زخرف الدنيا هو الحق، جاهلين حقيقة سرابه، وسرعة زواله، وفجأة انقطاعه، غير متعظين بمن سبقهم ممن مثلهم، فظلوا يتسابقون في سباق وهمي، لا نية صالحة معه ولا ترتيب أولويات فيه، فأصبحت القلوب في وحشة وقسوة وريبة، وباتت النفوس في قلق واضطراب وخوف، وذلك من تشعّب الهموم والغموم، وتكاثر المسؤوليات والانشغالات، ولا نجاة من ذلك كلّه إلا بإصلاح القلوب وإحياء النفوس، وذلك بسقياهما المستمر من مشكاة الوحي الإلهي متمثلاً في كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله وعليه وسلم-.

ولأن الكثير يسعون في الحياة بعيداً عن بوصلة الوحي التي تضبط الاتجاه دائماً أثناء السير في ظلمات الليل البهيم في سفر هذه الحياة.

ولأن الإنسان خُلق ضعيفاً هلوعاً جهولاً عجولاً، كان اتكاؤه على بشريته هذه وصفاته تلك في سفره مآلها التيه والضياع والفشل والإخفاق، وكان لا بدّ عليه الاتصال بالخالق البارئ، الغنيّ القويّ، القهّار الجبّار، القادر المقتدر، اللطيف الخبير، العليم الحكيم، المُحيط بكل شيءٍ علماً والمُحصي لكل شيءٍ عدداً، عالم الغيب والشهادة، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

فلضبط بوصلة السير في السعي، ولتوضيح وسائل الاستعانة بالله، كتبت هذا البحث، والذي هو دليل للوصول إلى نور القلب، وهو عبارة مباحث كثيرة منقولة من الكتب والمقالات والخطب، مرتبة بطريقة منهجية لتكون منهج حياة، فهذا البحث لم يُكتب لقراءته مرة واحدة ثم تركه، بل كُتب ليكون دليلاً للهدى، وزاداً للتقوى، وشعلةً للإيمان، ولتصحح به الوجهة وتستكمل به المسيرة حتى الوصول إلى الهدف الأسمى، ألا وهو نيل رضا الله ودخول جنته - بإذنه ورحمته - والنجاة من ناره، وذلك هو الفوز العظيم.

وأيّ كتابة ستظل مجرد كتابة طالما بقيت حبراً على الورق، ولم تتمثل حيّةً على أرض الواقع، وما أكثر الكتب! وما أقل القراء! وما أقل العاملين بما يقرأون! فللاستفادة من أي قراءة لا بد أن يكون القلب حاضراً أثناء القراءة، وأن تُكرر القراءة مراراً، وأن يجتهد القارئ في العمل بما قرأه.

أكتبُ هذه المقدمة وأنا أدعو القاريء بأن يتحلى دائماً بالقراءة «بقلب»، وبأن «يكرر» القراءة، وألا يقرأ مرة واحدة فقط، بل يقرأ مرتين وعشر مرات ومئة مرةٍ، يقرأ كل مبحث من المباحث في هذا البحث كلما نسي وغفل عنه، ويعيد ويستذكر ما أثّر فيه، وأن يجتهد ويجاهد مستعيناً بالله في تطبيق وتنفيذ ما علمه. ولكن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ .

فأسأله سبحانه وتعالى الهداية لنا أجمعين. وأسأله سبحانه أن يضع القبول لهذا البحث، وأن يطرح البركة فيه، وأن يجعله حجة لي لا عليّ، وأن يعيننني وإياكم على العمل بما فيه، وأن يجعله صدقةً جاريةً لنا ويثقل به موازيننا، برحمته وفضله وكرمه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الرحمن غراب

Email: Abdurrahman.n.ghorab@gmail.com

مشكلة البحث:

- ما هو القلب ومكانته؟
- ما هي الهداية وسبيلها؟
- ما هو النجاح وخريطته؟
- ما مكانة القرآن الكريم وأثره في نور القلب؟
- ما فضل الدعاء وأثره في نور القلب؟
- ما مكانة الصلاة وأثرها في نور القلب؟
- ما هي أعمال القلوب وأهميتها؟
- كيف يتعامل المؤمن مع مصاعب الحياة؟

أهداف البحث:

- معرفة القلب ومكانته
- معرفة الهداية وسبيلها
- معرفة النجاح وخريطته
- معرفة مكانة القرآن الكريم وأثره في نور القلب
- معرفة فضل الدعاء وأثره في نور القلب
- معرفة مكانة الصلاة وأثرها في نور القلب
- معرفة أعمال القلوب وأهميتها
- معرفة كيفية التعامل مع مصاعب الحياة

أهميّة البحث:

الوصول إلى الهداية ونور القلب.

خطّة البحث:

يشتمل هذا البحث على: مُقدّمةٍ، وثمانية فصولٍ، وخاتمةٍ، وهي كما يلي:

المُقدّمة: وفيها مشكلة البحث، وأهداف البحث، وأهميّة البحث، وخطّة البحث.

الفصل الأول: القلب، وفيه سبعة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: مكانة القلب وأهميته

المبحث الثاني: تطهير وعاء العلم

المبحث الثالث: من درر ابن القيم عن القلوب

المبحث الرابع: ابن القيم يحدثنا عن المعاصي

المبحث الخامس: آثار ترك الذنوب والمعاصي

المبحث السادس: الختم على القلب

المبحث السابع: علاج الختم على القلب

الفصل الثاني: الهداية، وفيه خمسة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: الإنسان والحاجة إلى سكينة الإيمان

المبحث الثاني: سبيل الهداية

المبحث الثالث: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين

المبحث الرابع: اكتشف قدراتك.. بالعودة إلى الله

المبحث الخامس: من ظفر بالتوبة ظفر بحب الله تعالى

الفصل الثالث: النجاح، وفيه سبعة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: الطريق إلى النجاح في الحياة

المبحث الثاني: خريطة النجاح

المبحث الثالث: مفاتيح القراءة بقلب

المبحث الرابع: فضل العلم وأهله

المبحث الخامس: عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي

المبحث السادس: إدارة الوقت أم إدارة الذات؟

المبحث السابع: أهمية تحديد الأهداف

الفصل الرابع: القرآن الكريم، وفيه ثمانية مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: الآيات الدالة على فضائل القرآن

المبحث الثاني: الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن

المبحث الثالث: أثر القرآن في تغيير الإنسان

المبحث الرابع: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان

المبحث الخامس: قراءة القرآن في الصلاة

المبحث السادس: ملخص كتاب «هذه رسالات القرآن، فمن يتلقّاها؟»

المبحث السابع: «النبأ العظيم» نظرات جديدة في القرآن الكريم

المبحث الثامن: نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن

الفصل الخامس: الدعاء، وفيه أحد عشر مبحثاً، كما يلي:

المبحث الأول: الدعاء يصنع العجائب

المبحث الثاني: الدعاء من أنفع الأدوية

المبحث الثالث: آداب الدعاء

المبحث الرابع: الدعاء في الصلاة

المبحث الخامس: دعاء القنوت

المبحث السادس: أربعون فائدة في الصلاة على النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم

المبحث السابع: الاستغفار فضائل وأسرار

المبحث الثامن: حسبنا الله ونعم الوكيل

المبحث التاسع: لا حول ولا قوة إلا بالله

المبحث العاشر: ذكر الله

المبحث الحادي عشر: أذكار الصباح والمساء

الفصل السادس: الصلاة، وفيه خمسة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: فضل الصلاة والمحافظة عليها

المبحث الثاني: مقالات من كتاب مفاتح إقامة الصلاة

المبحث الثالث: حفظ مقاصد الصلاة (لماذا أصلي؟)

المبحث الرابع: سر الصلاة الإقبال على الله

المبحث الخامس: قيام الليل لذة الروح ومتعة الحياة.. هل من طموح؟

الفصل السابع: أعمال القلوب، وفيه عشرة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: أهمية النية في حياة المسلم

المبحث الثاني: من درر ابن القيم عن الأعمال القلبية

المبحث الثالث: الإخلاص

المبحث الرابع: الشكر

المبحث الخامس: في بستان الصابرين.. آيات الصبر

المبحث السادس: الرضا بالقدر.. أجمل اختيار في الحياة

المبحث السابع: التوكل على الله

المبحث الثامن: سلوا الله اليقين

المبحث التاسع: التفاؤل

المبحث العاشر: حسن الظن بالله

الفصل الثامن: مصاعب الحياة، وفيه ثمانية مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: حقيقة الدنيا

المبحث الثاني: التدبير في شأن الرزق

المبحث الثالث: كيف نتعامل مع مصاعب الحياة؟

المبحث الرابع: الرحمة الحقيقية

المبحث الخامس: أصول في مقام المصائب للمؤمنين

المبحث السادس: اترك همومك وانطرح

المبحث السابع: السعادة المنشودة

المبحث الثامن: نور البصيرة

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأول: القلب

المبحث الأول: مكانة القلب وأهميته

المبحث الثاني: تطهير وعاء العلم

المبحث الثالث: من درر ابن القيم عن القلوب

المبحث الرابع: ابن القيم يحدثنا عن المعاصي

المبحث الخامس: آثار ترك الذنوب والمعاصي

المبحث السادس: الختم على القلب

المبحث السابع: علاج الختم على القلب

المبحث الأول: مكانة القلب وأهميته (١)

لا تستقيم حياة رعية إلا باستقامة راعيها ومليكها، فإذا صلحَ الملك صلحت الرعية وإن فسد فسدت الرعية، وما ذلك إلا لأنهم تبع له، بأمره يأتمرون، وبقوله يعملون، وذلك هو حال قلب الإنسان مع الجوارح.

وقد شبه النبي -صلى الله عليه وسلم- القلب بالملك وشبه الجوارح بالرعية، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ». (رواه الشيخان)؛ فإذا استقام القلب وصلح صلحت إرادته وصلحت الجوارح تبعاً لذلك؛ فيصلح البصر فلا ينظر إلا إلى خير، وإذا استقام القلب وصلح؛ فيصلح السمع فلا يسمع صاحبه إلا خيراً، وتصلح اليد فلا تأخذ إلا خيراً، ولا يكتب بها إلا حقًا، وإذا استقام القلب تصلح الرِّجلُ فلا تسعى إلا إلى خير، ولا يمشي صاحبها إلى شر أبدًا، وحين يصلح القلب تصلح البطن؛ فيأبى صاحبها أن يأكل حرامًا، ويصلح اللسان فيأبى أن يتكلم باطلاً، يأبى أن يغتاب أو ينم، وإذا صلح القلب تصلح جميع الجوارح؛ كما في الحديث: «إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ".

وحين يفسد القلب تفسد إرادته، وتفسد معه الجوارح كلها، وتنبعث في معاصي الله -عز وجل- وما فيه سخطه، ولم تقنع بالحلال؛ بل تسرع في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق؛ فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، قال تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: ٨٨]، وهو أن يكون سليما من الشهوات والشبهات، بعيدًا عن جميع ما يكرهه الله تعالى من الرذائل والسيئات، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته.

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القلب والأعمال الظاهرة؛ فإن الأعمال الظاهرة ناتجة عن ما في القلب وما يعتقده وما يدين به؛ ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما عند مسلم من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «فَوَ الَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»(متفق عليه).

قال شراح هذا الحديث: «وسبب هذا الأمر: القلب وما فيه، فلما كان هذا الذي يعمل صالحًا يعمل بعمل أهل الجنة وقلبه على غير ما يظهر عاقبه الله في نهاية الأمر، وأبدى -عز وجل- مساوئه، وفضحه فعمل بعمل أهل النار فدخلها».

إذن الدسيسة التي في القلب هي التي تظهر عند الممات؛ فإما أن يختم للإنسان بالخير وإما أن يختم له بالشر، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «إنما الأعمال بالخواتيم»، (رواه البخاري)، وجاء بيان ذلك في حديث آخر في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(متفق عليه).

وكما أن الجوارح تتأثر باستقامة القلب وميله، فكذلك القلب يتأثر باستقامة الجوارح وميلها، ويدل على ذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [الصف:٥]؛ أي فلما مالوا عن اتباع الحق وانصرفوا عنه إلى الحرام صرف الله قلوبهم إلى الضلال والغواية.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»، (رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني).

وقد جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- بين تأثر القلب بالظاهر وتأثر الظاهر بالقلب في قوله: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(رواه مسلم).

قال ابن القيم-رحمه الله-: «تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد».

إخوة الإسلام: إن القلب ملك الجوارح، واستقامتها باستقامته، وهنا تكمن أهميته، وأهمية العناية به؛ فهو خط الدفاع الأول، إن ضعف أو فسد أو استسلم انهارت الجوارح وخارت ولم تنهض.

ولأهمية القلب؛ فقد نسب إليه القرآن الكريم أشرف الأعمال، وخُص بأمور لم تكن لغيره من الأعضاء، فالحق تبارك وتعالى خصه بوظيفة التفقه والتعقل، قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) [الحج: ٤٦]، وقال -أيضاً-: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) [الأعراف: ١٧٩]، فنسب الفقه والفهم والوعي إليه.

كما أن نزول القرآن كان على القلب، قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

ونسب الله -سبحانه وتعالى- الإيمان والهداية إليه فقال: (ومن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [التغابن: ١١]؛ كما أن الله تعالى ألزم عباده بقيام الحجة عليهم؛ إذا توفرت القدرة على الإدراك وعلى الفعل، فحاسب عباده بما منحهم من وسائل الإدراك قال تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [الإسراء:٣٦٦].

أيها المسلمون: لقد امتن الله على عباده في غير ما آية بأنْ منحهم القدرة على الإدراك، والاستعداد؛ لقبول العلوم وفهمها وحفظها، بل واستذكارها متى ما احتاجوا إليها، فمدار الإدراك والتكليف على العقل؛ ولذلك قال ابن القيِّم -رحمه الله-: «ولما علم عدو الله إبليس أنَّ المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق».

وقد جعل الله -سبحانه وتعالى- العمى الحقيقي عمى القلوب عن الحق والانتفاع بالهدى، قال تعالى: (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج:٤٦]، قال ابن سعدي -رحمه الله- عند تفسيره هذه الآية: « أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده، كما لا يشاهد الأعمى المرئيات، وأما عمى البصر، فغايته بلغة، ومنفعة دنيوية».

إخوة الدين: إن القلب وعاء التقوى، قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «التقوى ها هنا» (متفق عليه)، وأشار إلى صدره، ليدل ذلك على أن مكان التقوى هو القلب، والقلب وحده، فليست التقوى عبرةَ خشوعٍ أو دمعةً تخرجُ من عينٍ أو إطالةَ سجدةٍ، أو غير ذلك من المظاهر الفارغة من الخشوع والروحانية، إنما التقوى معنىً قلبي، وسرٌّ مستودع في القلب لا يطلع عليه أحد إلا الله.

وهذا سيدنا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يبين أن الاهتمام بالقلب وأعماله، أهم من الاهتمام بالظاهر، فقال ذات يوم مخاطباً جموعَ التابعين المجدّين في عبادات الجوارح: «أنتم أطول صلاةً، وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله، وهم كانوا أفضل منكم»، قيل له: بأي شيء؟ قال: «إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»؛ فلذلك كانت العناية بالقلب والاهتمام به أمراً عظيماً، وضرورة قائمة، فالعمل القليل تكثره النية الصالحة من القلب الصالح السليم.

معاشر المسلمين: إن القلب مركز الإيمان، ومركز الحب والبغض، ومركز الطمأنينة والقلق والخوف، قال الله -عز وجل- في محكم الذكر: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [الأنفال:٢]، وقال أيضاً: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: ٢٨].

فلذلك كانت مكانته عالية وقيمته غالية، والسعي لهدايته وصلاحه سامية، إذ بصلاحه تصلح حياة المرء ويسعد، فهو محل نظر الرب تعالى، وهنا تكمن غاية الأهمية، فاجتهدوا -رعاكم الله- في حفظه ورعايته بالتزود من الطاعات وإبعاده عن المنكرات والشهوات.

المبحث الثاني: تطهير وعاء العلم (٢)

تطهيرُ وعاءِ العلم: وهو القلب، فإن لكل مطلوبٍ وعاءَه، وإن وعاءَ العلم القلب، ووسخُ الوعاء يعكّره ويغيّر ما فيه.

وبحسبِ طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم، ومَثَلُ العلم في القلب كنور المصباح، إن صفا زجاجه شّعت أنواره، وإن لّطخته الأوساخ كَسفت أنواره. فمَن أراد حيازة العلم فليزّين باطنه ويطّهر قلبه من نجاسته، فالعلم جوهرٌ لطيف لا يصلح إلا للقلب النظيف.

وطهارةُ القلب ترجع إلى أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.

ولِما لطهارة القلب من شأن عظيم؛ أُمر بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في أول ما أُمر في قوله تعالى في سورة المدّثر: (وثيابَكَ فطّهر) في قول مَن يفّسر الثيابَ بالباطن، وهو قولٌ حسنٌ له مأخذٌ صحيح.

وإذا كنتَ تستحي من نظر مخلوقٍ مثلك إلى وسَخِ ثوبك فاستحِ من نظرِ الله -عز وجل- إلى قلبك، وفيه أِحَنٌ وبلايا وذنوبٌ وخطايا.

قال مسلم بنُ الحّجاج: حدثنا عمرٌو الناقدُ قال: حدثنا كثيرُ بنُ هشام قال: حدثنا جعفرُ بنُ برقانَ عن يزيدَ الأصم، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله -عز وجل- لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكِن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

واحذَرْ كمائِنَ نفسِكَ اللاتي متى ... خرجَت عليكَ كُسرتَ كسرَ مُهانِ

مَن طّهر قلبهُ فيه العلمُ حّل، ومن لم يرفع منهُ نجاستَهُ وَدعَه العلمُ وارتحل.

وإذا تصّفحتَ أحوال طائفةٍ من طلاب العلم في هذا المعقِد رأيتَ خللاً بّيناً! فأين تعظيم العلم من امرئٍ تغدو الشهواتُ والشبهات في قلبه وتروح؟ تدعوه صورة محرمة، وتستهويه مقالة مجرمة، حشوه المنكرات والتلذذ بالمحرمات، فيه غّل وفساد، وحسدٌ وعناد، ونفاق وشقاق، أّنى لهؤلاء وللعلم! ما هم منه ولا هو إليهم!!

قال سهل بن عبد الله -رحمه الله-: (حرامٌ على قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله -عز وجل-).

المبحث الثالث: من درر ابن القيم عن القلوب (٣)

لطبيب القلوب العلامة ابن القيم رحمه الله درر نفسية عن القلب، بثها في العديد من مصنفاته، وقد يسر الله الكريم فجمعت بعضًا منها، أسأل الله أن ينفع بها الجميع.

القلب الطاهر:

قال الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قُم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر﴾ [المدثر:١-٤] وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

القلب الطاهر-لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث-لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة.

حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] أي ادخلوها بسبب طيبكم...فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث.

الله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب.

برّ القلب وفجوره:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣] إشارة هذه الآية أن برَّ القلب يُوجب نعيم الدنيا، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ إشارة هذه الآية أن فجوره يوجب جحيمها.
كتاب: الكلام على مسألة السماع

استقامة القلب:

استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حُبُّ الله تعالى حبَّ ما سواه...وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل! وما أكثر ما يُقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره أو شيخه أو أهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن يُنكد عليه محابه ويُنغصها عليه، فلا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص، جزاءً له على إيثاره هواه وهوى من يعظمه من

الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى...قد قضى الله عز وجل قضاءً لا يُردّ ولا يُدفع، أن من أحب شيئًا سواه عذبه به ولا بد، وأن من خاف غيره سلطه عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره لم يُبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي...فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية...فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي، ولا عن تعظيم الآمر الناهي.

كتاب: الوابل الصيب ورافع الكلم

القلوب ثلاثة:

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مُظلم، قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكَّم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومحاولات ومطامع، فالحرب دُول وسِجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في قلبه إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد، لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حُرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان ليتخطاها رُجِم فاحترق.

وقد مُثِّل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره، وليس فيه جواهر الملك وذخائره، وبيت خال صفر لا شيء فيه. فجاء اللص ليسرق من أحد البيوت، فمن أيها يسرق؟! فإن قلت: من البيت الخالي، كان محالًا، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق. وإن قلت: يسرق من بيت الملك، كان ذلك من كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس ما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك نفسه؟! فلم يبق للصِّ إلا البيت الثالث، فهو الذي يشُنُّ عليه الغارة.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، ولينزله على القلوب، فإنها على منواله.

كتاب: الوابل الصيب ورافع الكلم

وقال رحمه الله: انقسام القلوب إلى صحيح وسقيمٍ وميت:

القلب الصحيح هو القلب السليم، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، وهو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله.

القلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، حبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه.

القلب الثاني: الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه...الهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائسه، والغفلة مركبه...الدنيا تسخطه وترضيه.

القلب الثالث: له حياة وبه علة، فله مادتان تمُده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لِما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات والحسد والكبر والعجب ما هو مادة هلاكه.

كتاب: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

الطرق التي يصاب منها القلب:

جماع الطرق والأبواب التي يصاب منها القلب وجنوده أربعة، فمن ضبطها وعدلها، وأصلح مجاريها، وصرفها في محالها اللائقة بها - ضبطت وحفظت جوارحه ولم يشمت به عدوه؛ وهي: الحرص والشهوة والغضب والحسد.

فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير، وكما هي طرق إلى العذاب السرمدي فهي طريق إلى النعيم الأبدي.

كتاب: التبيان في أيمان القرآن

صدأُ القلب، وجلاؤه:

وصدأُ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبًا على قلبه، وصداؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسودَّ، وركبه الرانُ، فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًا، ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب، وأصل ذلك من الغفلة، واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب، ويعميان بصره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٨٢]

كتاب: الوابل الصيب ورافع الكلم

فرح القلب وابتهاجه:

ابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضلُ ما يعطاه، بل هو أجل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا. فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر، وهو فرحه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه. وكلما تمكن في ذلك قوي فرحُه وابتهاجه.

كتاب: الروح

القلب المطمئن:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] فإن طمأنينة القلب وسكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى ذكر الله البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

قضى الله سبحانه وتعالى قضاءً لا مرد له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته، كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سُلِبه وزايَلَه.

وقد جعل الله سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبيه له، والتوفيق له بيد من أزمَّة التوفيق بيديه، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له وإلا فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جُعل له. مثاله: جَعَلَ كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته، ومحبته، والإنابة، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به، فإذا عدم القلبُ ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبة، ويكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك.

كتاب: الروح

القلب السليم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٩٨] فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشبهة التي تُوجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم: الذي سَلِم من هذا وهذا.

كتاب: الروح

وقال رحمه الله: القلب السليم الذي لا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله به هو القلب الذي...قد سلَّم لربه، وسلَّم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لخبره، فهو لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته وأمره وشرعهُ ووسيلته وطريقته، لا تعترضه شبه تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مُجتازة، تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه. ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل، وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك ينتظمها.

كتاب: مفتاح دار السعادة

وقال: قد أثنى الله تعالى على خليله بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٣٨-٤٨]، والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكِبر وحب الدنيا، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حُجُب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر.

كتاب: الداء والدواء

القلب الرّقيق:

رِقَّة القلب ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقَّ الناس قلبًا، فرِقّة القلب رحمة ورأفة.

والقلب إذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رقَّ وصارت فيه الرأفةُ والرحمة، فتراه رقيقًا رحيمًا رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جُحرها، والطير في وكرها، فضلًا عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله تعالى. قال أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالعيال.

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة.

كتاب: الروح

أبغض القلوب إلى الله:

أبغض القلوب إلى الله: القلب القاسي، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢] وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]

كتاب: الروح

عبودية القلب:

من تأمل الشريعة في مصادرها وموارِدها علم ارتباط أعمال القلب بأعمال الجوارح، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يُميزُ المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يُمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظمُ من عبودية الجوارح وأكبر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت.

كتاب: بدائع الفوائد

خشوع القلب:

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق:

أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوعُ الجوارح.

وأما خشوع النفاق، فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا، والقلب غير خاشع. وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق. قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعًا، والقلب غير خاشع.

كتاب: الروح

القلب القاسي:

الجبال أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشيته. فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكرُ الرب تبارك وتعالى، فلا تلينُ ولا تخشع ولا تُنيب، فليس بمُستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تُذيبها إذا لم تلِن لكلامه وذكر زواجره ومواعظه.

فمن لم يلِن لله في هذه الدنيا قلبه، ولم ينب إليه، ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه المُلين الأعظم، وسيُردُ إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

كتاب: مفتاح دار السعادة

وقال رحمه الله: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

-خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. إذا قسا القلب قحطت العين.

-قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة.

كتاب: الفوائد

أمراض القلب:

القلب يعترضهُ مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه ومُوته، وهما: مرض الشهوات، ومرض الشبهات، وهذان أصلُ داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه:

أما مرض الشبهات، وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]

وأما مرض الشهوة، ففي قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] أي: لا تَلِنَّ بالكلام فيطمعَ الذي في قلبه فجور وزنا.

وللقلب أمراض أُخر من: الرياء، والكِبر، والعُجب، والحسد، والفخر، والخُيلاء، وحبِّ الرياسة والعلوِّ في الأرض. هذه الأمراض كلُّها متولدة عن الجهل، ودواؤها العلم.

فأمراض القلوب أصعبُ من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يُفضي بصاحبه إلى الموت، وأمَّا مرضُ القلب فيُفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم.

ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاءً لأمراض الصدور، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفَاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧] فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفُّس في الهواء؛ بل أعظم.

وبالجملة، فالعلم للقلب مثل الماء للسَّمك، إذا فقده مات.

كتاب: مفتاح دار السعادة

وقال رحمه الله: القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

كتاب: الروح

وقال رحمه الله: قد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يُوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

مرض القلب، نوع لا يتألم به صاحبه في الحال، كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم...وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويُشقيه ما يشقيه.

إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

العين مرآة للقلب:

جعل سبحانه العينين مرآتين للقلب؛ يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، والزيغ والاستقامة.

فيُستدل بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة، وهي: فراسة العين والأذن والقلب. فهما أي: العينان مرآة لما في القلب...ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه وغضبه وحبه وبغضه ونفرته وقُربِه.

كتاب: التبيان في أيمان القرآن

غنى القلب:

غنى القلب: «سلامته من السبب» أي من الفقر إلى السبب، وشهوده، والاعتماد عليه، والركون إليه، والثقة به، فمن كان معتمدًا على سبب غنيًا به واثقًا به لم يطلق عليه اسم «الغني» لأنه فقير إلى الوسائط، بل لا يسمى صاحبه غنيًا إلا إذا سلم من علة السبب استغناءً بالمسبب، بعد الوقوف على رحمته وتصرفه وحسن تدبيره، فلذلك يصير صاحبه غنيًا بتدبير الله عز وجل.

فمن كملت له السلامة من علة الأسباب، ومن علة المنازعة للحكم، بالاستسلام له، والمسالمة أي بالانقياد لحكمه...حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته.... ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر، وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الربِّ، فإن مخاصمة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيراً إلى حظٍّ من الحظوظ يسخط لفوته، ويخاصم الخلق عليه، لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته لكمال تفويضه إلى وليّه وقيومه ومتولى تدبيره.

فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علَّة منازعته لأحكام الله عز وجل، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنيًا بتدبير مولاه، مفوضًا إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئًا من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه، فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله. كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاح صلاة الليل: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ).

كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين

القلب الميت المظلم:

القلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بُعث به رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم من جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة.

كتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية

القلب الحي المستنير:

القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهِم عنه، وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم.

كتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمي

القلب خُلِق لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده والسرور به:

القلب خُلِقَ لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده والسرور به والابتهاج بحبه، والرضى عنه، والتوكل عليه، والحب فيه، والبغض فيه، والموالاة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون أحبَّ إليه من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، وأجلَّ في قلبه من كل ما سواه.

كتاب: زاد المعاد في هدى خير العباد

القلب الزجاجي:

وأصحُّ القلوب: القلب الرقيق الصافي الصلب، فهو يرى الحقّ من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته. وهذا القلب الزجاجي، فإن الزجاجة جمعت بين الأوصاف الثلاثة.

كتاب: الروح

من أنفع الأمور للقلب:

قصر الأمل والعلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدَّة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على انتهاز الفرص، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثُّه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا ويرغبه في الآخرة.

كتاب: مدارج السالكين في منازل السائرين

حال القلب مع الملك والشيطان:

إذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب؛ فهذا يلم به مرةً، وهذا يلم به مرةً، فإذا ألمَّ به الملَكُ حدث من لمته الانفساح والانشراح، والنور والرحمة، والإخلاص والإنابة، ومحبة الله وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة، لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه، ولكن تأتيه لَمَّة الشيطان، فتحدث له من الضيق والظلمة، والهم والغم والخوف، والسخط على المقدور، والشك في الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب. ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله عز وجل: فمنهم من تكون لمة الملك أغلب عليه من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى محو تلك اللمة ولا يدعها تستحكم؛ فيصعب تداركها. ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه من لمة الملك

وأقوى...فيموت القلب فلا يحس بما ناله الشيطان، مع أنه غاية العذاب والألم والضيق والحصر، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك المؤلم.

كتاب: التبيان في أيمان القرآن

القلب ومعرفته بأسماء الله عز وجل وصفاته:

ليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيءٍ أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبدُ بها أعلم، كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر، كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد.

والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث يُنزلُه العبدُ من نفسه، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مُبغضًا، وعنها معرضًا، نافرًا ومنفرًا، فالله له أشدُّ بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أَكبرُ مقتًا، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب ذكرُ الأسماء والصفات قوته وحياتهُ، ونعيمُه وقُرةُ عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها ساعة لاستغاث: يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك. والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أُنزلت عليه مسدود، قد قمَشَ شُبهًا من الكلام الباطل، وارتوى من ماءٍ آجن غير طائل، تعجُّ منه آياتُ الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا وتضجُّ منه إلى مُنزلها ضجيجًا مما يسمونه تحريفًا وتعطيلاً، مُزجي البضاعة من العلم النافع المورث عن خاتم الرسل والأنبياء لكنه مليء بالشكوك والشُّبَه والجدال.

كتاب: الكافية الشافعية في الانتصار للفرقة الناجية

قلب العاصي:

لو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سُكرُ الغفلة والشهوة، فإن للشهوة سُكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر.

كتاب: الروح

القرآن شفاء لأمراض القلب:

أنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] وجماع أمراض القلب...أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين..... ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

القرآن...شفاؤه لمرض الشهوات...بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار فيرغب القلب

السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده.

القرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فُطِرَ عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية... فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه.

كتاب: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

زكاة القلب:

القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، وزكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت.

القلب لا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

كتاب إغاثة اللهفان

من علامات صحة القلب:

** كلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

** من علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويُذكره به، ويذاكره بهذا الأمر...وإذا فاته ورده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

** ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه، حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، لذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به.

** ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقُرة عينه وسرور قلبه.

** ومنها: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بماله.

** ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

كتاب: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

وفي الختام يقول طبيب القلوب العلامة ابن القيم رحمه الله:

القلب يمرضُ كما يمرض البدن، وشفاؤهُ في التوبة والحمية، ويصدأُ كما تصدأ المرآةُ، وجلاؤهُ الذكر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى، ويجوعُ ويظمأُ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمةُ.

كتاب: الفوائد

المبحث الرابع: ابن القيم يحدثنا عن المعاصي (٤)

هـذا فصـل مختـصر مـن كتـاب (الجـواب الـكافي لمـن سـأل عـن الـدواء الشـافي).. للإمـام ابـن القيـم الجوزيـة - رحمـه اللـه -والكتـاب غنـي عـن التعريـف.

واختـصرت مـا يتطـرق للمعـاصي وأضرارهـا، وأوردتهـا في أرقـام متسلسـلة كـما سـيقت لترتيـب النقـاط ولتيسـير القـراءة والاطـلاع.

يقـول الإمـام - رحمـه اللـه -: وللمعـاصي مـن الآثـار القبيحـة المذمومـة المـضرة بالقلـب والبـدن في الدنيـا والآخـرة، مـا لا يعلمـه إلا اللـه.

١.حرمان العلم. فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

٢.حرمان الرزق. وفي المسند (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه).

٣. وحشـة يجدهـا العـاصي في قلبـه لا يوازنهـا ولا يقارنهـا لـذة أصـلا، لـو اجتمعـت لـه لـذات الدنيـا بأسرهـا لم تـفِ بتلـك الوحشـة. وهـذا أمـر لا يحـس بـه إلا مـن في قلبـه حيـاة، ومـا لجـرُحٍ بميـتٍ, إيـلامُ.

٤. الوحشـة التـي تحصـل بينـه وبـين النـاس لا سـيما أهـل الخـير منهـم. فتقـع بينـه وبـين امرأتـه وولـده وأقاربـه، وبينـه وبـين نفسـه، فـتراه مستوحشـا مـن نفسـه. وقـال بعـض السـلف: إني لأعـصي اللـه فـأرى ذلـك في خلـق دابتـي وامـرأتي.

٥. تعسير أموره.

٦. ظلمة يجدها في قلبه، حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم.

٧. أن المعاصي توهن القلب والبدن.

٨. حرمان الطاعة.

٩. أن المعاصي تقصّر العمر وتمحق بركته.

١٠. أن المعـاصي تـزرع أمثالهـا ويولـد بعضهـا بعضـا، حتـى يعـز عـلى العبـد مفارقتهـا والخـروج منهـا، كـما قـال بعـض السـلف: إن مـن عقوبـة السـيئة السـيئة بعدهـا، وإن مـن ثـواب الحسـنة الحسـنة بعدهـا.

١١. أنهـا تضعـف القلـب عـن إرادتـه،- وهـو مـن أخوفهـا عـلى العبـد- فتقـوى إرادة المعصيـة وتضعُـف إرادة التوبـة شـيئا فشـيئا، إلى أن ينسـلخ مـن قلبـه إرادة التوبـة بالكليـة.

١٢. أنـه ينسـلخ مـن القلـب اسـتقباحها فتصـير لـه عـادة. فـلا يسـتقبح مـن نفسـه رؤيـة النـاس لـه ولا كلامـه فيـه.

١٣. أن كل معصيـة مـن المعـاصي، فهـي ميـراث عـن أمـة مـن الأمـم التـي أهلكهـا اللـه - عـز وجـل -. فالعلـو في الأرض والإفسـاد ميـراث فرعـون وقومـه. واللوطيـة ميـراث قـوم لـوط. وهكـذا.

١٤. أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم. وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، قال الله - تعالى -في سورة الحج: (ومن يهن الله فماله من مكرم).

١٥. أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك.

١٦. أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

١٧. أن المعصية تورث الذل فإن العزّ كل العزّ في طاعة الله - تعالى -، قال - تعالى -في سورة فاطر: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا). أي فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته. قال الحسن البصري: فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

١٨. أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نورا والمعصية تطفئ نور العقل.

١٩. أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من المغفلين، كما قال - تعالى -في سورة المطففين: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)

٢٠. حرمان دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودعوة الملائكة فإن الله - سبحانه - أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

٢١. ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه. وفي الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «الحياء خير كله» وقال: «ومما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت".

٢٢. أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال - تعالى -: (يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

٢٣. أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمه إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد قال - تعالى -: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير).

٢٤. أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينةً بذكره؟ حتى يقول بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف. ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى أنه غبن، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين، فيا عجبا من بضاعة معك، الله مشتريها، وثمنها الجنة، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد بعتها بغاية الهوان.

المبحث الخامس: آثار ترك الذنوب والمعاصي (٥)

قال ابن القيم رحمه الله:

سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال - الذي جعله الله قواما لمصالح الدنيا والآخرة -، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم له وحميتهم له إذا أوذي أو ظلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجدان حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكرام الكاتبين له، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه وفرحه بتوبته.

فهذا بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. انتهى.

المبحث السادس: الختم على القلب (٦)

قال الله تعالى: (خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ) (البقرة: ٧).

فمثل هذه الآيات تبين الآثار السلبية والتي تنتج عن الأعمال السيئة. فإن كثرة المعاصي تأتي على القلب فتفسده، كما يصدأ الحديد، ويبلى الخشب، وتتسخ المرآة. فإن الفساد في الإنسان كالفساد في الطبيعة.

ويبين القرآن الكريم الفطرة، قال الله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم:٣٠).

والفطرة، هي الخلقة والبنية الأساسية التي تكونت عليها الموجودات، كما أنها تعني مبادئ وقوانين التطور والتغير، وعليها يجري نظام كل شيء: السماوات، والأرض، والناس، والحيوانات... إلخ. ومن يتبع القرآن وهديه فإن تحركاته وإيقاع حياته سيكون موافقاً ومنسجماً مع تلك الفطرة. وهو بذلك يستفيد مما أودعه الله في السماوات والأرض على الوجه الأكمل، وسيدخل الجنة بعد الموت إن شاء الله تعالى ويفوز بسعادة خالدة.

ومن خالف الفطرة فقد خالف الحق وأفسد الميزان، لأن القرآن الكريم يدعو إلى الفطرة. والفساد يبدأ أولاً في ذات الإنسان، والسبب في ذلك هو المنافع والأمنيات والرغبات. فعليه أن يُعرض عن تلك الأمنيات الفارغة وإلا صدأ قلبه كما يصدأ الحديد، ويكسب بذلك طبيعة جديدة تكون بعيدة كل البعد عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. قال الله تعالى في وصف هؤلاء: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين: ١٤).

ويتعود الإنسان على العادات السيئة ثم يبدأ يتلذذ بها. كالمدخن فإنه يحس في بداية تدخينه برائحة كريهة كرائحة الجيفة. وفي المرة الثانية كذلك، ولكن بدرجة أقل من الأولى. وإذا طال به الأمر في التدخين فإنه يكتسب سجية جديدة تجعله يتلذذ به. وكذلك الكذاب؛ فهو ينزعج في البداية حين يكذب. ولكنه عندما يعتاد الكذب فإنه يكتسب طبيعة جديدة، وبالتالي يصبح الكذب بالنسبة له كحاجة أصلية لا مفر منه.

والقلب هو مركز التحكم في الإنسان، وبالعقل يعرف ما هو الصحيح. فيقبله القلب أو يرفضه حسب المصالح والرغبات أو الطموحات. لأن اتباع ما قرره العقل يتطلب دفع الثمن.

والذي لا يريد دفع الثمن يرفض امتثال كثير من الأعمال الصالحة بالرغم من معرفته أنها صحيحة، ومن هنا يبدأ الفساد، فتصبح العين لا ترى بعض الأشياء، والأذن لا تسمع. فيأخذ بذلك آراءه الشخصية مكان الحقائق العامة. فيتكون له بيئة جديدة. ويجد فيها أصدقاء جدد ليعضدوه. قال الله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) (الجاثية: ٢٣).

وحصول هذا التأثير على الأذن والقلب، ونزول الغشاوة على البصر، ما هو إلا نتيجة طبيعة حاصلة من اتباع هوى القلب. وهذا ما بينته الآية السابعة من سورة البقرة. وهذه الآية تعطي للموضوع وضوحا أكبر؛ قال الله تعالى: «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون» (النحل: ١٠٦-١٠٨).

ومعنى كلمتي الختم والطبع المذكورتين في الآية، هي ترك الأثر على شيء أو هي الأثر نفسه. وقيل في كثير من معاني القرآن الكريم أنها ترك الأثر على شيء. واْستُشهِدَ على صحة هذا المعنى بالآية السابعة من سورة البقرة. فقيل في معنى الآية: جعل الله تعالى أسماعهم وقلوبهم مختومة.

إلا أننا نرى أنّ هذا المعنى مخالف لعموم القرآن الكريم، إذا كان الله تعالى قد ختم أي طبع الختم على قلب الكافر وسمعه وغطى بصره بستار، فأصبح الكافر بذلك لا يستطيع فعل أي شيء، فيكون تعذيبه على كفره ظلماً. وإنما قصد بالختم المجاز وليس الحقيقة، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية.

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: «فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجُّه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطي عليها وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك. وأمّا التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية. وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعيّ ختماً عليه فقال:

خَتَمَ الإله عَلى لِسَانِ عُذَافِرٍ... خَتْماً فلَيْسَ عَلى الكلامِ بقَادِرِ

وإذا أَرَادَ النُّطْقَ خِلْتَ لِسَانَهُ... لَحْماً يُحَرِّكُهُ لِصَقْرٍ نَاقِرِ

فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: (وَمَا أَنَاْ بظلام لّلْعَبِيد) (ق: ٢٩)، (وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين) (الزخرف: ٧٦)، (إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء) (الأعراف: ٢٨). ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه. وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟ ويجوز أن

تضرب الجملة كما هي، وهي ختم الله على قلوبهم مثلاً كقولهم: سال به الوادي، إذا هلك. وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته؛ وإنما هو تمثيل مثلت حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغتام التي هي في خلوّها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدّر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عزّ وجلّ فعل في تجافيها عن الحق ونبوّها عن قبوله، وهو متعال عن ذلك. (الكشاف، الزمخشري١/٢٩).

ويؤيد البيضاوي هذا التفسير بقوله: "وإنما المراد بهما (أي الطبع والختم) أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطي عليها. وحيل بينها وبين الإبصار، وسمّاه على الإستعارة ختماً وتغشية" (تفسير البيضاوي، ١ / ٢٦).

قال تعالى في سورة الصف: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» (الصف: ٥) وتتحدث هذه الآية وأمثالها عن أن الأعمال السيئة تتولد عن العادات السيئة وهذا من قبيل سنة الله في الأشياء، وهكذا يكون الصلاح والفساد جنبا إلى جنب في عالم الامتحان.

المبحث السابع: علاج الختم على القلب (٧)

سبق التوضيح أن الختم المذكور في قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (البقرة: ٧)، ليس ختما على الحقيقة، وإنما قُصد به المجاز، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيليَّة. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: "فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل.

وذكرنا قول البيضاوي: "وإنما المراد بهما (أي الطبع والختم) أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرِّنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطَّاعات بسبب غيِّهم، وانهماكهم في التَّقليد، وإعراضهم عن النَّظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحقُّ، وأسماعُهم تعاف استماعه فتصير كأنَّها مستوثقٌ منها بالختم، وأبصارُهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطِّي عليها. وحيل بينها وبين الإبصار، وسمّاه على الإستعارة ختماً وتغشية.

وباب التوبة مفتوح لكلِّ إنسان مهما بلغ ذنبه واشتدَّ كفره، لأنَّ ذلك مقتضى الامتحان، كما أنَّه من تمام عدل الله. قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر: ٥٣) وتُقبل توبة العبد ما لم يحضره الموت، قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (النساء: ١٨).

أمّا السبيل للانفكاك عن ختم القلب فيكون بالإقبال على كتاب الله والإصغاء إليه. يقول الله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٢٢)، والميْتُ في الآية هو من خُتِم على قلبه، والنُّور هو القرآن، وبه يمكن للإنسان أن ينجوَ من الختم على قلبه (موت القلب)، ذلك أنَّ الختم هو نتيجةُ الإصرار على الكفر أو المعاصي، ويبدِّدُه التَّوجُّهُ نحو كتاب الله فهماً وعملاً وليس مجرد تلاوة وترديد، فالقرآن ذكرٌ عظيم لا يأتي أكله إلا إذا تدبَّره الإنسانُ بقصد الفهم والتَّطبيق.

الفصل الثاني: الهداية

المبحث الأول: الإنسان والحاجة إلى سكينة الإيمان

المبحث الثاني: سبيل الهداية

المبحث الثالث: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين

المبحث الرابع: اكتشف قدراتك.. بالعودة إلى الله

المبحث الخامس: من ظفر بالتوبة ظفر بحب الله تعالى

المبحث الأول: الإنسان والحاجة إلى سكينة الإيمان (٨)

توطئة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٨٢]، وورد عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((أحَبُّ الدِّينِ إلى الله الحنيفيةُ السَّمحة))، وفي الصَّحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإسلامُ أنْ تشهَد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحُجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلًا))، وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((المسلم مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَده))، وعن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه؛ أنَّه سأل النبيَّ عن الإسلام، فقال: ((أنْ تُسلم قلبَك لله، وأنْ تُولي وجهَكَ إلى الله، وأن تُصلي الصلاة المكتوبة، وتُؤدي الزَّكاة المفروضة)).

وعن أبي قلابة، عن رجُل من أهل الشام، عن أبيه، أنَّه سأل النبي: ما الإسلام؟ فقال: ((أنْ تُسلم قلبَك لله، ويَسْلَم المسلمون من لسانك ويَدك))، قال: أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: ((الإيمان))، قال: وما الإيمان؟ قال: ((أنْ تُؤمن بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، والبعْث بَعد الموت)).

سكينة الإيمان:

دومًا فإنَّ الإيمانَ يدعوك إلى أن تكُون مسالمًا مع نفسك ومع الآخرين، وتُقبل على أيِّ عملٍ من شأنه أن ينمِّي حالةَ السلم هذه في نفسك، إنَّ علاقتَك الكبرى والأولى هي مع الله، ومن ثَمَّ مع نفسك، وأنت يُمكنك أن تحصل الطمأنينة والسكينة لنفسك ما دُمت ترفع عنك وعن غيرك الضر، وتُحقق لنفسك ولغيرك النفع.

يُمكنك أن تُصغي إلى نفسك، فتقول لك بأنَّ السارق ليس هو ذاك الذي يَمُدُّ يديه إلى ممتلكات الناس فحَسْب، السارق كذلك هو الذي يَمدُّ أذنيه، فيسترق كلمةً ليست له، يَمدُّ عينيه؛ ليختلس نظرة ليست له، وأمام ذلك ترى هذا الشخص يترفَّع عن نفسه، فيقفل سَمَّاعة الهاتف عندما يردُّ على هاتفه صوتٌ مُتشابك، وكما أنه يرتقي في ألَّا يَمدَّ يديه إلى جيب جاره، فيسرق ماله، فإنه يرتقي ألَّا يمدَّ بصَره؛ ليسترقَ عِرْض جاره.

فتعاليم الإسلام فيها الخير كل الخير، لقد كان الناس بحاجة إلى دفء السِّلم أكثر مما كانوا بحاجة إلى صقيع الحروب، فجاء الإسلام؛ ليُخرجهم من صقيع الحروب إلى دفء وسكينة السِّلم بالكلمة الطيبة، وبواسطة أنبياء حملوا كتبًا، ولم يحملوا سيوفًا إلا لتحقيق الأمن والأمان والسِّلم في المجتمع، بَنَوْا مساجدَ تَجمع الناس، وتزرع فيهم المحبة لله وللناس.

عن أم سلمة رضي الله عنها؛ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّما أنا بَشَر، وإنَّكم تَختصِمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكُون ألْحَنَ بحجَّته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمَن قضيتُ له بحق أخيه شيئًا، فلا يأخذه، فإنَّما أقطع له قطعة من النار))؛ متفق عليه.

يُمكن لك أن تعيشَ مع صفحات الإسلام حياةً سعيدة هادئة، بعيدة عن ردَّات الفعل، ورعود الاضطراب، تكون متمسكًا بحالة الهدوء العامَّة في حواسك، وتعطي لكل وقت وقته، ولكل أمر أمره، ولكلِّ فعل فعله، وأنت تنظر في شخص مضطرب يقول: لساني يقول ولا أفعل، وقلبي يريد ولا أعمل، وأعرف رشدي ولا أهتدي، وأعلم لكنَّني أجهل، ويدركك حينئذ نور أن تفعل وتعمل وتهتدي وتعلم ولا تجهل.

بين الإيمان وقراءة القرآن الكريم:

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلتُ لجدَّتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا سمعوا القرآن؟ قالت: «تدمعُ أعيُنُهم، وتقشعرُّ جلودُهم، كما نَعَتَهُم اللهُ".

وروى ابنُ أبي الدنيا من حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: سمعتُ عبد الله بن حنظلة يومًا وهو على فراشه، وعُدْتُه من علَّته، فتَلاَ رجُل عنده هذه الآية: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ١٤]، فبكى حتى ظننتُ أنَّ نفْسَه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار، ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمن، اقعُد، قال: منعني القعودَ ذِكْرُ جهنم، ولعلِّي أحدُهم.

إنَّ القرآنَ الكريم يَجعلك تتفاعل معه، فتكون مفتيًا على ذاتك، وتفتح القرآن، فترى كلمات ربك الذي يراك تستغفره، وتسبِّح بحمده، إنَّك هنا على عَلاقة تفاعلية مُباشرة مع ربِّك، مع القرآن، ومع آيات الكون تكون في علاقة تفاعلية مُباشرة مع ربك تبارك وتعالى.

قال ابنُ أبي مليكة: صحبتُ ابنَ عباس - يعني: في السفر - فإذا نزل، قام شطْر الليل، ويرتل القرآن حرفًا حرفًا، ويُكثِر في ذلك من النشيج والنحيب.

ومن حديث أبي بكر بن عياش قال: صليتُ خلفَ فضيل بن عياض صلاةَ المغرب، وإلى جانبي عليُّ بن فضيل، فقرأ الفضيل: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، فلما بلغ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]، سقط عليٌّ مغشيًّا عليه، وبَقِيَ الفضيل لا يقدر أن يُجاوز الآية، ثم صلَّى بنا صلاةَ خائفٍ، قال: ثم رابطت عليًّا، فما أفاق إلَّا في نصف الليل.

وذات يوم سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجُلًا يَتهجَّد في الليل، ويقرأ سورة الطور، فلما بلغَ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]، قال عمر: قسَمٌ وربِّ الكعبة حقٌّ، ثم رجع إلى منزله، فمرض شهرًا يَعُودُه الناسُ لا يَدْرُون ما مرضُه.

قال محمد بن حجادة: قلتُ لأم ولد الحسن البصري: ما رأيت منه - أي: الحسن البصري - فقالت: رأيتُه فتَح المصحفَ، فرأيتُ عينيه تسيلان، وشفتيه لا تتحركان، فبمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم تبيَّن الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنَّجاة من الوبال، والغَيِّ من الرشاد، والزَّيغ من الفساد، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل مَن أنعمَ الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشُّهداء والصالحين، على سبيل المغضوب عليهم والضالين.

ثمار الإيمان:

فالحقُّ عَيُوف، والباطل شَنُوف، والشيطان مُتَّكِئ على شماله يَدِبُّ بين الناس بالعَداوة والشَّحناء، عياذاً بالله من فتنة جاهل مغرور، أو خديعة فاجر ذي دهاء وفجور، يَميل به الهوى، ويزيِّن له الشيطانُ طريقَ الغواية والردى؛ قال العزيز الحكيم: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه: ٣٢١ - ٦٢١].

يقول بعضُ المفسرين: إنَّ اللهَ تكفَّل لمَن قرأ القرآن، وعمل بما فيه؛ ألاَّ يضل في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة، ففي الدنيا يُعطيه أعظمَ نعمة، وهي نعمةُ الإيمان، وفي الآخرة يُعطيه ما هو أعظم، وهو نعمة النظر إليه تبارك وتعالى؛ ورد في دُعاء النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللهم إنِّي أسألك لذَّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنة مضلة))؛ رواه النسائي.

وفي «صحيح مسلم» وغيره: عن صهيب، عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا دخل أهلُ الجنة، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّضْ وجوهَنا، ويدخلنا الجنة، ويُجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه؛ فما أعطاهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه))، وليس لك إلا الله، ليس لك دليل إليه أقرب من قلبك؛ ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٥٦]، واعلَم أن ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٦٨٢]، و﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء: ٤٨]، و﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

ليس لك إلَّا الله الذي هو وحدَه صَمَدُك، الذي تصمد إليه في استعاذتك وعبادتك، وتعتضد به كل ساعة، وهو الذي لا يَحتاج منك شيئًا، وأنتَ الذي تَحتاج منه كلَّ شيء؛ ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٠٤]، وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجُلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا، ولو كانوا على أتقى قلب رجُلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، ولو قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مَسألته، ما نَقَصَ ذلك مما عندي شيئًا)).

وانظر هنا إلى دعاء النبي صلَّى الله عليه وسلَّم الذي يُمْكن للمرء أن يُردِّده؛ ليدنوَ به من ربِّه، فيشرح له صدره: ((اللهمَّ إنَّك تسمعُ كلامي، وترى مكاني، وتعلم سِرِّي وعلانيتي، ولا يَخفى عليك شيء من أمري، أنا البائسُ الفقير، المستغيثُ المستجير، الوجل المُشفق، المقرُّ بذَنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهالَ المذنب الذَّليل، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير، مَن خضعتْ لك رقبتُه، وذل لك جسدُه، ورَغِمَ لك أنفُه، اللهم لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيًّا، وكن بي رؤوفًا رحيمًا، يا خير المسؤولين، ويا خير المُعطين)).

يقول الخبيرُ بنيَّة الإنسان في بيانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ٦١].

ورأفةً منه جلَّ وعلا فقد دعا الإنسان إلى نور الإيمان؛ ليُخرجَه من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمات نفسه إلى نور ربِّه، فمن دون أن يَمَسَّه شيء من هذا النور الإلهي المبارك، وترتوي روحه بمياه الإيمان النقية - يلبثُ هذا الكائن في معزل عن ربِّه، عُرضةً لنوازعِ الشرِّ في كوامنه، وفي كائناتٍ أخرى مَرئية

وغير مَرئية، يعيش في مُحيطها، وتعيش في مُحيطه، فيوجِّه عزَّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء: ٦٣١]، ولا يلبث توجيه العزيز في محض الأمر، لكنَّه وبواسع رحمته يُظهر لهم أنوارَ الإيمان التي سوف تسْطع على ظلماتِهم، واضطراب نفوسِهم، فتُحقق في دواخلهم الأمنَ والسكينة والنُّزوع إلى رحاب الفضيلة، وتشفيهم مِن أمراضٍ رُوحية وبدنية، وتمَحو كل أثر من آثار ما اقترفوا من سيئات الأعمال والأقوال.

نور الإيمان:

قال الله جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ٠٧١]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]،

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٢٨]، هذا كله إلى جانب وعْد الله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٩٢]، ثم ينتقل بمخيِّلة الإنسان؛ ليصوِّر نعيمَه، وقد تزيَّن بنور الإيمان، وهذه بشَارة من ربِّ العزة: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: ٢١].

تنمو بذرة الإيمان وتترعرع في تربة الروح بمياه الذِّكر، وبالإكثار من مُمارسة سلوك إيماني، وما أن سبَّح الإنسان في محراب الذِّكر، وحبِّ الله في كل عمل يعمله، وكل لفظ يلفظه، حتى يجد الله يمنُّ عليه بهداية قلبه.

ولا يغرنَّ أحدٌ أن الإيمان ألفاظٌ تَجري على اللسان، فأيُّ لفظ لم يقترن بممارسة إيمانية عَميقة، مثله كمثل الوعاء الفارغ، فليس كل لافظ لشهادة الإيمان وَجَد حلاوته، وقد استفاضَ خاتم النبيِّين - الذي أولاه ربه مهمة نشر وشرح كتاب الإيمان - في وضع نقاط كلمة الإيمان على حروفها في قلب المؤمن، وهو في هذا سيد الشراح، والمشكاة التي يهتدي بها الشراح من بعده، ومن شروحاته لكلمات ربِّه للناس، وهو يبيِّن تهيئة أسباب حلول نور الإيمان على قلب المؤمن: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه، وَجَد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأنْ يُحبَّ المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار))، والحكمة في هذا الموضع من مَحبة الله أنَّها تملأ قلبَ ومشاعر الإنسان بمحبة رسوله، الذي يُبادل المؤمن مَحبة أعلى مرتبة منه، ومن مَحبة الرسول تتوالد سلوكيات مَحبة الناس، لا لغايات أو لمصالح دُنيوية زائلة، بل تتوالد كما هي مَحبة خالصة في الله.

فأيُّ مَحبة حقيقيَّة صادقة لا تُحقِّق كينونتَها، إلَّا إذا سبقتْها هذه المحبة الرَّبَّانية الزَّكية، أمَّا إذا كان فاقدًا لهذه المحبة الإلهية الطَّاهرة، فإنَّ بذرة المحبة تلبثُ ميتة لا يُحركها ساكن من دون الله في عمق فؤاده.

هذا الكائن الذي يحيا في الناس ببذرة مَحبة ميتة هو في واقع الأمر لا انتماء له لسلالة البَشَر إلَّا مظهره، فيكون ممسوخًا في باطنه؛ إذ لا يرى أيَّ قيمة أو مُتعة في الحياة برُمَّتها خارجًا عن لحظات

اكتسابه للمال التي يمتلئ فيها شعورًا بالرِّضَا عن نفسه، وعن جدارة العيش، ويبلغ مرحلة نرجسية غاية في السلبيَّة لا ينظر فيها نظرة إلَّا إذا جَرَّت عليه نفعًا، ولا يَخطو خطوةً إلَّا إذا لمس خلفها مصلحة، لا يمَد كفَّ سلام إلَّا لطمع في نفسه، لا يلفظ كلمةَ حقٍّ إلَّا إذا رأى كسبًا، بل لا تتناهى له فكرة إلَّا وقد قلبها، حتى أتى على وجهها المالي النفعي الزهيد.

كلُّ حركة تبدر منه تكون مرهونة سابقًا بالرِّبح والخسارة في هيئة مادية خالصة، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فلا تلمَس في مَذهبه خَصْلَة حميدة، أو موقف تضحية، أو ذرة رحمة، أو كلمة تسامح، إنَّه كائن بشع فاسد أينما وطأت قدماه، فإن ابتاع سلعة، نظر إلى قيمتها قبل أن ينظر إلى جودتها، وإن أنتجَ سلعةً، نظر إلى بَدَلِها النَّقدي قبل أنْ ينظرَ إلى جودتِها، فيرتمي آخر الليل في أحضان كيسه سعيدًا، وكله انتظار لصباح جديد تحسبًا لزيادة أخرى، بينما عباد الله بوغتوا بهشاشة بضاعته وفسادها، وهم يُكيلون اللَّعنة تِلْوَ الأخرى لمنتجها ومروجها وبائعها.

المبحث الثاني: سبيل الهداية (٩)

أسبَغ الله على عباده مننًا جليلةً، وأعظمُ النِّعم وأعزُّها نعمةُ الهداية لهذا الدّين، وبفضلٍ منه اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ ضالّون، قال سبحانه: (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلالَةُ) [الأعراف:٣٠]

والهدايةُ منحةٌ منَ الكريم لا تُسدَى لكلِّ أحَد، ولا تتحقّق بالآمالِ والأماني، وقد تتخلّف مع وجودِ أسبابها، (بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ) [الحجرات:١٧].

ولا نجاةَ من العذابِ ولا وصولَ إلى السعادةِ إلا بها، وهي أجلُّ نعمِ الله الواجب شكرُها، قال جلّ جلاله: (وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ) [البقرة:١٩٨].

وطلبُ الثباتِ عليها من أخصِّ أدعيةِ الصالحين: (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [آل عمران:٨]. ولا سبيلَ إلى الجنّة إلا بسلوكِ طريقِ الهداية، (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) [الأعراف:٤٣].

ورأسُ الأدعيةِ وأفضلُها الدعاءُ بالهدايةِ، فإنه يجمع صلاحَ العبدِ في الدين والدنيا والآخرة. وأُمِر المسلم بأن يدعوَ ربَّه في كلّ صلاة بأن يمنحَه الهداية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ وأحكمُه دعاءُ الفاتحةِ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة:٦]؛ لأنَّ العبدَ إلى الهُدى أحوجُ منه إلى الأكل والشرب".

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابَه بالدّعاء بالهداية، يقول عليّ رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قل: اللهمّ اهدني وسدِّدني)) رواه مسلم

وقال لمعاويةَ رضي الله عنه: ((اللهمّ اجعله هاديًا مهديًّا واهدِ به)) رواه الترمذي، ومن دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((اللهمّ اهدني ويسِّر الهدَى لي)) رواه الترمذي.

ولعِظَم شأنها لم يخلُ قومٌ من هادٍ ونذير وداعٍ إليها، قال سبحانه: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) [الرعد:٧].

وفتحُ القلوبِ بيَد الله وحدَه، لا للخلقِ منها شيءٌ سوى بذل الأسباب، (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [القصص:٥٦]، (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة:١٤٢].

والجليسُ الصالح خيرُ عونٍ للهداية، يذكِّرك إذا نسيتَ، ويعينك إذا غفلتَ، لا تسمعُ منه إلاّ قولاً طيّبًا وفعلاً حسنًا. الصُّحبةُ الصالحةُ عبادةٌ ممزوجة بالمتعةِ والأنس، تزداد بالإيمانِ والنُّصح، حقيقتُها جسَدٌ واحدٌ تتعدّد فيه القلوب، يقول عليه الصلاة والسلام: ((المؤمنون كرَجلٍ واحد)) رواه مسلم.

وللجليس تأثيرٌ على الدين والسلوك والآداب والأخلاق، والمرءُ يعرَف بمُجالسه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((المرءُ على دين خليله، فلينظُر أحدُكم من يخالِل)) رواه أبو داود.

وقرينُ السوءِ يدعوك إلى البُعدِ عن الطاعات، ويزيِّن لك السيئات، قريبٌ منك في السّرّاء، بعيدٌ عنك في الضرّاء، ضَرَرُه متجدِّد في صُورٍ شتّى، حذّر الإسلام من مصاحبتِه ومن مجالسته، لا للمعالي يُعليك، ولا عن الدنايَا يجافيك، لذا شبّهه النبيّ صلى الله عليه وسلم بنافخِ الكير الذي ينالك أذَاه على كلِّ حال. رفيقُ السّوء صحبتُه حَسرةٌ في الدنيا وندامةٌ في الآخرة، قال جلّ وعلا: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً) [الفرقان:٢٧-٢٩].

وحضورُ مجالسِ العلماءِ من مواطنِ الهداية، في علمهم وتعليمهم زيادةُ إيمان، وعلى وجوههم سمتُ الصالحين، وعلى جوارحهم أمارةُ نقاءِ السريرة، مجالسُهم تذكيرٌ بسِيَرِ الأفذاذ من الأسلاف وشَحذٌ دائم للهِمَم إلى الآخرة، في مجالسَتهم خيراتٌ متناثرة وثمراتٌ يانعة، فكُن أقربَ الناس إليهم، يقول ميمون بن مهران رحمه الله: «وجدتُ صلاحَ قلبي في مجالسةِ العلماء".

وتطهيرُ القلبِ من أدرانِ القوادح والحفاظ عليه من تلويثه بالشبهاتِ أو تدنيسه بوَحل الشّهوات من أسباب الهداية، والشبهةُ إذا وَردت على القلب ثقُل استئصالُها وثَنتِ العبدَ عن القُرب من الربِّ.

والتطلُّعُ إلى المنكرات والشهوات في المرئيّات والسّمعيات يُظلم القلبَ بكثرةِ العصيان، ومن تعرّض للشبهاتِ والشهوات ثم طلبَ إصلاحَ القلب رام مُمتنعًا، ورُبَّ عثرةٍ أهلكت، ورُبَّ فارطٍ لا يُستدرَك، وفي زمن تنزُّل الوحي وملازمة الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم كان عليه الصلاة والسلام يخشى عليهم من الفتن، وينهاهم عن القُرب منها.

والنفسُ طامعةٌ إذا أطمَعتَها، منتهيةٌ إذا نهيتها، فألجِمها بلجامِ الأوامر والنواهي، وابتعِد عن أسبابِ الفتنَ وموارِدها، فإنّ المقاربةَ منها محنةٌ لا يكادُ صاحبها ينجو منها، ومن حام حولَ الحِمى يوشِك أن يقعَ فيه .

والانتصارُ على الشهوات تاجٌ على الهام، ودرءُ الشبهاتِ وقارٌ يعلو النفسَ، وصَونُ الجوارحِ عن المعاصي ثباتٌ بإذنِ الله على الهداية، والاستسلام للهَوى والفراغِ من مداخلِ الشيطان للغواية، والسّعيد من استبق الخيرات، ونأى بنفسه عمّا يضرُّه ولا ينفعه، وعمل بوصيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: ((احرِص على ما ينفعُك، واستعِن بالله، ولا تعجَزَن)) رواه ابن ماجه.

وعمارةُ الوقتِ ببرِّ الوالدَين وصِلةِ الرحم وقضاء حوائج المسلمين عبادة.

والمعصية تورِد صاحبَها المهالك، والذي يفوتُ بارتكاب الخطيئةِ من خَيرَيِ الدّنيا والآخرة أضعافُ ما يحصُل له من السّرور واللّذة.

والإكثارُ من الطاعات من وسائل الثّبات على الدين ومن أسباب حفظ الله لعبده، يقول عليه الصلاة والسلام: ((احفَظ الله يحفَظك)). وكان أفاضلُ البشَر هم القدوةُ في التعبُّد، قال سبحانه عن إبراهيمَ عليه السلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل:١٢٠]

وكان سلَف الأمة يكثرون من التعبُّد لله، قال ابن كثير عن ابن القيّم رحمهما الله: «ولا أعرفُ من أهلِ العلم في زماننا أكثرَ عبادةً منه، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يُطيلها جدًّا، ويمدُّ ركوعَها وسجودَها، ويلومه كثيرٌ من أصحابه في بعضِ الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك".

وكتابُ ربِّ العالمين منارُ الهدى والصلاح، (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) [الإسراء:٩] والمداومةُ على تلاوته حفظٌ بإذن الله من الشّرور والفِتن وحصنٌ من الشّبهات والشهوات.

وزيارةُ المقابر للعظة والعبرة سنّةٌ قائمة تذكِّر بالآخرة، وتعين على الاستقامة على أمر الله والبُعد عن المعاصي وعن الاغترارِ بالأمل، يقول عليه الصلاة والسلام: ((زوروا المقابرَ فإنها تذكِّركم الآخرة)) رواه الترمذي. ومن جَعل الموتَ بين ناظِرَيه صلَحت أحواله.

والقلوبُ بين أصبعَين من أصابعِ الرحمن، يقلِّبها كيف يشاء، ولا شيءَ من الأسبابِ أنفَع ولا أبلَغ من الدعاءِ في حصول المطلوبِ، فتضرّع إلى ربِّك في يومِك وليلتك بأن يجعلَك من عباده الصالحين.

وإذا رأيتَ أهلَ العصيان هم الأكثر عددًا في الأرض فلا يُثنيك ذلك عن التمسُّك بهذا الدّين، فسنّة الله قضَت أنّ أهلَ الفسوق والمعاصِي هم أكثر عددًا ممّن يطيع الرحمن، قال سبحانه: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة:٤٩].

وانظر إلى الحقِّ ولا تنظُر إلى العدد، فالله وصَف إبراهيم عليه السلام بأنه أمّةٌ وهو وحدَه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) [النحل:١٢٠]. يقول الفضيلُ بن عياض رحمه الله: «لا تستوحِش من الحقِّ لقلّةِ السّالكين، ولا تغترَّ بالباطِل لكثرة الهالكين".

ومِنّةُ الله عليك بالصّلاح مع ضلالِ كثير من الخلق ممّا يزيدك هدايةً في نفسِك ويحمِلُك على دعوة غيرك إلى الطريق المستَقيم.

أيّها المسلمون، سُنّةُ الله في هذه الحياة ابتلاءُ مَن تمسّك بهذا الدّين لتمحيص الصادق في الاستقامة، قال سبحانه: (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [العنكبوت:٣].

ولقد سخِر الكفار من رُسُل الله إليهم، قال سبحانه: (وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام:١٠]، وكلُّ رسولٍ يُبعَث يُبهَت بالسِّحر ويُرمى بالجنون، (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) [الذاريات:٥٢]، وصحابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَخِر منهم أهلُ النفاق، (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) [المطففين:٣٠]. فمن استهزأ باستقامَتك فتلك منقبةٌ لك، رُميتَ بما رُميَ به خيرُ البشَر، وتلك بُشرَى صدق في الاستقامة، ولا تحزن فإنّ دافعَ الساخِر الهوَى أو الجهل، (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) [النمل:١٤].

والساخرُ في عُمق نفسه يتمنَّى الهدايةَ، ولكنّه لا يملكها، قال سبحانه عن أهل الضلال: (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) [الحجر:٢] ومن سخِر منك فتحلَّ بما اتّصف به الأنبياءُ من الصبر، ولا تُحبِط عملك بالجزَع أو الهلَع، والزَم جانبَ العفوِ والحلم والأناة والإعراض عمّن آذاك، قال جلّ وعلا: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ) [الأحقاف:٣٥].

والموفَّق من استنارَ بنور الهداية، ودعا صاحبَ خطيئةٍ إلى التوبة، وخفض جناحَه لمن ابتُلي بمعصيةٍ بدعوته بحكمةٍ ولين ورويّة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) [يونس:١٠٨]

أيّها المسلمون، أسعدُ الخلق هم أهل الهداية، وأوّل الخير الهدَى، ومنتهاه الرحمةُ والرضوان، ومَن عرف الحقَّ واتّبعه فقد هدِي إلى صراطٍ مستقيم، ومن اهتدى جُلِبت له السعادة والرزقُ والسرور، وأعانه الله على الطاعة وترك المعصية، فلم يصِبه شرٌّ لا في الدنيا وفي الآخرة، ومن تمسَّك بنور الهداية زادَه الله نورًا، (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) [مريم:٧٦]، ومنزلتُك في الآخرةِ مبنيّة على هذه اللحَظات التي تعيشها، (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى) [النجم:٣٩]، والسعيد من قدّم لنفسِه صالحًا.

المبحث الثالث: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين (١٠)

يقول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

[ذلك] بمعنى هذا؛ لكن الكلمة الثانية [الكتاب] جعلت من [ذلك] تعني المعنيين معًا، فلو جاء: هذا [الكتاب]، لكان المعنى أقرب إلى زمن نزول القرآن؛ بيد أن [ذلك] تجعل من القرآن هذا و [ذلك] بالنسبة لإنسانٍ أي زمان ومكان، فالقرآن الذي كان بين أيدي أولئك وفي صدورهم، هو ذاتُه الذي يكون الآن بين أياديكم وفي صدوركم، وكذلك هو ذاته الذي سيكون بين أيدي الأجيال المتلاحقة وفي صدورهم، فـ[ذلك الكتاب] يبقى هو، هو: [لا ريب فيه]: لا شائبة، ولا أخطاء، ولا نقص [فيه] مهما أتى عليه الزمن، وتعاقبت عليه الأجيال، وهو [الكتاب] الذي يبقى [هدًى للمتقين] صالحًا كي تستمدَّ منه الأجيالُ البشرية صلاحَ أمرهم، فـ[لا ريب] يُقرِّب هذا الـ[هدى] الذي [فيه]، والذي يكون على [هدًى]، يكون على رشد وبيان في أمره.

التقوى

ها هي الدعوةُ المُفعَمة بنور التشويق لقراءة هذا الكتاب، الذي يتسم بالصفاء، وأنه لا تشوبه شائبة، ويلبث [هدًى للمتقين].

عليك أن تكون على تقوى في حياتك؛ حتى تنالَ نصيبك من الهَدي القرآني، وحتى ينثرُ القرآن هَدْيَه على تقواك، فتُورق بنور الهدى، وذلك يعني أن التقوى تلبث ناقصة دون هدى القرآن، وتكتمل التقوى بمنارة الهدى القرآني، حينها يمكنُك أن تُفعِّلَ طاقةَ التقوى في سلوكك اليومي، فتكون تقيًّا مع نفسك، ثم مع عيالك، ثم مع أقربائك، ثم مع سواد الناس.

الطَّيِّبُ هنا يتناغم ويتفاعل ويزدهر طِيبًا في حضرة الطيب، مثل أن الخبيث يتناغم ويتفاعل ويزدهر خبثًا في حضرة الخبيث.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار: «حدثني عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟

قال: نعم.

قال: فما عملت فيه؟

قال: حذرتُ وشمَّرت.

قال كعب: ذلك التقوى.

في تعريف المتقي يقول شهر بن حوشب: «المتقي: الذي يترك ما لا بأس به، حذرًا لما به بأس».

ويرى عمر بن عبد العزيز: «التقوى: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير»، ويعرِّفها ابن عمر بقوله: «التقوى ألَّا ترى نفسك خيراً من أحد».

والتقوى في مفهوم الواقدي: «أن تُزيِّنَ سرَّكَ للحق، كما زينتَ ظاهركَ للخلق».

تبين الآيةُ حاجةَ هذه التقوى إلى قبسات من أنوار القرآن؛ كي تينَعَ وتُفصحَ عن ذاتها، إن ذلك يخبرك بأن التقوى ليس بوسعها أن تكونَ في غنًى عن الهدي القرآني.

ولعل ذلك يضعك أمام سؤال: فإن كان هذا القرآن هدًى للمتقين، أفلا يكون لغيرهم أيضًا، وقد جاء النبي رحمة للعالمين، سواء أكانوا متقين، أم غير متقين؟ ثم إن الذي لا يكون متقيًا هو أكثرُ حاجة إلى هدى القرآن من المتقي؛ كي يهتديَ به.

الهداية

القرآن مفتوح للناس جميعًا، ولا تنغلق صفحاتُه أمام أحدٍ كائنًا مَن كان، بالغًا ما بلغت ذنوبه، وفيه مقوماتُ هدايةِ أكثرِ الناس ذنوبًا، حتى لو كانت ذنوبُه كزَبَدِ البحر بما في ذلك الشرك بالله؛ بل حتى فرعون الذي كان يدَّعي الألوهية، أرسل الله إليه رسولَيْه: موسى وهارون، فقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فكان بإمكانه أن [يتذكر أو يخشى]؛ بيد أنه هو الذي رفض أن [يتذكر أو يخشى] مستكبراً على التذكرة والخَشْيَة.

فإذًا هو [هدًى للمتقين] الذين يبتغون تفعيلَ تقواهم، فهو رشيدُهم إلى التقوى، و[ذِكْرُهم] لعله من باب التكريم لهم؛ فقد نزل القرآنُ تكريمًا لهؤلاء الذين رأوا حاجتَهم إلى الهداية؛ أي: حاجتهم إلى كتاب تصحيحيٍّ بعد ما وقع التحريفُ للتوراة والإنجيل، فهؤلاء باتوا في شيء من التِّيه، ورأوا حاجتهم الماسَّةَ إلى كتاب يبيِّن الحق، فمَنَّ الله عليهم وعلى العالم كله بأن أنزل كتابًا لم يكتفِ ببيان التحريف فقط؛ بل أتى بمنهج جديد للحياة البشرية؛ حيث جاء فيه ما لم يَرِدْ فيما سبقه مما أنزل الله؛ بل غدا مكمِّلاً للمعتقد الديني برُمَّته، فهو [هدًى للمتقين] الذين يجدون فيه مبتغاهم، وكذلك هو مفتوح للناس جميعًا، ليصبحوا متقين من خلال تعاليمه وشرعه، ثم يصبح القرآن [هدًى] لهم أيضًا؛ كونهم أصبحوا متقين بالفعل بعد أن تدارسوا القرآن.

فالتقوى هي استعداد نفسي وتهيئة نحو التغيير، والهدى بمثابة المطر الذي يُمطِر على هذه البذور كي تينع وتُزْهر؛ ولذلك وصف الله القرآن بأنه [هدًى]، فكلُّ مَن يتهيأ لتلقِّيه، يكون القرآن قد نزل له.

المبحث الرابع: اكتشف قدراتك.. بالعودة إلى الله (١١)

للتوبة دورٌ أساسيٌ في تنمية قدرات المرء ومهاراته، واكتشاف ملكاته الفكرية وطاقاته الكامنة. ولعل البعض يتساءل: كيف؟! فأقول وبالله التوفيق:

إن لكل إنسان طبيعي طموحات وآمالاً وغايات، وقدرات ومهارات، وغالباً ما يحول بينه وبين تحقيقها - ما لم تكن هناك عوائق خارج إرادته- الهمة الضعيفة، والغفلة، وامتهان الذات. وكلها أعراض تنشأ من اقتراف الذنوب والآثام، واجتراح السيئات، وما يلي ذلك من شعور بالذنب أحياناً، أو اليأس والإحباط أحياناً أخرى.

وإذا نظرنا إلى ما يطمح إليه كثير من الناس في هذه الأيام، من جمع الأموال، وتوسيع التجارات، وشراء أحدث السلع والأثاثات، لوجدنا كلمة «رزق» هي الوعاء المناسب لها ولغيرها من الطموحات والمبتغيات البشرية،فهي كلمة جامعة لكل خير يتمناه الإنسان ويمن الله به عليه من مال، أو ولد، أو علم، أو صحة، أو عمل... إلخ.

وإذا تأملنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: « إن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه » (رواه أحمد)

لأدركنا تماما ما للذنوب والآثام من أثر بالغ في حرمان المسلم من كل خير يسعى لتحصيله، ولأدركنا حاجتنا الملحة للتوبة والاستغفار.

لذا علينا جميعا أن نتفكر في معنى التوبة بمفهومها الشامل والصحيح، وذلك بعد إخلاص النية لله وحده أولا، ولنعلم أن التوبة سبيل للفلاح والنجاح، والتقدم على كل الأصعدة. والتوبة كذلك عبادة لله، لا يغفل عنها المؤمنون الصالحون، فهي ليست للمذنبين والعصاة فقط، بل هي أيضا للمؤمنين والصالحين لعلهم يبلغوا سبل الفلاح، وهذا مصداقا لقوله عز وجل في سورة النور: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)

فتش عن ملكاتك ومواهبك تحت ركام الغفلة والذنوب

هناك العديد من المواهب والمهارات، والملكات والخبرات التي نقوم بدفنها -بأيدينا- تحت ذلك الركام من الغفلة والذنوب، ولا نلقي لها بالاً. فللذنوب آثار سلبية على نفسية الفرد، تجعله في حالة من الإحباط واليأس، ويعزى ظهور هذه الحالة إلى الشعور بالذنب الذي يتولد عند الفرد بعد اقتراف الذنب، مما يجعله في حالة شعورية لا يستطيع معها إنجاز مهامه وأعماله على نحو من النشاط والحيوية والإتقان.

إذا فالتوبة قد تكون بداية لتفجير هذه الطاقات الكامنة في النفس، وبداية انطلاق نحو آفاق أرحب للتقدم والتنمية والازدهار، ولكن كم يغفل عنها المسلمون؟!

التوبة مفتاح النجاح في كل المجالات والعلاقات

دعونا نتفق بداية أن التوبة مفتاح النجاح في كل شيء، بدءاً من القدرة على التخطيط السليم، ومروراً باتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وانتهاءً بتحقيق الخطط والأهداف بعد توفيق الله سبحانه.

فالتائب غالباً ما يشعر بنوع من الراحة والرضا، ويكون في حالة من التوافق النفسي والروحي يجد معها طمأنينة في النفس وقوة في البدن، ويكون مرد ذلك غالباً إلى الصحة النفسية الناشئة، وحينئذ يسهل عليه التفكير بصفاء نفس، وجلاء فهم، ونور بصيرة.

فمع بداية التوبة يبدأ الإنسان صفحة جديدة مع نفسه ومع الآخرين، فتتجدد العهود وتعلو الهمم في كل الأمور والأعمال، وحينئذ يجد التائب نفسه وثابة طموحة، مشرقة متفائلة، تبذل كل ما لديها من جهد، وتخرج كل ما لديها من طاقات، وتتفجر ينابيع الخير بداخلها، وتفيض بالخير على من حولها؛ الزوج والأولاد، والأهل والأصحاب.

وقد أدرك ابن عباس -رضي الله عنه- جملة من الفوائد في هذا الصدد حينما قال: «إن للحسنة نورا في القلب، وزينة في الوجه، وقوة في البدن، ورحبة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب، وشَيْنا في الوجه، ووهَناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبَغْضة في قلوب الخلق".

فالمرء يفقد حيويته ونشاطه، وقوته وإقدامه حال كونه عاصياً، أو بعد المعصية، أو عند مجرد شعوره بأنه مذنب. وهذا الشعور بالذنب يقعده عن إنجاز المهام والتكاليف على النحو المطلوب، ويتيح للشيطان فرصة كبيرة للنيل من همته وعزيمته؛ فيتمادى المرء في غفلته فتهدر طاقاته وتضيع أوقاته فيما لا يفيد.

وعلى الجانب الآخر فإن إخلاص التوبة لله تعالى يفتح الله بها على عباده أبواب الخيرات، وييسر لهم كل عسير، ويقضي لهم كل حاجة، وذلك مصداقا لقوله تعالى: « واتقوا الله ويعلمكم الله »، وكذلك قوله سبحانه: « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا »، وقوله تعالى: « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »

وأما على المستوى العام، مستوى الأمة والمجتمع، فالتوبة لها دور أساسي في بناء المجتمعات والبلدان، فهي سبيل الرقي والتقدم، وهي طريق الأمة كلها نحو الريادة. فكما أنها سبب يمنع الله بها -برحمته وفضله- عن الناس عقابه وعذابه، ولنا في قصة يونس عليه السلام العبرة والعظة، فقد قال الله فيهم:

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » [سورة يونس]

فهي أيضا - مع الإيمان والتقوى - سبب في فتح الله على عباده كل أبواب الخير والبركة والعطاء، كما في قوله تعالى: «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً، ما لكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطوارا »، وكذلك قوله تعالى: « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» الآية.

ويمكننا كذلك فهم هذه الآيات الكريمات في إطار أوسع، إذا ما تأملنا قوله تعالى: « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: أَيْ مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاس مِنْ الْمَصَائِب فَإِنَّمَا هِيَ عَنْ سَيِّئَات تَقَدَّمَتْ لَكُمْ «وَيَعْفُو عَنْ كَثِير» أَيْ مِنْ السَّيِّئَات فَلا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَعْفُو عَنْهَا. انتهى كلامه رحمه الله.

فكم من خير نستطيع أن نصل إليه -بفضل الله ورحمته- جزاء هذا الاستغفار وهذه التوبة.

إذا أردت التغيير فحقق شروطه

وقبل البدء في سرد الخطوات العملية للتوبة، تجدر الإشارة هنا إلى «شروط التغيير"،

وهي كما ذكرها الدكتور صلاح الراشد في إحدى محاضراته على النحو التالي:

١-الرغبة

٢- المعرفة

٣- التطبيق

أولاً: الرغبة:

هي الرغبة الحقيقة في التغيير، فهناك كثيرون يقولون إنهم يريدون أن يتغيروا، ولكن في قرارة أو أعماق أنفسهم هم لا يريدون ذلك، وهذا المعنى عميق.

ثانياً: معرفة كيفية التغيير:

التطبيق ينبغي أن يكون مبنيا على معلومات صحيحة.

ثالثاً: التطبيق:

هناك أناس يريدون أن يتغيروا وهم يعرفون كيف يتغيرون، لكنهم لا يطبقون، فهم لا يتغيرون.

فالتطبيق فقط هو الذي يأتي بالنتائج، فهناك أناس يحسنون الكلام لكنهم لا يحسنون التطبيق، والتطبيق بإصرار وعزيمة بعد معرفة الطريق الصحيح هو الذي يأتي بالنتائج المرجوة. انتهى كلامه حفظه الله.

وأخيراً: إذا أردت لنفسك الهمة العالية، ولبدنك القوة والنشاط، ولمجتمعك التطور والنماء، ولإسلامك الحضارة والارتقاء، ولأمتك الريادة والصدارة؛ فعليك بالتوبة الصادقة الآن.

المبحث الخامس: من ظفر بالتوبة ظفر بحب الله تعالى (١٢)

فأول المقامات التوبة، ولا يقبل ما بعدها إلا بها. مثال العبد إذا فعل معصية كالقدر الجديد يُوقد تحتها النار ساعة فتسود، فإن بادرت إلى غسلها انغسلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تتكسر، ولا يُفيد غسلها شيئاً، فالتوبة هي التي تغسل سواد القلب فتبرزُ الأعمال وعليها رائحة القبول، فاطلب من الله تعالى التوبة دائماً، فإن ظفرت بها فقد طاب وقتك، لأنها موهبة من الله تعالى يضعها حيث شاء من عباده، و قد يظفر بها العبد المشقق الأكعاب دون سيده، وقد تظفر بها المرأة دون زوجها، والشاب دون الشيخ، فإن ظفرت بها فقد أحبك الله لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وإنما « يغتبط بالشيء من يعرف قدره »، ولو بدرت الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم، فانظر من أي الفريقين أنت؟ إن تبت فأنت من المحبوبين، وإن لم تتب فأنت من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

من تاب ظفر، ومن لم يتب خسر. ولا تقطع يأسك وتقول: كم أتوب وأنقض، فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح. وإذا تاب العبد فرحت به داره من الجنة، وتفرح السماء والأرض، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فالحق سبحانه لم يرض أن تكون مُحباً، بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب؟

أفٍّ لعبدٍ يعلم إحسان المُحسن فيجتريء على معصيته، ولكنّ ما عرف إحسانه من آثر عصيانه، و ما عرف قدره من لم يراقبه، و ما ربح من اشتغل بغيره، فعلم أن النفس تدعوه إلي الهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه الي الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية، ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته، وعلم قرب مولاه و إنه يراه فسارع لما عنده نهاه، وعلم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وأخرى وغيباً و شهادةً فما استحيا من ربه، ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته.

كتاب «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»

لابن عطاء الله السكندري

الفصل الثالث: النجاح

المبحث الأول: الطريق إلى النجاح في الحياة

المبحث الثاني: خريطة النجاح

المبحث الثالث: مفاتيح القراءة بقلب

المبحث الرابع: فضل العلم وأهله

المبحث الخامس: عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي

المبحث السادس: إدارة الوقت أم إدارة الذات؟

المبحث السابع: أهمية تحديد الأهداف

المبحث الأول: الطريق إلى النجاح في الحياة (١٣)

١. إنّ الوسيلة الأولى لإصلاح النفس وتزكية القلب والوقاية من المشكلات وعلاجها هو العلم، ووسيلته الأولى القراءة والكتاب. لذلك نجد أن الله سبحانه تعالى لما أراد هداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النّور أنزل إليهم كتاباً يُقرأ، وفي أول سورة نزلت منه بدأت بكلمة عظيمة هي مفتاح الإصلاح لكل الناس مهما اختلفت الأزمان وتباينت البلدان إنها: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

وعليه فمن أراد النجاح وأراد الزكاة والصلاح فلا طريق له سوى القرآن والسنة: قراءةً، وحفظاً، وفقهاً.

إن الإحالة على كتاب يُقرأ ويُفهم ويُطبّق هي الطريقة العملية لتحقيق التطوير والرقي والنجاح في جميع مجالات الحياة.

إن القراءة حياة الإنسان، فمن يقرأ كثيراً يحيا كبيراً، ومن يقرأ أكثر يكون أكبر، ومن أراد أن يرقى فعليه أن يقرأ.

٢. إن السبب الرئيسي لفشل الإنسان في الحياة هو ضعف الإرادة الناتج عن النسيان. فالإنسان في حال الشدة والكرب يحصل عنده العلم بلا إله إلا الله ويتحقق التوحيد والإخلاص والحرص على الخير والنفع، وما إن يزول هذا المؤثر يتلاشى العلم وينسى ويعود لكفره وشركه.

والعلم درجات ومراتب، فلا يكفي مجرد العلم بأن هذا الشيء ضار مثلا حتى يتحقق الخوف منه والابتعاد عنه، ولكن لابد من علم تفصيليّ عن هذا الشيء، فكلنا يعلم أنه سيموت ويُحاسب على أعماله، لكنه علم سطحيّ ضعيف مهزوز لا يكفي لوجود الإرادة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات.

٣. إن الصراع بين الشيطان والإنسان بدأ منذ خلق آدم، فالشيطان عدو للإنسان يوسوس له على مدار الساعة لا يكل ولا يفتر، وقد قطع على نفسه العهد في معاداة بني آدم وإغوائهم عن طريق الحق.. فما الذي يحمينا من عداوة الشيطان؟

الإجابة في قول الله: (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدي فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)، فسلاح الإنسان في هذه المعركة هو الهدى الذي أنزله الله.. القرآن الذي بين أيدينا.

٤. لو تأملنا في حال الناجحين بداية من النبي صلي الله عليه وسلم والصحابة والمعاصرين من الصالحين، لوجدنا أن القاسم المشترك بينهم هو القيام بالقرآن وحرصهم على عدم فوات وردهم مهما حالت الحوائل، ليقينهم أنه غذاء القلب والروح، إنهم يحرصون على غذاء الروح قبل غذاء البدن

٥. لما أراد الله سبحانه تكليف نبيه صلي الله عليه وسلم بالتبليغ والدعوة وهو حمل ثقيل، وجهه إلي ما يعين على ذلك وهو القيام بالقرآن (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا)، وإنما ما أصاب الأمة الإسلامية الآن من ضعف وهزيمة ليس إلا بسبب هجرهم للقرآن.

٦. برغم انتشار الكتب التي تتحدث عن النجاح في الدنيا والدواء لكل مرض نفسي، إلا أنك لن تستطيع أن تجد كتاب يحمل فعلا أسباب النجاح وشفاء القلوب والعقول مثل القرآن.

٧. مهما كانت مرتبة المؤمن في الإيمان، ومهما كانت قوة إيمانه، فإن مدارسته للقرآن تزيد من إيمانه وترفع مقامه عند رب العالمين.

"كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أجودَ الناسِ بالخيرِ ، وكان أجودَ ما يكون في شهرِ رمضانَ حتى ينسلِخَ ، فيأتيه جبريلُ فيعرضُ عليه القرآنَ ، فإذا لقِيَه جبريلُ كان رسولُ اللهِ أجودَ بالخيرِ من الرِّيحِ الْمُرسَلَةِ»

٨. إن مثل القرآن كمثل البحر، له ظاهر هو مثل سطح البحر وله باطن هو مثل أعماق البحر، فبعضهم قد يسبح على ظهر البحر ثم يقول أين الكنوز التي تحقق الثراء والنجاح؟ لا أجدها!، والأمر يحتاج منه إلى غوص، ولن يصل من اكتفى بالسباحة على ظهر البحر ولو أفني عمره كله.

٩. إن فهم القرآن وتدبره فتح من الله يعطيه لمن صدق واجتهد في الطلب لا لمن استعجل وانصرف، فينبغي على الإنسان الصبر والمجاهدة والمثابرة حتى يفتح الله له ويرزقه من فضله ما إن دخله لا تستطيع الكلمات أو العبارات أن تصف عظمته.

١٠. القرآن نعمة وأعظم بها من نعمة، وكل نعمة يتبعها نعيم وتنعم لمن عرف أنها حقا نعمة، فالتلذذ بالقرآن لمن فُتحت له أبوابه لا يعادله أي لذة أو متعة في الحياة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كتاب «مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة»
د. خالد عبد الكريم اللاحم

المبحث الثاني: خريطة النجاح (١٤)

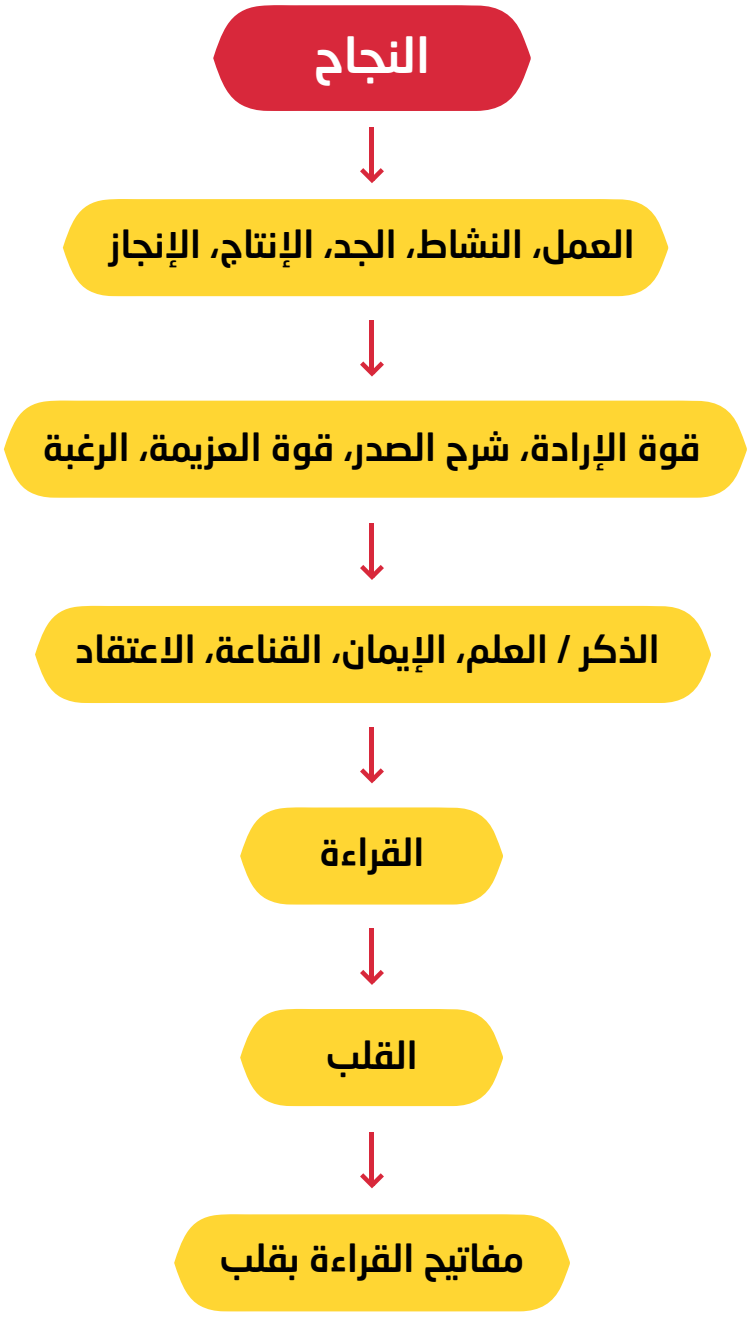

شرح خريطة النجاح

النجاح هو تحقيق ما تريد، وهو يتوقف على العمل بجد ونشاط لحصول الإنجاز والإنتاج.

وهذا يتطلب قوة الإرادة والعزيمة وشرح الصدر، والحماس والرغبة.

وقوة الإرادة تتوقف على الذكر، والعلم والإيمان والاقتناع.

والطريق إلى العلم والإيمان والذكر هو القراءة.

والقراءة تحتاج إلى قلب.

والقلب يحتاج إلى مفاتيح خاصة تجعله يعقل ويعي ما يقرأ ومن ثم يثبت فيه العلم والذكر ويؤدي إلى قوة الإرادة والعزيمة ومن ثم النشاط والعمل فيحصل الإنجاز والإنتاج فيتحقق النجاح.

ما ذكرته هو الطريق إلى النجاح بصورة عامة حسب مفهوم كل إنسان للنجاح.

ومفهوم النجاح في القرآن هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والطريق إليه هو قراءة القرآن والسنة بقلب.

هذا هو النجاح المنشود الذي يجب أن يسعى إليه كل إنسان في هذه الحياة.

إنه من الثابت ثبوتا لا ريب فيه، ونتائجه أصدق من أن تحتاج إلى تجربة أن كثرة قراءة القرآن بقلب هي الطريق والسبيل إلى قوة القلب وإمكانية قيادته والتحكم فيه، ومن ثم تحقيق أعلى معدلات النجاح والقوة في الحياة.

المبحث الثالث: مفاتيح القراءة بقلب (١٥)

أولاً: مفاتيح عامة:

المفتاح الأول: الاستعانة بالله عز وجل:

أولاً: أن يشرح صدرَه للقراءة، وتوجد لديه الرغبة والإرادة.

ثانيًا: أن ييسر له أسباب القراءة.

ثالثًا: أن ييسر له الفهم والذكر.

رابعًا: أن ييسر له الانتفاع بما قرأ واستدامة ذلك.

المفتاح الثاني: الاستعاذة من الشيطان الرجيم:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، فأعظم عمل يشتد فيه الشيطان على العبد هو القراءة، أيُّ قراءة متى كانت باسم الله، وتحقيق العلم بالله تعالى، فهو يجلب بخَيْلِه ورَجِلِه حين يرى إنسانًا يَهُمُّ بمثل هذه القراءة، ثم يحاول مقاطعته وإشغاله حين يقرأ، ثم يحاول نسيانه لما قرأ وصرفه عن الانتفاع به في الحياة.

المفتاح الثالث: الطهارة:

أولاً: الوضوء:

الوضوء يحفظ ويحمي النفس من الشياطين، فكثير من الوهن والخمول والكسل سببه الشيطان، والوضوء يحفظ النفس من الأرواح الخبيثة؛ فيحصل بذلك النشاط والقوة البدنية والنفسية فيكون عونًا على القراءة.

ثانيًا: السواك:

السواك من المفاتيح المهمة لقراءة اسم الله تعالى، فكلما كان المحل نظيفًا طاهرًا كانت القراءة أعلى وأكمل.

المفتاح الرابع: الصيام:

مما لا شك فيه أن الصيام يجعل الدم نظيفًا نقيًّا، ويؤدي إلى قلة كثافته وحجمه، وهذا يؤدي إلى خفة الروح والنفس وصفائها، واستعدادها لتقبُّل الأمور الفكرية والمعنوية.

المفتاح الخامس: مراعاة حاجات البدن:

ومن ذلك: النهي عن الصلاة حاقنًا أو حاقبًا، أو بحضرة طعام يشتهيه، أو يغالبه النوم، ويقاس عليها ما كان في معناها؛ مثل انتظار مكالمة أو قدوم شخص.

ثانيًا: مفاتيح التدبر:

شرح المفاتيح في كتاب: «مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة» د. خالد عبد الكريم اللاحم

تعريفها: هـي مفاتيـح الجـودة والنوعيـة التـي تجعـل القـراءة أكـثر عمقًـا وفقهًـا ووعيًـا وحفظًـا، وهـي عـشرة مفاتيـح:

المفتاح الأول: الإرادة أو الحب.

المفتاح الثاني: استحضار الأهداف أو المقاصد.

المفتاح الثالث: الحفظ.

المفتاح الرابع: التركيز.

المفتاح الخامس: الوقت.

المفتاح السادس: الترتيل.

المفتاح السابع: الجهر والتغني.

المفتاح الثامن: التَّكْرار.

المفتاح التاسع: التحزيب.

المفتاح العاشر: الربط.

ثالثًا: مفاتيح الإنجاز:

شرح المفاتيح في كتاب: «مفاتيح إنجاز الأهداف وبرنامج مواعيد» د. خالد عبد الكريم اللاحم

تعريفها: مفاتيـح الإرادة والإدارة، مهمتهـا تحويـل القـول إلى فعـل، والعلـم إلى عمـل، والنظـر إلى تطبيـق، والتخطيـط إلى تنفيـذ.

المفتاح الأول: التحديد، وله ست أدوات، هي: (ماذا - لماذا - كم - كيف - أين - متى)

المفتاح الثاني: التحديث أو التذكير.

المفتاح الثالث: التوكل.

المفتاح الرابع: التركيز.

المفتاح الخامس: التعقيب والمتابعة.

المفتاح السادس: التيسير.

المفتاح السابع: التنفيذ.

كتاب « القراءة بقلب قلب النجاح في الحياة »

د. خالد عبد الكريم اللاحم

المبحث الرابع: فضل العلم وأهله (١٦)

اعلم أخي الكريم - علَّمني الله وإياك - أن العلم هو أشرفُ ما رغِب فيه الراغبُ، وأفضلُ ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب.

والتقوى هي أساس العلم ومفتاح الفهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لقد رفع الله تعالى شأنَ العلم وشأن أهله، وبيَّن مكانتهم، ورفع منزلتهم في أبهى مكان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ ولهذا أمر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال ابن عُيَيْنة رحمه الله: ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادةٍ من العلم حتى توفاه الله عز وجل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اللهم انفَعْني بما علَّمتَني، وعلِّمْني ما ينفعُني، وزِدْني علمًا، الحمد لله على كل حالٍ، وأعوذ باللهِ من حال أهل النار))؛ رواه الترمذي (٣٥٩٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إني أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشع، ومن دعاءٍ لا يُسمَع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن علمٍ لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع))؛ رواه النسائي (٨/ ٢٨٤)، وقال الألباني في الصحيحة: صحيح؛ (٣/ ١١١٣)، (٥٠٥٣)، وابن ماجه (٢٥٠)، واللفظ له.

والعلم هو حسنة الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال الحسن البصري: هي العلم.

لقد منع الله سبحانه المساواةَ بين العالم والجاهل؛ لِمَا يختصُّ به العالم من فضيلة العلم، ونور المعرفة، وإدراك واسع، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، إنما يتذكر ويعرف الفرقَ أصحابُ العقول السليمة.

وأهل العلم هم أسرع الناس استجابةً وتأثرًا بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا عرَفوا عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، والفرق بين العالم وغيره يظهَرُ جليًّا في سجية الطباع، وفطرتها التي فطر الله الناس عليها، فالكل يحب العلمَ ويكره الجهل، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كفى بالعلم شرفًا أن يدَّعِيَه مَن ليس بأهله، وكفى بالجهل عارًا أن يتبرأ منه مَن هو فيه".

قال ابن حزم في كتابه الأخلاق والسير: «لو لم يكن من فضلِ العلم إلا أن الجهَّال يهابُونك ويُجلُّونك، وأن العلماء يُحبُّونك ويُكرِمونك، لكان ذلك سببًا إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة؟! ولو لم يكن مِن نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهَّال، لكان ذلك سببًا إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة؟! ولو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغِل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهمِّ، وكفاية الأفكار المؤلِمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكرُه؟! ومِن أقلِّها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعب ضعفاءُ الملوك أنفسَهم، فتشاغلوا عمَّا ذكرنا بالشطرنج والنَّرْد والخمر والأغاني، وركض الدوابِّ في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرَّة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة، فلا فائدة، وأجلُّ وأكرم العلم ما كان عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، أو عن الشرع الحنيف، فذاك أشرف العلوم قَدرًا ومقامًا".

ولقد أحسن القائل:

العِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ بِالتَّمْوِيهِ

مَا العِلْمُ نَصْبَكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِ

كَلَّا وَلَا جَحْدَ الصِّفَاتِ وَنَفْيَهَا ... حَذَرًا مِنَ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ

أيها الإخوة، مِن علامات الساعة وأشراطها قلةُ العلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويثبُت الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا))؛ متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالِمًا اتَّخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئلوا، فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأَضلُّوا))؛ متفق عليه.

والمراد بقبض العلم هو موت العلماء، وذَهاب الفضلاء والفقهاء؛ فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، عن عطاء رحمه الله قال: «هو موت العلماء، وذَهاب الفضلاء، وفقهاء الأرض، وخيار أهلها".

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الدُّنيا ملعونةٌ، ملعون ما فيها، إلا ذِكْرَ الله وما والاه، وعالِمًا أو متعَلِّمًا))؛ وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع: (١٦٠٩)، والصحيحة: (٢٧٩٧).

والعلم كالغيثِ النافع؛ عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَثَلُ ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم، كمَثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ قبلَتِ الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس، فشربوا وسَقَوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ؛ لا تمُسك ماءً، ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَل مَن فقُه في دِين الله ونفعه ما بعثني اللهُ به، فعلِم وعلَّم، ومثَل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به))؛ رواه البخاري، باب فضل مَن علِم وعلَّم (٧٩)، واللفظ له، وأخرجه مسلم في الفضائل، باب بيان مَثَل ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، رقم (٢٢٨٢).

وفي فضل العلم وأهله يقول صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ لله تبارك وتعالى ملائكةً سيَّارة فُضُلاً، يتَّبعون مجالس الذِّكر، فإذا وجَدوا مجلسًا فيه ذِكْرٌ قعَدُوا معهم، وحفَّ بعضُهم بعضًا بأجنحتهم، حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدُّنيا، فإذا تفرَّقُوا عرجوا، وصعِدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل - وهو أعلم بهم -: من أين جئتم؟ فيقولون: جِئْنا من عند عبادٍ لك في الأرض، يسبِّحونك، ويكبِّرونك، ويُهلِّلونك، ويحمدونك، ويسألونك، قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأَوا جنتي؟ قالوا: لا، أيْ رب، قال: فكيف لو رأَوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومِمَّ يستجيروننني؟ قالوا: مِن نارِك يا رب، قال: وهل رأَوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرتُ لهم، فأعطيتُهم ما سألوا، وأجَرْتُهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب، فيهم فلانٌ عبدٌ خطَّاء، وإنما مرَّ فجلس معهم؟ قال: فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يشقَى بهم جليسُهم)).

فهل بعد هذا الفضل من فضل؟ نسأل الله أن يجعلنا منهم.

وطلبة العلم هم وصية نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فلقد أوصانا بالعلم وأهله الذين يطلبونه أن يُعلَّموا وأن يرحب بهم؛ فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم، فإذا رأيتُموهم فقولوا لهم: مرحبًا مرحبًا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقْنُوهم))، قلت للحكم: ما اقْنُوهم؟ قال: علِّموهم؛ رواه ابن ماجه (٢٤٧)، وحسنه الألباني؛ الصحيحة (٢٨٠).

والعلم فضله كبير، ومكانته سامية في شريعتنا الغراء؛ عن حذيفة بن اليمانِ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة، وخير دِينكم الوَرَع))؛ أخرجه الحاكم واللفظ له، وقال الذهبي: (١/ ٩٣) على شرطهما، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه الطبراني في الأوسط (٣٩٦٠)، والبزار بإسناد حسنٍ (٢٩٦٩)؛ انظر: صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٦٨ (١ /١٣٧).

والواجب على مَن تعلَّم علمًا أن يبلغه للناس حتى يتعلموا؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن سُئل عن علمٍ علِمه ثم كتمه، أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ من نارٍ))؛ أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٦٣)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومَن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوَّأ مقعده من النار))؛ رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١).

وهذا عمر رضي الله عنه يقول: أيها الناس، عليكم بالعلم؛ فإنَّ لله سبحانه رِداءً يحبه، فمَن طلبَ بابًا من العلم ردَّأه الله برِدائه، فإن أذنب ذنبًا استعتَبه؛ لئلا يسلُبَه رداءه ذلك حتى يموت به.

وقال أبو هريرة وأبو ذر رضي الله عنهما: بابٌ منَ العلم نتعلَّمُه أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوُّعًا، وباب من العلم نُعَلِّمُه - عُمل به، أو لَم يُعمَل به - أحبُّ إلينا من مائة ركعة تطوُّعًا.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لأَنْ أعلم بابًا مِن العلم في أمْرٍ أو نَهْي أحبُّ إليَّ مِن سبعين غزوة في سبيل الله.

حب العلم عند التابعين:

لقد كان سلفنا الصالح يتعلَّمون، فكانوا علماء محبِّين للعلم وأهله، فهذا سفيان الثوري رحمه الله كان إذا لقيَ شيخًا سألَه: هل سمعتَ من العلم شيئًا؟ فإن قال: لا، قال: لا جَزاك اللهُ عن الإسلام خيراً، وكان يقول: لا نزالُ نتعَلَّم العلم ما وجدنا مَنْ يُعلِّمُنا.

والواجب على العبد أن يتعلَّم وأن يصبر حتى ينال أعلى المنازل في الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول الإمام الشافعي:

فصبراً عَلى مُرِّ الجَفَا مِن مُعَلِّمٍ ... فَإِن رُسُوبَ العِلمِ في نَفَراتِه

ومَن لَمْ يَذُقْ مُرَّ التعَلُّمِ ساعةً ... تجرَّعَ ذُلَّ الجهلِ طُولَ حياتِه

ومَن فاتهُ التعليمُ وقتَ شبابِه ... فكَبِّرْ عليه أربعًا لِوفاتِه

وذاتُ الفتى - واللهِ - بالعِلمِ والتُّقى ... إذا لم يكونا لا اعتِبارَ لِذاتِه

قيل للشعبي: مِن أين لكَ هذا العلمُ كله؟ قال: بنَفْي الاعتماد، والسَّيْر في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمارِ، وبُكُورٍ كبُكُور الغرابِ.

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحبًا بِيَنابيع الحكمة، ومصابيح الظُّلَم، جُدَد القلوب، حلس البيوت، ريحان كلِّ قبيلة.

قال الشافعي رحمه الله: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال: مَن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومَن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

وقال: ما تُقُرِّب إلى اللهِ تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم؛ (تهذيب الأسماء واللغات).
قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن العلم يرفع صاحبَه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه المُلكُ ولا المال ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشريف شرفًا، ويرفع العبد المملوك حتى يُجلِسه مجالس الملوك، كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري، عن أبي الطفيل، أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعُسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة، فقال له عمر: مَن استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفتُ عليهم ابن أبزى، فقال: مَن ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟! فقال: إنه قارئ لكتاب الله عالمٌ بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين))»؛ (مفتاح دار السعادة).

وفي فضل العلم أيضًا يقول سفيان بن عُيَيْنة: أرفعُ الناس عند الله منزلةً مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياءُ والعلماء.

ويقول ابن القَيِّم رحمه الله: وهذا مِن أحسن التفسير؛ فإنَّ أجَلَّ حسنات الدُّنيا العلمُ النافع والعمل الصالح؛ اهـ.

وما أجمل ما قال الإمام الآجري رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه (أخلاق العلماء):

(إن اللـه - عـز وجـل وتقدسـت أسـماؤه - اختـصَّ مـن خلقـه مَـن أحـبَّ، فهداهـم للإيمـان، ثـم اختـص مـن سـائر المؤمنـين مَـن أحـبَّ، فتفضـل عليهـم فعلَّمهـم الكتـاب والحكمـة، وفقَّههـم في الديـن، وعلَّمهـم التأويـل، وفضَّلهـم عـلى سـائر المؤمنـين، وذلـك في كل زمـان وأوانٍ، رفعهـم بالعلـم، وزيَّنهـم بالحلـم، بهـم يُعـرف الحـلال مِـن الحـرام، والحـق مـن الباطـل، والضـارُّ مـن النافـعِ، والحسـن مـن القبيـح، فضلُهـم عظيـم، وخطرهـم جزيـل، ورثـة الأنبيـاء، وقـرَّة عـين الأوليـاء، الحيتـانُ في البحـر لهـم تسـتغفر، والملائكـة بأجنحتهـا لهـم تخضـع، والعلـماء في القيامـة بعـد الأنبيـاء تشـفع، مجالسـهم تُفِيـد الحكمـة، وبأعمالهـم ينزجـر أهـل الغفلـة، هـم أفضـل مـن العُبَّـاد، وأعـلى درجـةً مـن الزهـاد، حياتهـم غنيمـة، وموتهـم مصيبـة، يُذكِّـرون الغافـل، ويُعلِّمـون الجاهـل، لا يتوقـع لهـم بائقـة، ولا يخـاف منهـم غائلـة، بحسـن تأديبِهـم يتنـازع المطيعـون، وبجميل موعظتِهـم يرجـع المقـصِّرون، جميـعُ الخلـق إلى علمهـم محتـاج).

ثـم أعقـب الـكلام بقولـه: (فهـم سراج العبـاد، ومنـار البـلاد، وقـوام الأمـة، وينابيـع الحكمة، هـم غيظ الشـيطان، بهـم تحيـا قلـوبُ أهـل الحـق، وتمـوت قلـوب أهـل الزيـغ، مَثَلهـم في الأرض كمَثَـل النجـوم يُهتَـدَى بهـا في ظلـمات البـرِّ والبحـر، إذا انطمَسَـتِ النجـوم تحيَّروا، وإذا أسـفر عنهـا الظـلام أبـصَروا).

هذا، والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الخامس: عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي (١٧)

العلمُ الشرعيُ هو ميراثُ الأنبياء الذين خلّفوه لنا وحَملَه العلماء من بعدهم يُنفون عنه تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين. قال ابن القيم رحمه الله (من طَلَبَ العلم ليُحيي به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوّة) مفتاح دار السعادة (١/١٨٥).

ومن تأمّل واقع الناس في العصر الحاضر رأى قلة اهتمامهم بطلب العلم الشرعي وأنّ الهمم والعزائم قد فترت عن تحصيله وأن الناس قد اشتغلوا عنه بزخارف الدنيا متعللين بأعذارٍ واهيةٍ وحججٍ باطلة.

ولهذا عزمت مستعيناً بالله تعالى على تلخيص وكتابة هذا البحث من كتب أهل العلم لأحثَّ نفسي وإخواني على طلب العلم الشرعي والتحمس له.

لماذا الحديث عن عُلُو الهمة في طلب العلم الشرعي؟

لأن أيّ دعوةٍ إلى الله لا تقوم على العلم الشرعي الصحيح المُستمد من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح فإنّ مصيرها إلى التهاوي والسقوط، أما إذا قامت على ذلك فإن الدين الصحيح سينتشرُ بين الناس ويُقبلون إليه فيعلو صوت الحق وينطفئ صوت الباطل، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

* نتحدث عن عُلو الهمّة والحماس لطلب العلم الشرعي لأننا في زمانٍ ضعفت فيه العزائم وفترت فيه الهمم عن طلب العلم ، ولذلك كان لِزاماً على دعاة الحق أن يُذكِّروا الناس ويحثونهم على طلب العلم الشرعي وتحصيله.

* نتحدث عن عُلو الهمّة في طلب العلم لأن هذا العلم هو شرع الله وهو ميراثُ النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حقوقه علينا أن نحفظ ميراثه من الذهاب والضياع ، ولا يكون ذلك إلا بطلب العلم الشرعي وتحصيله.

* نتحدث عن هذا الموضوع لوجود الدعوات الهدّامة والفرق الضالة التي تدعو إلى إهمال العلم الشرعي وتحثُّ الناس على الاهتمام بأمورٍ تافهةٍ ومناهج منحرفة وبدعٍ ضالة ، ومن هنا يلزم على دعاة الحق أن يجتهدوا في طلب العلم الشرعي ليحصنوا أنفسهم وغيرهم ضد هذه الدعوات الهدّامة.

* نتحدث عن طلب العلم الشرعي لأن الكتاب والسنة والنصوص جاءت تحث على ذلك وكذلك هو منهج سلفنا الصالح ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

* نتحدث عن طلب العلم الشرعي لإيجاد الشباب المسلم المتحمسين للعمل لدينه ونُصرته على بصيرةٍ مستمدة من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.

فما هو العلم الشرعي المطلوب؟

إنّ العلم الشرعي الذي نُرغِّبُ في تحصيله هو العلم الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومنهج سلفنا الصالح، وهو يوصل صاحبه إلى تقوى الله ومراقبته وخشيته، وهو العلم المقصود منه العمل به لا مجرد الثقافة أو زيادة المعلومات والحصول على الشهادات.

* ولا يعني حثُّنا على طلب العلم الشرعي وتحصيله أن نغفل عن الجوانب الأخرى التي يكون بها تكامل الشخصية الإسلامية، بل لابد من العناية بالجوانب الأخرى كتربية النفس والإكثار من النوافل والدعوة إلى الله وقراءة القرآن والذكر، وغير ذلك. قال ابن تيمية رحمه الله (لابد للعبد من أوقاتٍ ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبته لنفسه وإصلاح قلبه) مجموع الفتاوى (٦٣٧/١٠)

* نريد طلبة العلم الذين يعظون الناس بحالهم قبل أن يعظوهم بمقالهم، قال الحسن البصري رحمه الله (كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث إلا يسيراً حتى يُرى أثر العلم في صلاته وخشوعه وكلامه وسَمْته) من كتاب الزهد لأحمد بن حنبل .

* الإسلام يدعو إلى عُلُو الهمة في جميع أعمال الخير ومنها طلب العلم الشرعي: قال تعالى: (وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنّةٍ عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين) [آل عمران (١٣٣)]، وقال تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) [المطففين(٢٦)]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم» رواه مسلم وغيره، فالمؤمن الجادّ ينافس في أمور الآخرة. قال الحسن البصري (إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الاخرة ومن نافسك في دينك فنافسه) من كتاب لطائف المعارف لابن رجب.

قد هيَّأوكَ لأمرٍ لو فطنت له فاربأ بنفسِك أن ترعى مع الهَمَلِ

كتاب «عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي»

الشيخ: إبراهيم بن عبد الله المزروعي

المبحث السادس: إدارة الوقت أم إدارة الذات؟ (١٨)

رَحِمَ اللهُ شوقي حينَ قال:

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوانِي

لقد ظهرَ اهتمامٌ خاصٌّ خلال العقدين الماضيين بموضوع «إدارة الوقت»؛ ذلكَ أنَّ الوقت مهمٌّ جدًّا في حياة الأمم والشعوب، وما تاريخُ الأمم قاطبة إلا فتراتٌ زمنية متعاقبة في الحياة الإنسانية، وقد بيَّن لنا الخالق - عزَّ وجلَّ - قيمة الوقت في كتابه العزيز؛ إذ قال - سبحانه وتعالى -: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ١، ٢]، فقد أقسمَ - جلَّ جلالُه - بالوقت لأهميته، ولأنَّ الوقت هو الحياة؛ لذا ينبغي الاهتمام به، انطلاقًا من الفرد، إلى المؤسسة أو المنظمة، إلى المجتمع، فالدولة، فالأمم.

والوقت في الإدارة موردٌ هامٌّ؛ فهو رأس المال للمدير، إنْ أحسنَ استثماره واستغلاله، أدَّى مهامه على الشكل المطلوب، وكذا الأمر بالنسبة لكل الناس؛ لذا فإن إدارة الوقت تتمثل انطلاقًا من إدارة الذات، وإدارة الأعمال بما يحقِّق الأهدافَ المطلوبة ضمن فترة زمنية محدَّدة.

وللوقت خصائصُ يتَّصف بها تُميِّزه عن غيره من الموارد، ذلك أنه ينقضي بسرعة، ويمُرُّ - كما يقال - مرَّ السحاب، فنحن - بكل ما أوتينا من قوَّة - لا نستطيع إعادةَ الزمن، أو إيقاف عقارب الساعة عن الدوران، كما أننا لا نستطيع بيع الوقت أو شراءه، فهو موردٌ محدَّد للجميع.

وتتفاوت أهمية الوقت، واستثماره، وإدارته من شخص إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن بيئة إلى بيئة، بحسب مدى إدراك معنى الحياة وعناصرها، وحسب مدى الارتقاء العقلي والحياتي والمعيشي؛ فهذا ابنُ مسعودٍ - رضي الله عنه - يقول: «ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غربَتْ شمسُهُ، نقصَ فيهِ أجلي، ولمْ يزِدْ فيهِ عملي!».

وهذا الشاعر العربيُّ أبو تمَّام، تصادفه عاصفةٌ ثلجية في طريق سفره، أجبرتْه على الجلوس بقريةٍ؛ لصعوبة المتابعة، وانقطاع الطرق، فعرفَ كيف يستثمر وقته خلال أيام جلوسه، فألَّفَ كتابًا من أروعِ ما كُتِبَ عن الشعر العربي «كتابَ الحماسة".

وممَّا تقدم يتضح لنا أنَّ إدارة الوقت لا تعني بالضرورة إنجازَ الأعمال بوقت أسرع، ولكنَّها تعني القدرة على إنجاز الأعمال بشكلها الصحيح، وذلك بالإتقان، والإخلاص، والوعي بما نقوم به من أعمال.

وإنَّ من فوائد إدارة الوقت وتنظيمه على الصعيد الشخصي: ثمراتٍ تتمثلُ في حسن التعامل مع الحياة وعناصرها، وفاعلية الإنجاز، وعدم تراكم الأعمال أو تقليل تراكمها؛ ممَّا يُقلِّل العبءَ النفسي والجسدي، وإنجازِ قدرٍ أكبرَ من الأعمالَ والمهمات بالمقارنة مع حالة الإنجاز دونما تنظيمٍ للوقت، وضمانِ العدالة في توزيعِ الوقت بين النفس والأهل، والأصحاب والأعمال، وغير ذلك.

ولعلَّ من أهمِّ الفوائد على الصعيد العام: احترامَ أوقات الناس، والاستفادة القصوى منها لصالح الأمة، وعدم ذهاب بعض الأوقات هدرًا دونما فائدة، وزيادة الدخل وتحسين مستوى المعيشة لدى الناس، وذلك بأن يكون أداء العاملين في القطاع العام مُثمرًا وفعَّالاً.

وتنعكس إدارة الوقت على الحياة الاجتماعية للناس، فمثلاً تقتضي عملية إدارة الوقت واحترامه ألاَّ يذهب إنسانٌ لزيارة آخرَ إلا بعد قطع موعد مسبق، وحسن استثمار مراحل الحياة لدى الناس، وغالبًا ما يدفع تنظيم الوقت إلى التخلص التدريجي من الرتابة والروتين في النواحي العملية.

ولكن، قد يتساءل أحدنا فيقول: **ما معوقات إدارة الوقت؟**

من خلال نظرة عامة في حياة البشر، وفي آفاق الحياة، وفي كافة المجالات العديدة التي تبرز فيها شؤون الأعمال والمهن والوظائف، نلمس أنَّ هناك أسبابًا ومعوقاتٍ عديدة تقف حجر عثرة، وتعيق كافة الترتيبات الزمنية، وهذه الأسباب والعوامل بعضها يتعلَّق بالإنسان نفسه، وبعضها الآخر يتعلق بالأجواء والظروف المحيطة به، وأخرى تكون خارجةً عن إرادة الإنسان ومقدوره.

ومن هذه الأسباب والمعوقات نذكر الآتي:

- قلة إدراك أهمية الوقت على الصعيد الفردي (الشخصي)، وعلى الصعيد الجماعي العام، ويدلُّ على ذلك اصطفاف الناس في طوابير طويلة؛ ممَّا يؤدي إلى هدر كبير في أوقات البشر وطاقاتهم.

- الطابع الروتيني والنمط الحياتي السائد؛ ممَّا يؤدي إلى الاستسلام لهذا الطابع، والجمود تجاهه، وعدم المحاولة للتطوير أو الخروج عن طوره، وكأنه إطارٌ حديديٌّ مقدَّسٌ لا يُمكن إعادةُ النظر فيه.

- ضعف الإحساس بمرور الوقت؛ وذلك لاعتياد مرور الوقت دونما رقيب أو حسيب، والثمن البخس للوقت عند بعض الناس، بالإضافة لعدم وجود أهداف محدَّدة يسعى الإنسان لتحقيقها.

- قلة وجود التوعية الكافية لأهمية الوقت، وعدم بروزه كقضيَّة مهمَّة.

- وجود كثير من التعقيد والتأخير في وسائل المواصلات والاتصالات.

- التردد في شخصية الإنسان؛ إذ يُعتبر التردُّد مشكلةً شخصية في حياة الإنسان، وهو من العوامل التي تؤدي إلى ضياع وقته.

- الانفراد بالرأي وعدم المشورة، وتكون العاقبة فوضى الوقت، حيث يشغل الإنسان بثانويات الأمور.

- عدم تقدير المرء لجهده وطاقته؛ فقد لا يعرف المرء جهده وطاقته، ويظن أن لديه القدرة على عمل كل شيء، ويأخذ في العمل، ويصادف أنه لم ينجز شيئًا، فيضيع وقته.

- المعصية وإهمال النفس؛ فوقوع الإنسان في المعصية قد يدفعه لإهمال التوبة؛ بل قد يهمل تزكية نفسه التي هي سبب بركة الوقت وامتداده أو اتساعه.

- الغفلة عن واقع الأعداء يوقع في إهمال الانتفاع بالوقت.

- الغفلة عن عواقب فوضى الوقت الدنيوية والأخروية عن بال المسلم، تجده يهدر وقته ولا ينتفع به.

ما الحلُّ؟

يُعتبر ضياع الوقت في حد ذاته مشكلة، وهو لا يخضع لتعريف واحد، أو مفهوم واحد؛ فقد يكون مشكلة بالنسبة للبعض، بينما البعض الآخر لا يعتبره كذلك، وما كان ضياعًا للوقت في الشهر الماضي قد يصبح الآن توظيفًا جيدًا للوقت؛ فقد نقول عن البعض بأنه ضيَّع ساعات طويلةً يشاهد التلفاز، وهذا مضيعة للوقت، فيأتي آخر ويقول: ليس الأمر كذلك، أنا استفدتُ من البرامج، واكتسبتُ معلوماتٍ جديدةً، وازددتُ ثقافةً وتنويرًا، بالإضافة إلى التسلية؛ فالمفهوم عن ضياع الوقت لا يخضع لمعيارٍ واحد.

وإذا كنَّا قد عرفنا أسباب ضياع الوقت فيما تقدَّم، فمن الجدير بنا أن نقول: إنَّ الوقت ثروةٌ ليس للفرد المسلم فقط؛ بل هو ثروةٌ وطنية، فيه الإنجاز، وفيه البناء الحضاري الذي يحفظ للأمة كيانها ووزنها.

إنَّ إدارة الوقت باتَتِ الشغلَ الشاغل للمديرين، ورجال الأعمالِ، والقادةِ، والمعلمينَ، والطلابِ، وجميع البشر على سطح البسيطة.

وأحْسَبُ - في الختام - أنهُ من المفيد لنا أن نقرأ بإمعان قول الشاعر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدِمْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ البَذْرِ

المبحث السابع: أهمية تحديد الأهداف (١٩)

إن من أخطر الأمور في حياة الشخص أن يبقى دون هدف، أو يبقى متذبذبا مترددا بين عدة أهداف لا يدري أيها يقدم، أو أيها ينجز، بعض الناس يقول أريد الشرق وهو يسير في اتجاه الغرب.

إن من أهم أسباب عدم الترقي والتطوير والإنجاز هو أن الشخص لا يدري ماذا يريد، لديه غموض وغبش في الرؤية مثله مثل قارب في وسط البحر ليس له اتجاه محدد، أو مثل سيارة وسط مدينة كبيرة ليس لها وجهة معينة، فمثل هذا لن يبلغ أي مكان مهما طال الزمان واتصلت الأيام لأنه كما يقال يدور في حلقة مفرغة ليس له نهاية يقصدها ويسعى للوصول إليها فمثل هذا يصرف وقته وجهده في السير لكن دون أي إنتاج، وأما حين يحدد ولو هدفا قريبا فإنه سرعان ما يصل إليه ويبلغه.

إنه من الضروري جدا لكل فرد أن يحدد أهدافه (الأهداف المعنوية والعملية) تحديدا صحيحا مبنيا على علم ودراسة، ويدونها ويحفظها ويسعى في تحقيقها ويتابع ذلك دوريا ويجددها بين حين وآخر، وأن يكون له رأي واضح ومحدد ومبرر لكل سلوك أو تصرف يفعله أو يجتنبه لئلا ينساق مع الآخرين دون إرادة وقناعة، أما الرفض أو القبول غير المبرر والمدعم بالحجج والبراهين فلا يصح أبدا، وأن يدون ما يتم إنجازه ويقرأ هذا المدون ليعطيه دفعة من النشاط والاستمرار ويهون عليه بقية الطريق.

إن الفرد في هذه الحياة بلا أهداف مرسومة مفصلة مكتوبة مثل جيش بلا خريطة، أو مثل المسافر يسير بعكس الاتجاه الذي يريد أو باتجاه يوازيه لكنه في النهاية يؤدي به إلى نقطة على محيط الدائرة غير التي يريد، أو مثل عمال صيانة التكييف الذين صعدوا إلى عمارة مكونة من ستين طابقا بمعداتهم وأثقالهم وفي النهاية تبين لهم أنها ليست العمارة المطلوبة، إن حال كثير من الناس حال هؤلاء يكتشفون في نهاية أعمارهم أنهم صعدوا، نعم صعدوا، ولكن إلى غير المكان الصحيح فيتأسفون ويندمون ويتمنون العودة للوراء ولكن هيهات.

إن الوضوح في تحديد الهدف من بداية الحياة وخاصة الهدف الأساس يريحك من كثير من التردد والحيرة والتذبذب بين الأعمال مما تطيقه ومما لا تطيقه مما يصلح لك ومما لا يصلح لك.

بعض الناس مرة يقول أريد كذا فيسير في طريقه، وبعد مدة يندم على فعله ويقول كيف شغلت وقتي بهذا، ثم يعود إليه مرة أخرى، كل هذا يحدث دون رأي واضح أو جواب مقنع، بل حسب التيارات المتغيرة كل يوم، وحسب الأحداث التي تستجد كل وقت. فمسألة تحديد الأهداف وحفظها من أهم المهارات التي يجب على الإنسان أن يتقنها وأن يستفيد منها في رسم طريق النجاح في الحياة.

وفي هذا المقام يؤكد على التوسط في قبول آراء الآخرين في تحديد أهدافك، تسمع وجهات نظرهم وآراءهم، ثم تدرسها وتفكر فيها، أما الرفض التام لكل نصيحة أو توجيه، أو الاستسلام التام والانسياق مع كل رأي، فهذا مسلكان غير صحيحين في رسم خريطة الحياة.

فالأول يسبب الحرمان من نصائح سديدة وأفكار قيمة، والثاني يوقع الشخص في حيرة واضطراب.

ومما يؤكد عليه تأكيدا مضاعفا أن يكون لدى كل شخص بصيرة بنفسه وبما هو جدير به، وألا يكون للمقارنة بالآخرين أي أثر في تحديد الأهداف، فالمقارنة غير الواعية تصيب الإنسان في مقتل وتشل نشاطه، وتصده عن إنجاز أهدافه وتحقيق طموحاته في الحياة، فكن ذاتك ولا تحاول أبدا أن تكون غيرك.

المفاتيح السبعة

مفاتيح تحقيق الاهداف سبعة يجمعها قولك: (حور عين)، وبيانها إجمالا كما يلي:

(ح): حدد: أي قرر.

وتصميم القرار له ست أدوات مجموعة في قولك: (كم أملك) وهي: ماذا، لماذا، كم، كيف، أين، متى.

(ح) حدث: ويراد به الإعلان والإعلام عما تريد تحديده تحدث نفسك به وتحدث الآخرين وهذا يكسب القرار قوة وثباتا ويساعد على قوة تذكره ومن ثم تنفيذه.

(و): وكِّل: وهذا بيت القصيد وأهم عنصر في تخطيط الأهداف، وهذا يعني أن يكون قلبك بين الخوف والرجاء هل يتم إنجاز ما حددت أو لا، وان يكون رجاؤك بالله عظيما بأن تتيقن أنه على كل شيء قدير، وأنه ييسر لك ما أردت، وأنه إن لم ييسر لك ذلك فلن تستطيع إنجازه مهما كان سهلا، وأن ما تراه صعبا يمكن أن يتسهل في أي لحظة، وما تراه سهلا تافها يمكن أن يتعسر ويتعذر في أي لحظة، وعلامة وجود التوكل: كثرة الدعاء والتضرع وألا تستهل أو تستصعب شيئا، وأن يوجد الشكر العميق الخالص لله تعالى على كل إنجاز مهما كان صغيرا، فأنت بذلك تستزيد ربك إنجازات ومكاسب أخرى، وإن مما وقع فيه بعض الناس في هذا الجانب بسبب التتلمذ على نتاج مفكري الغرب أن فقدوا هذا المعنى وذاب في قلوبهم وصار باهتا لا حقيقة له عند التطبيق وصرت ترى وتسمع من عباراتهم ما يناقض هذا المعنى العظيم.

(ر): ركِّز: أي التركيز على الهدف والتطلع إلى إنجازه، وهو يفيد في حصول التصوير والاهتمام والحفظ للهدف، ويراد به عدم التذبذب بين الأهداف، بل التركيز على هدف بعد هدف.

(ع): عقب: وهي تعني تعقب وتعقيب ما تم تحديده، فوجود المتابعة بأبعادها الثلاثة: متابعة التنفيذ، ومتابعة الأداء أي الجودة، ومتابعة الإنجاز أي الكمية؛ مطلب مهم لتحقيق الأهداف.

(ي) يسر: أي تقسيم الهدف إلى أجزاء صغيرة يسهل جدا جدا القيام بها والتدرج في بناء العادات الجديدة.

(ن): نفذ: وهي الثمرة الحقيقية إذا وجد ما سبقه من مقدمات، وسترى بإذن الله أن (نفذ) سهلة جدا مع تحقيق العناصر السابقة، وبدونها فلا تملك شيئا.

إن من أسباب الفشل في تنظيم الوقت أمور منها:

الفـوضى، والنسـيان، والغفلـة، والاسـتعجال، والكسـل، فالفـوضى علاجهـا في حـدد، والنسـيان علاجـه حـدث، والغفلـة علاجهـا وكل، والاسـتعجال علاجـه ركـز ويـسر، والكسـل دواؤه عقـب.

فبـإذن اللـه تعـالى مـن يسـتخدم هـذه المفاتيـح ويطبقهـا فسـيرى النـور والفسـحة في تنظيـم وقتـه، وبـإذن اللـه تعـالى يتمكـن مـن إنجـاز أهدافـه؛ هدفـا بعـد هـدف، وينتقـل مـن نجـاح إلى نجـاح، ويصعـد في سـلم المجـد درجـات عاليـة.

مـن يتـدرب عـلى هـذه المفاتيـح السـبعة فإنـه سـيحس بالجديـة والاحـترام، ويشـعر بـأن الوقـت يتسـع مـن حولـه ويتضاعـف، مثـل البيـت الـذي كان مليئـا بأثـاث قديـم قـد ضيـق الغـرف وأغلـق الممـرات فتـم إخراجـه وقمنـا بتنظيـف المـكان وطلائـه ووضـع قطـع قليلـة مـن الأثـاث الفخـم المميـز، وأضيـئ بأنـواع راقيـة مـن الإنـارة، فقـارن بـين الصورتـين:

الأولى: هي حال كثير منا ممن يسمح لكل شيء أن يدخل وقته وحياته.

الثانية: هي صورة من نظف وقته أولا ثم شغله بأشياء قليلة لكنها غالية وجميلة.

يجـب عليـك أن تكـون حارسـا أمينـا عـلى بوابـة وقتـك وحياتـك فـلا تسـمح بالدخـول إلا لمـن يرجـى منـه الفائـدة والخـير.

كتاب «مفاتيح إنجاز الأهداف وبرنامج مواعيد »

د. خالد عبد الكريم اللاحم

الفصل الرابع: القرآن الكريم

المبحث الأول: الآيات الدالة على فضائل القرآن

المبحث الثاني: الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن

المبحث الثالث: أثر القرآن في تغيير الإنسان

المبحث الرابع: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان

المبحث الخامس: قراءة القرآن في الصلاة

المبحث السادس: ملخص كتاب «هذه رسالات القرآن، فمن يتلقّاها؟»

المبحث السابع: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم

المبحث الثامن: نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن

المبحث الأول: الآيات الدالة على فضائل القرآن (٢٠)

القرآن العظيم هو كتاب الله المبين، والتنزيل الحكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلقد أُحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير؛ لِيُخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، وهو الحقُّ القاطع والنور الساطع المستقيم، والمنهج القويم الذي فرض الله على العباد أن يؤمنوا به، ويهتدوا بهديه، وينتهجوا سبيله، ويلزموا طريقه في الأقوال والأعمال، وسائر الشؤون والأحوال، ولم ينزل سِفرًا في التاريخ أو العلوم أو الأدب أو غيرها من المعارف الإنسانية، وإنما نزل لهداية البشرية جمعاء، ويُعد أدق وثيقة سماوية بين يدي المجتمع البشري.

وبهذا يفضل القرآنُ سواه من الكتب السَّماوية، ويتقدَّم على غيره من الكتب المُنزَّلة، فله فضائله التي أَبرزت عظمتَه ومكانتَه وقَدرَه، وهذا ما سنتناوله فيما يلي:

أولًا: القرآن كلام اللهِ المُنزَّل:

كفى بالقرآن العظيم فضلًا وشرفًا أنه كلام العليم الحكيم تبارك وتعالى، منه بدأ وإليه يعود، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. تفيد هذه الآية الكريمة أن القرآن المتلوَّ المسموع المكتوب بين دفتي المصحف هو كلام الله على الحقيقة، وليس هو حكاية لكلام الله. وإضافته إلى الله عزّ وجل تدلُّ على أنه صفةٌ له قائمةٌ به، وليست كإضافة البيت أو الناقة؛ فإنها إضافة معنى إلى الذَّات.

ودلَّت هذه الآية أيضًا على أن القرآن منزَّلٌ من عند الله، بمعنى أن الله تكلَّم به، وقد تلقَّاه جبريل عليه السلام، فنزل به، وأدَّاه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما تلقَّاه من الربِّ جلَّ شأنه. وفي هذه الآية الكريمة كذلك حُجَّةٌ صريحة، لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافهُ إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها.

فمن فضل القرآن أنه كلام ربِّ العالمين غير مخلوق، كلامُ مَنْ ليس كمثله شيء، وصفةُ مَنْ ليس له شبيه ولا ند، ولولا أن الله تعالى جعل في قلوب عباده من القوة ما مكَّنها من حمله لتتدبَّره وتعتبر به وتتذكَّر ما فيه من طاعته، وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لعجزت القلوب عن حمله، بل لتضعضعت منه، وأنى لها أن تُطيقه والله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فأين قوة القلوب من قوة الجبال؟ ولكن الله رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلًا منه ورحمة.

ثانيًا: القرآن شَرَفٌ للعرب خاصةً وللأُمَّة عامةً:

لقد كان العرب يعيشون في الجاهلية جهلاء؛ حيث عمَّهم الفساد من نواحٍ شتى في العقيدة والعبادة والأحكام والسُّلوك والنُّظُم الاجتماعية، فانتقل بهم القرآن من أمة بلغت مِنَ التَّخلف والجهل والسُّوء أقصاه إلى أمة تسنَّمت ذروة المجد والكمال فكانت خير أمة أخرجت للناس فاعتزُّوا وسادوا على جميع الأمم.

فللقرآن العظيم أكبر الفضل على العرب خاصة، في نيل هذه المَنْقَبة، وبلوغ هذه المرتبة، فقد حَفِظَ كيانهم ووجودهم حين حفظ لغتهم، ولولا فَضْلُ الله تعالى على العرب بالقرآن لبادوا كما بادت أمم كثيرة.

بل مَدَّ القرآنُ العظيم سلطانَ العربية إلى حيث بلغ في مناطق الدُّنيا؛ كآسيا وإفريقيا وأوروبا (الأندلس) وغيرها، فأصبحت اللغة العربية لغة الحضارة والمدنيَّة، وأصبح كلُّ مسلم يشعر أن العربية لغته إذْ إنَّ القرآن قد نزل بها. فالقرآن الكريم إذًا هو أعظم وسيلة لتعريب الشُّعوب الأعجمية، ولنشر أفكار المسلمين وثقافتهم بين مئات الملايين من الناس غير العرب.

والمسلمون - ولا سيما العربُ منهم - مدعوون في الوقت الحاضر لإنقاذ العالم بقرآنهم العظيم من تكالب الأحزاب المادية المتصارعة لاستذلاله ونهب خيراته، كما أنقذوه بالأمس من سيطرة الإمبراطوريات الطَّبقية. وقد وردت ثلاث آيات تدلُّ صراحةً على أنَّ القرآن شرف وفخر للعرب خاصَّة وللأمة عامة، وهي:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. قال القرطبي رحمه الله: يعني: القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش؛ إذْ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم؛ نظيره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: شرفكم. فالقرآن نزل بلسان قريش وإيَّاهم خاطب؛ فاحتاج أهل اللُّغات كلها إلى لسانهم، كُلُّ مَنْ آمن بذلك فصاروا عيالًا عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فشرَفُوا بذلك على سائر أهل اللغات، ولذلك سُمِّي عربياً.

ونصُّ الآية - كما ذكر المفسِّرون - يحتمل أحد مدلولين: الأول: أن القرآن تذكير للنَّبي صلّى الله عليه وسلّم ولقومه وسيُسألون عنه يوم القيامة، فلا حجَّة لهم بعد التذكير. الثاني: أن القرآن يرفع ذِكْرَكَ وذِكْرَ قومك. وهذا ما حدث حقًا.

فأمَّا رَفْعُه لذكره صلّى الله عليه وسلّم فإن مئات الملايين من أَلْسن المؤمنين تلهج بالصلاة والسَّلام عليه، وتذكره ذكر المحبِّ المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، ومئات الملايين من القلوب تخفق بحبِّه منذ ذلك الزمن البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وأمَّا رَفْعُه لذكر قومه؛ فقد جاءهم هذا القرآن والناس لا يعبؤون بهم، بل يزدرونهم، فجعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ الأمم، فقد واجهوا به الدُّنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الزمن الذي استمسكوا فيه به.

٢. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. فقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم، وفخركم، وارتفاعكم، فإذا امتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم. فإن المؤمنين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، والذين تذكَّروا بالقرآن، من الصحابة فَمَنْ بعدهم، حصل لهم منه الرفعة والعلو الباهر، والصِّيت العظيم، والشَّرف على الملوك، ما هو معلوم لكل واحد.

ولقد كان ذكر العرب ومجدهم بالقرآن حين حملوا رسالته فشرَّفوا به وغرَّبوا، فلم يكن لهم ذكر قبله. ولا يملك العربُ من زاد يقدِّمونه سوى هذا الزاد، ولا يملكون من منهج يقدِّمونه للإنسانية سوى هذا المنهج، فلم يُعرَفوا إلاَّ بكتابهم وعقيدتهم، وسلوكهم القويم.

٣. قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]. قال السعدي رحمه الله: أي: ذي القَدْر العظيم، والشَّرف، المُذَكِّر للعباد، كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وأفعاله، ومن العلم، بأحكام الله الشرعية، ومن العلم، بأحكام المعاد والجزاء. فهو مُذكِّر لهم، في أصول دينهم وفروعه، وهنا لا يُحتاج إلى ذكر المُقسَم عليه، فإنَّ حقيقة الأمر، أنَّ المقسم به وعليه شيء واحد، وهو: هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل. فإذا كان القرآن بهذا الوصف، عُلِمَ أن ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة.

إنَّ القرآن العظيم، هو كلمة الله العليا، ولا يداني كلامَه سبحانه كلامُ أحدٍ من خلقه، ولقد ارتفعت الأمَّة المُسلمة وشرفت وسَمَتْ؛ لأنَّها ارتفعت إلى كلمة الله العليا، فالعلوُّ يحتاج إلى الصُّعود والرُّقي، وبالفعل ارتقت الأمَّة لتصلَ إلى كلمة الله، فنالت من الشرَّف والمكانة في عصور ازدهارها ما هو معلوم للدُّنيا كلِّها، لا ينكره إلاَّ جاحد، وليس هذا إلاَّ بتمسُّكها بكتابها المُقدَّس، واستحقت أن تكون خيرَ أُمَّة أُخرجت للنَّاس؛ لأنَّها امتلكت كتاب ربِّها، فَجَذَبت إليها أنظار الأمم قاطبةً، وأدهشهم ما خرَّجت به عليهم من قيم وحضارة وعلم. ولا تزال هذه الأمَّةُ - رغم بُعدها عن منهج ربِّها، وعن كتابها - خيرَ أُمَّة وأشرَفها؛ لأنَّها تمتلك المنهج، وتملك أدوات التَّطبيق.

ثالثًا: القرآن يهدي للتي هي أقوم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ذَكَرَ جَلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السَّماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا بربِّ العالمين جلَّ وعلا: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾؛ أي: يهدي للطَّريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب. وهذه الآية العظيمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبَّعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة.

والقرآن يهدي للتي هي أقوم من هُدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. ففيه إيماءٌ إلى ضمان سلامة أُمَّة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم.

فكلُّ حال هي أقوم في العقائد والأخلاق والأعمال، والسِّياسات، والصِّناعات، والأعمال الدِّينية والدُّنيوية، فإن القرآن العظيم يهدي إليها ويأمر بها ويحثُّ عليها.

فأمَّا العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها إصلاح القلوب وغذاؤها وكمالها؛ لأنها تملأ القلوب محبةً لله وتعظيمًا له وإنابة إليه.

وأمَّا الأخلاق: فإنه يدعو إلى التَّحلِّي بكل خلق جميل، من الصَّبر والحلم والعفو، وحسن الخلق، والآداب، وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأمَّا الأعمال الدِّينية: فإنه يهدي إلى أحسنها من القيام بحقوق الله وحقوق العباد، على أكمل الحالات وأجلَّها، وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأمَّا السِّياسات الدِّينية والدُّنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطُّرق النافعة في تحصيل المصالح الكلية ودفع المفاسد، ويأمر بالتَّشاور على ما لم تتَّضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كلِّ وقت، بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة العبد مع أولاده وأهله وأصحابه ومعامليه.

فلا يمكن أن توجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم من غيرها وأصلح، إلاَّ والقرآن يُرشد إليها نصًا أو ظاهرًا أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية. ومن هدي القرآن للتي هي أقوم هدايته إلى حلِّ المشكلات العالمية بأقوم الطُّرق وأعدلها.

رابعًا: القرآن كتاب مبارك:

وَصَفَ الله تعالى كتابه العظيم بأنه مبارك في أربعة مواضع، وهي: قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]؛ وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]؛ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]؛ وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

والبركة هي ثبوت الخير ودوامه، وكثرته وزيادته، وهذا شأن القرآن العظيم. وهذا ما أكَّده العلاَّمة ابن القيم رحمه الله بقوله: «وهو [القرآن] أحقُّ أن يُسمَّى مباركًا من كلِّ شيء؛ لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه». ولأنه اشتمل على منافع الدَّارين، وعلوم الأوَّلين والآخرين. بل فيه كُلُّ هدى من ضلالة وشفاءٌ من كل داء، ونور يستضاء به في الظلمات. وفيه كُلُّ حُكم يحتاج إليه المكلَّفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طَرَقَ العالَمَ، منذ أنشأه الله.

فالقرآن مباركٌ في أصله؛ لأنه كلام الله، ومبارك في حامله - جبريل عليه السلام - ومبارك في محلِّه - قلب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - ومبارك في حجمه ومحتواه، فإنْ هو إلاَّ صفحات قلائل بالنسبة لضخامة الكتب التي يكتبها البشر، لكنه يحتوي في كلِّ آية منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضِّخام، ومبارك في تلاوته، ومبارك في علومه، ومبارك في معانيه ودلالاته، ومبارك في آثاره.

وهذا ما أكَّده أيضًا العلاَّمة ابن عاشور رحمه الله بقوله: «وَوَصْفُ القرآن بالمبارك يعمُّ نواحي الخير كلها؛ لأن البركة زيادة الخير؛ فالقرآن كلُّه خير من جهة بلاغة ألفاظه وحُسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته، وهو أيضًا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشَّريعة واللطائف البلاغية، ولذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به مَنْ آمنوا به وفريق ممن حُرِموا الإيمان. فكان وَصْفه بأنه مبارك وافيًا على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء».

وحينما نُوازن بين القرآن والتَّوراة في الحجم نجده أصغر منها، ولكن إذا تأمَّلنا البركةَ التي في القرآن فسنجدها بركةً لا تنتهي؛ فكلُّ يوم يُعطي القرآنُ المباركُ عطاءً جديدًا، ولا تنقضي عجائبه، ويقرأه الناس فيفهم هذا منه معنى، وآخَرُ يفهم معنى جديدًا. وهذا دليلٌ على أنَّ قائله تعالى حكيم، وَضَعَ في الشَّيء القليل الفائدةَ الكثيرة. فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. وكلُّ كتاب سَبَقَ هذا الكتاب المبارك له زمن محدود، وعصر محدود، وأُمَّة محدودة، أمَّا القرآن فهو يُواجِه - منذ أن أنزله الله تعالى إلى قيام الساعة - قضايا متجدِّدة يَضَعُ لها حلولًا مناسبة.

وقد جاء القرآن المبارك متوافقًا مع طموح البشرية، وحضارتها وارتقائها في العقول، لذلك كان له السَّبْق دائمًا في مواجهة هذه الأمور التي يحتاجها البشر في كل مكان وزمان ولا يكون ذلك إلاَّ إذا كان مباركًا. فنرجو اللهَ تعالى القريبَ المجيبَ أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك في الدُّنيا والآخرة، إنه سميع عليم.

خامسًا: القرآن تبيانٌ لكل شيء:

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: وقد بيَّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء. وقال مجاهد رحمه الله: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود أعمُّ وأشمل؛ فإنَّ القرآن اشتمل على كلِّ علم نافع مِنْ خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحُكْمِ كلِّ حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

فالقرآن حوى كثيراً من علوم الدنيا تصريحًا، أو تلميحًا، أو إشارة، أو إيماءً، ولا يزال البحث العلمي في علوم الإنسان، والحيوان، والنبات والثمار، والأرض، والبحار، والفضاء، والأفلاك، والظَّواهر الكونية والأرضية يتوصَّل إلى معلومات حديثة مهمة، ذَكَرَها القرآن العظيم قبل قرون طويلة، مما جعل كثيراً من الباحثين يؤمنون ويهتدون. فكلُّ ما يحتاج إليه البشر لإصلاح حالهم ومعادهم موجود في الوحي؛ قرآنًا وسُنَّة.

بَيَّن ذلك ابن عاشور رحمه الله بقوله: و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يفيد العموم؛ إلاَّ أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشَّرائع: من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدنيّ، وتبيُّن الحقوق، وما تتوقَّف عليه الدَّعوة من الاستدلال على الوحدانية، وَصِدْق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدَّقائق الكونية، وَوَصْفِ أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلَّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كله أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأنْ تكون بيانًا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سُلِكَ في بيانها طريق التفصيل واستُنير فيها بما شرح الرسول صلّى الله عليه وسلّم وما قفَّاه به أصحابه وعلماء أمَّته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وَصْف ما أُعدَّ للطائعين وما أعدَّ للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة.

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتَّبصُّر بهذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه. وهذا من أبدع الإعجاز.

سادسًا: القرآن فَضْلُ الله المُفْرِح لعباده:

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «فَضْلُ اللهِ»: القرآن، «ورحمتُه»: أن جعلكم من أهله. وقال قتادة رحمه الله: «فَضْلُ الله»: القرآن. «ورحمتُه»: الإسلام. فقد ندب الله تعالى للفرح بهذا القرآن الذي جاءهم بالهدى ودين الحق، وهو أعظم نعمة ومنة تفضَّل الله بها على عباده ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

وقد فقه الصَّحابة رضي الله عنهم هذه الآية كلَّ الفقه ولم تغرُّهم الدنيا ومتاعها الفاني. لمَّا قُدِّمَ خَراجُ العراق إلى عمر رضي الله عنه، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبتَ. ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهذا ممَّا يجمعون.

ذاك هو فقه الصَّحابة رضي الله عنهم في النظر إلى الأشياء وتحديد قيمتها، لقد أنار القرآنُ العظيم حياتَهم وجعلهم يُؤثرون ما يبقى على ما يفنى، فاختاروا ما رَضِيَهُ الله لهم. كانوا يعدُّون الفَضْلَ الأوَّل والرَّحمة الأُولى، هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى. فأمَّا المال والثراء الذي يأتيهم من الله تعالى فهو تابع لذلك. فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم، فبذلك وحده فليفرحوا.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى وقوتها، وشدَّة الرغبة في العلم والإيمان، الدَّاعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود. بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم. كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وكما قال تعالى، في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل، المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

سابعًا: القرآن هدى ورحمة وبشرى للمسلمين:

قال تعالى عن القرآن أنه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وخَصَّ بالذِّكر الهدى والرَّحمة والبُشرى لأهميتها: فالهدى: ما يرجع من التِّبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال. والرَّحمة: ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدُّنيا والأخرى. والبُشرى: ما فيه من الوعد بالحُسنيين الدُّنيوية والأُخروية. وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم؛ لأنَّ غيرهم لَمَّا أعرضوا عنه حَرموا أنفسهم الانتفاع بخواصِّه كلِّها.

وهذا ما أكَّده العلاَّمة الشنقيطي رحمه الله بقوله: وَيُفْهَمُ من دليل خطاب هذه الآية الكريمة - أي: مفهوم مخالفتها: أنَّ غير المسلمين ليسوا كذلك. وهذا المفهوم من هذه الآية صرَّح به جلَّ وعلا في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. فللَّه الحمد والشُّكر والثَّناء، على أنْ جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورًا، وتبصرة وتذكرة، وعبرة وبركة، وبشرى للمسلمين. فإذا عُلِمَ هذا، علم افتقار كل مُكلَّف لمعرفة معانيه والاهتداء بها. وكان حقيقًا بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلُّمه وتفهُّمه بأقرب الطُّرق الموصلة إلى ذلك.

ثامنًا: القرآن بصائر للمؤمنين:

قال الله تعالى عن القرآن: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. البصائر: جمع بصيرة وهي التي يظهر بها الحق، والآية فيها تنويه بشأن القرآن، وأنه خير من الآيات التي يسألونها؛ لأنه يجمع بين الدَّلالة على صِدْق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمي، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء على مَرِّ العصور.

وإنما جمع «البصائر»؛ لأنَّ القرآن أنواع من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس، والدَّلالة على طرق النَّجاح والنَّجاة في الدُّنيا، والتَّحذير من مهاوي الخسران.

وأفرد الهدى والرحمة: لأنهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر، فالهدى يقارن البصائر، والرَّحمة غاية للبصائر، والمراد بالرحمة: ما يشمل رحمة الدنيا - وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنيَّة - ورحمة الآخرة - وهي الفوز بالنعيم الدَّائم - كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وفي الآية تعريضٌ بأنَّ غير المؤمنين ليسوا أهلًا للانتفاع بالقرآن.

وهناك فرق بين البصر والبصائر: فالبصر من الأمور الحسية وهو مهمة العين، لكن هناك أمورًا معنوية لا تكشفها إلاَّ البصيرة، وجمعها بصائر، ويسمَّى صاحب هذه الرؤية المعنوية: صاحب بصيرة؛ لأنَّها تضيء القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية، ولا يمتلك القلبُ البصيرةَ حتى يكون مشحونًا باليقين الإيماني.

والقرآن العظيم بصائر؛ لأنه يعطي ويمنح مَنْ يؤمن به ويتأمَّله بصائر ليَجِدَ الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَةً، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين. فالخلاصة: إن القرآن رحمةٌ لكلِّ الناس، وهدىً لمن يسأل عن الدَّليل، وبصائر لمن تيقَّن أصولَ الإيمان.

تاسعًا: القرآن نور:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]؛ وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. سُمِّي القرآن نورًا؛ لأنه يُضيء الحقَّ ويُحيل ظلمات الجهل والشك والشرك والكفر والأخلاق السَّيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة.

قال ابن عاشور رحمه الله: «و (الظلمات والنور) استعارة للكفر والإيمان؛ لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل. وقد يستخلص السَّامع من ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة، وحال انتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكان نيِّر».

إذًا فالغاية التي أُنزل من أجلها القرآن العظيم، هي إخراج هذه البشرية من ظلمات الوهم والخرافة والتَّقاليد الجاهلية، وظلمات الحيرة إلى نور التوحيد والحق والثبات، ولا تسل عمَّا يكون في دنيا الناس من فسادٍ ودمارٍ إذا حكمتهم أهواؤهم وضلوا السبيل.

ومن أجل إنقاذ الناس وهدايتهم قد جاءهم من الله نور وكتاب مبين؛ لمصلحتهم في الدنيا والآخرة، والله غني عن العالمين، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]. وَنُورُ القرآن العظيم جاء مِنْ أمْرٍ حسِّي؛ لأن النور يمنع الإنسان مِنْ أنْ يتعثَّر في مشيه أو يخطئَ الطَّريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها وتؤذيه.

عاشرًا: القرآن حياةٌ للمستجيبين له:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فالحياة النافعة تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. قال قتادة رحمه الله في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو هذا القرآن، فيه الحياة والثِّقة والنَّجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

فالحياة الحقيقية الطَّيبة إذًا هي حياة مَنْ استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا. هؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فأكمل الناس حياة أكملهم استجابة لهذا القرآن، ففيه الحياة الكاملة، ومَنْ فاته جزء من الاستجابة للقرآن فقد فاته جزء من الحياة الحقيقية الكاملة .

المبحث الثاني: الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن (٢١)

سبق الحَديثُ عن فضائل القرآن عند مُنزِّله سبحانه وتعالى؛ بعنوان: «الآيات الدالة على فضائل القرآن»، وأما فضائله التي جاءت على لسان مُبلِّغه صلّى الله عليه وسلّم فكثيرة جدًا، والحديث عن «الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن»، تُجمَع في مطلبين:

المطلب الأول: الأحاديث الدَّالة على فضائل القرآن.

المطلب الثاني: الآثار الدَّالة على فضائل القرآن.

المطلب الأول: الأحاديث الدَّالة على فضائل القرآن:

أولا: فَضْلُ القرآن على سائر الكلام:

إنَّ فضل القرآن العظيم على سائر ما أنزل الله تعالى من الكتب السابقة وما أوحى إلى أنبيائه أجمعين منذ آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين صلّى الله عليه وسلّم هو فَضْلٌ لا يُقدَّرُ ولا يُقاس. نجد ذلك في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّ فَضْلَ كَلَامِ اللهِ على سائرِ الكلامِ كَفَضْلِ اللهِ على خَلْقِهِ».

وذلك لأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفة من صفاته تعالى، وصفاتُه تعالى كما يليق بكماله وعظمته لا تُشبه صفات البشر، فلذلك كان التَّقرب إليه بكلامه الذي هو صفة لازمة له من أعظم القربات، والله أعلم.

وما دام القرآن كلام الله تعالى فهو فضل من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، وأحبُّ إلى الله تعالى من كل شيء، فإنَّ المشتغل به - تلاوةً وتدبرًا وعملًا - في دائرة الرِّضى والقرب من الله تعالى.

فلا أحد يقدر على إحصاء الأفضال العظمى، والمنن الكبرى التي امتن الله بها على خلقه، بإنزال هذا الكتاب الذي امتاز على سائر ما أنزل الله عزّ وجل من الكلام أو ما أوحى به. فما بالك إذا قِيس سائر الكلام من كلام المخلوقين مما ليس بوحي؟!

ثانيًا: المُتَمَسِّكُ بالقرآن لن يَضِلَّ ولن يَهْلَك أبدًا:

عن جُبير بن مُطْعِم عن أبيه رضي الله عنهما عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ هذا القرآنَ طَرَفُهُ بِيَد اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيدِيكُم، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلِكوا، وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا».

فهذه بُشرى عظيمة مِنَ البشير النَّذير صلّى الله عليه وسلّم لِمَنْ تمَسَّك بالقرآن العظيم تلاوةً وتدبرًا وعملًا واستشفاءً وتحاكمًا إليه، يُبَشِّرُ فيها صلّى الله عليه وسلّم بالنَّجاة في الآخرة، وعدم الهلاك مع مَنْ هلك، بسبب كفره الأكبر لتركه الإيمان بالقرآن، أو كفره الأصغر لتركه العمل بالقرآن مع إيمانه به. ويُبَشِّرُ فيها كذلك بالاستقامة والثبات على دين الله في الدنيا، وعدم الضلال مع مَنْ ضَلَّ، بسبب عدم الإيمان بالقرآن، أو ترك العمل به.

فالمُتَمَسِّكُون بالقرآن العظيم مَوصُولون بالله تعالى؛ لأن طرف القرآن بيد الله تعالى وطرفه الآخر بأيديهم، وَبِقَدْرِ تمسكهم بالقرآن العظيم تكون نجاتهم وعدم هلاكهم في الآخرة، واستقامتهم وعدم ضلالهم في الدنيا، والعكس بالعكس.

فالمقصود الأعظم من التَّمسك بالقرآن هو العمل به، واتِّباع كلِّ ما أمر به والانتهاء عَمَّا نهى عنه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه. وَمِنْ هنا فإن العمل بالقرآن العظيم هو الأصل والهدف وهو الغاية من تنزيله.

ثالثًا: القرآنُ حَبْلُ اللهِ الممدود من السَّماءِ إلى الأرض:

١. عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «ألا وإني تَارِكٌ فيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُما كِتَابُ اللهِ عزّ وجل، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنْ اتَّبَعَهُ كان على الهُدى، وَمَنْ تَرَكَهُ كان على ضَلالَةٍ». وسبب تسمية الكتاب والسُّنَّة ثَقَلَيْنِ: لعظمهما، وكبر شأنهما. وقيل: لثقل العمل بهما.

٢. وقال أيضًا صلّى الله عليه وسلّم: «أَمَّا بَعْدُ، أَلا يا أَيُّها النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي عزّ وجل، فَأُجِيبُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ عزّ وجل فيه الهُدَى والنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ تعالى، واسْتَمْسِكُوا بِهِ» فحثَّ على كتاب الله، ورغَّب فيه.

٣. وقال أيضًا صلّى الله عليه وسلّم: «كِتَابُ اللهِ، هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ، إلى الأرضِ». ومعنى «حبل الله الممدود»: قيل: عهده. وقيل: السَّبب الموصل إلى رضاه، ورحمته. وقيل: هو نوره الذي يهدي به .

فالقرآن العظيم إذًا هو حبل معنوي متين ممدود من السَّماء إلى الأرض، وهو أوثق عُرى من الحبل المادِّي والحسِّي؛ لأنَّه نور الله تعالى، يُوصل عباده المتمسكين به إلى رضاه ورحمته. نسأل الله تعالى أن نكون منهم.

رابعًا: شفاعة القرآن لأصحابه يوم القيامة:

هذا القرآن العظيم الذي صحبه المسلم في الدُّنيا تلاوةً وتدبرًا وتأثُّرًا وعملًا، فقام به الليالي وأنفق فيه زهرة عمره وجعله شغله الشَّاغل وهمَّه الدَّائب، واتَّخذ منه الصاحب والمأنس والملجأ، لا يتخلَّى عمَّن صحبه في الدنيا فيشفع له عند ربِّه تعالى.

١. القرآن والصِّيام يشفعان: فعن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال «الصِّيَام والقُرآنُ يَشْفَعَانِ للعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، منعتُهُ الطَّعامَ والشَّهوات بالنَّهار، فَشَفِّعْنِي فيه، وَيَقُولُ القرآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّومَ بِاللَّيلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ».

٢. والقرآن ينهض وحده شفيعًا: فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اقْرَؤوا القُرآنَ، فَإِنَّهُ يَأتي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ». فالله تبارك وتعالى بفضله وكرمه يأذن للقرآن أن يشفع يوم القيامة لأصحابه الذين كانوا يُكثرون من تلاوته وتعلُّمه والعمل به في الدنيا، كما يأذن للصِّيام بالشَّفاعة للصائمين الصادقين.

٣. أبعاد الشَّفاعة: وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «القرآنُ شَافعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إلى الجَنَّة، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إلى النَّار». فالمراد بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ»؛ أي: بالعمل به «قَادَهُ إلى الجَنَّة»، «وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ» بترك العمل به «سَاقَهُ إلى النَّارِ» والعياذ بالله. وفي هذا المعنى يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

وَإِنَّ كِتابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ... وأَغْنَى غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلا
وَخَيرُ جَلِيسٍ لا يمُلُّ حَدِيثُهُ ... وَتَرْدَادُهُ يَزْدادُ فِيهِ تَجَمُّلا
وَحَيْثُ الفَتَى يَرْتَاعُ في ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ القَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مَتَهَلِّلا
هُنَالِكَ يَهْنِيْهِ مَقِيْلاً وَرَوْضَةً ... وَمِنْ أَجْلِهِ في ذِرْوَةِ العِزِّ يُجْتَلاَ

وإذا كان كلُّ تاجر قد ربح من وراء تجارته؛ فإنَّ صاحب القرآن من وراء كلِّ تجارة رابحة؛ ذلك لأنَّ القرآن العظيم سيأخذ بيده إلى الجنة، ويحجزه عن النار ويدافع دونه عند ربِّ العالمين، ويرفعه في عليِّين، اللهم اجعل القرآن شفيعًا لنا يوم نلقاك يا أرحم الراحمين.

وبعد هذا الغيضِ من فيضٍ ممَّا تقدَّم ذكره؛ فماذا نقول في فَضْلِ كتاب خَتَمَ الله به الكتب، وَجَثَتْ له الركب، ونهل منه العلماء، وارتوى من مشربه الأدباء، وذلَّت له القلوب.

ذلكم القرآن الكريم: كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ناط به كلَّ سعادة؛ لأنه رسالته الخالدة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السَّابغة، ومعجزته الدَّائمة. ولا يمكن لأحد من البشر أن يستقصي فَضْلَ القرآن وفضائله، ولو فَعَلَ ما استطاع، ولو قُدِّرَ أَنَّ يستطيعَ ما اتَّسعت لذلك صُحُفُ الأرض كلِّها، ولفنيت الأقلام دونه، وعجزت العقول ولو اجتمعت عن الإحاطة بذلك، فتكتفي منه بما يقوم بأودها كما يكتفي الرَّضيع ويشبع من بضع رضعات، والله المستعان وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلاَّ به.

المطلب الثاني: الآثار الدَّالة على فضائل القرآن:

عاش السَّلف الصَّالح مع القرآن وبالقرآن، ففهموا معانيه، وطبَّقوا مقاصِدَه، فاستحالت حياتهم به جَنَّة في الأرض، فعبَّروا عن شعورهم به وحُبِّهم له، بكلام هو أشبه بكلام الأنبياء، تحدَّثوا فيه عن فضائل هذا الكتاب العزيز، وبيان عظمته، ورغم بلاغة أسلوبهم، وروعة كلامهم، فلم يأتوا إلاَّ بالقليل.

وهذه بعض الآثار المنقولة عن السَّلف الصَّالح تبين شيئًا من فضائل القرآن العامة وعظمته. سأذكرها تحت عنوان تدلُّ عليه اجتهادًا منِّي، وَدُون تعليق عليها؛ لأنها من الوضوح بمكان، إلاَّ ما اقتضى الحال بيانه أَو أهميَّته، وهي على النحو الآتي:

١. القرآنُ مَأْدُبَةُ اللهِ تعالى:

عَنْ عبد الله بن مسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «إنَّ هذا القُرآنَ مَأْدُبَةُ الله فتعلَّموا مِنْ مأْدُبَتِه ما اسْتَطعتُمْ، إنَّ هذا القرآنَ هو حَبْلُ الله، هو النُّورُ الشَّافي، وعِصْمةٌ لمنْ تمسَّكَ به، وَنَجاةٌ لمَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ ولا يَزيغُ فيُسْتَعْتبُ ولاَ تَنْقَضِي عَجائبُهُ، ولا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرةِ الرَّدِّ، فاتْلُوهُ فإنَّ الله تعالى يأْجُرُكُمْ على تِلاَوتِه بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرِ حَسَنَاتٍ، أَمَا إنِّي لا أَقُولُ (ألم) ولكن (ألِفٌ) و(لامٌ) و(ميمٌ) ». قال القرطبي رحمه الله: يقال: مَأْدُبَة ومَأْدَبَة. فَمَنْ قال: مَأْدُبَة أراد الصَّنيعَ يصنعه الإنسانُ فيدعو إليه الناس، ومَنْ قال: مَأْدَبَة فإنه يذهب به إلى الأدب بجعله مَفْعَلة. وكان الأحمر يجعلهما لُغتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدًا يقول هذا غيره. والتفسير الأول أَعْجَبُ إليَّ.

وقال ابنُ مَسْعُود رضي الله عنه أيضًا: «لَيْسَ مِنْ مُؤَدِّبٍ إلاَّ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُؤتَى أَدَبُهُ، وَإِنَّ أَدَبَ الله الْقُرْآنُ».

وعن أبي الأَحْوَصِ قَالَ: كَان عَبْدُ الله يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله، فَمَنْ دَخَلَ فِيهِ فَهُوَ آمِنٌ». يعني: مَدْعاتَه، شَبَّه القرآنَ بِصَنيع صَنَعَهُ الله للناسِ لهم فيه خَيرٌ ومنافعُ.

٢. البشارة لمن يُحِبُّ القرآن:

عن عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ القُرْآنَ فَلْيَبْشِرْ».

٣. القرآن لا يَضِلُّ ولا يَشْقَى مَنْ اتَّبَعَهُ:

عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: «ضَمِنَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ لا يَضِلُّ في الدُّنْيَا ولا يَشْقَى في الآخِرَةِ، ثُمَّ قَرأَ: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]». فهو في أمان من الضَّلال والشَّقاء باتباع هدى الله، والشَّقاء ثمرة الضَّلال ولو كان صاحبه غارقًا في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة في الدُّنيا وشقوة في الآخرة، وما مِنْ متاع حرام إلاَّ وله غصَّة تعقبه وحسرة تتبعه، وما يضل الإنسان عن هدى الله إلاَّ ويتخبط في القلق والحيرة.

٤. اسْتِدْراجُ النُّبُوَّةِ في أهلِ القرآن:

عن عَبْدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «مَنْ جَمَعَ القُرآنَ فَقَدْ حَمَلَ أمراً عظيمًا، لقَدْ أُدْرِجَت النُّبُوَّةُ بين كَتِفَيْه غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحى إِليه. ولاَ يَنْبَغي لِحَامِلِ القُرْآنِ أن يَجِدَ مَعَ مَنْ يَجِدُ، ولا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ؛ لأَنَّ القُرآنَ في جَوْفِهِ».

٥. أهلُ القرآن غَبَطَهم الأنبياءُ:

عن الأعمش عن خَيْثَمَةَ بن عبد الرحمن قال: «مَرَّتْ امرأةٌ بعيسى ابن مريمَ عليهما السلام فَقالتْ: طُوبى لحجْرٍ حَمَلَكَ ولِثَدي رَضَعْتَ منه، فقالَ عيسى ابن مريمَ صلواتُ الله عليه: طُوبى لِمَنْ قَرَأَ القُرآنَ ثُمَّ عَمِلَ بِه».

٦. لا يُتَقَرَّبُ إلى الله بشيء أحبَّ إليه مِنْ كَلامِه:

عن خَبَّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه قال: «إِن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَتَقَرب إِلى الله، فَإِنَّكَ لا تَتَقَرَّبُ إِليه بشيءٍ أَحَبَّ إِليه مِنْ كَلاَمِه».

٧. القرآنُ حَبْلُ اللهِ تعالى:

عن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. قال: «حَبْلُ الله: القُرْآنُ». وقال أيضًا: «إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ، تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، يُنَادُونَ: يَا عَبْدَ الله هَذَا الطَّرِيقُ! فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ؛ فَإِنَّ حَبْلَ اللهِ القُرْآنُ».

٨. القرآنُ فيه زيادةُ الأجرةِ والإيمان:

عن قتادة رحمه الله قال: «ما جَالَسَ القُرْآنَ أحدٌ فَقَامَ عَنْهُ إِلاَّ بزِيَادَةٍ أو نُقْصَانٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

٩. مَنْ أَحَبَّ القرآنَ فقد أَحَبَّ الله ورسولَه:

عن ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه فلْيَنْظُرْ، فَإِنْ كان يُحِبُّ القُرآنَ، فَهُوَ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه صلّى الله عليه وسلّم».

١٠. في القرآن خَبَرُ الأَوَّلين والآخِرين:

عن عبد الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «إذا أَرَدْتُمْ العِلْمَ فَأَثِيرُوا القُرآنَ، فَإِنَّ فيه خَبَرَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ».

١١. نِعْمَ الشَّفيعُ القرآن:

عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: «اقْرَؤوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ نِعْمَ الشَّفِيعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّهُ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا رَبِّ، حَلِّه حلْيَةَ الْكَرَامَةِ، فَيُحَلَّى حلْيَةَ الْكَرَامَةِ، يَا رَبِّ، اكْسُهُ كِسْوَةَ الْكَرَامَةِ، فَيُكْسَى كِسْوَةَ الْكَرَامَةِ، يَا رَبِّ، أَلْبِسْهُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، يَا رَبِّ، ارْضَ عَنْهُ، فَلَيْسَ بَعْدَ رِضَاكَ شَيْءٌ».

١٢.القرآنُ مِيراثُ نبيِّنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مَرَّ بسوقِ المدينةِ فوقف عليها فقال: «يا أهلَ السوقِ! ما أعجَزَكم!» قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: «ذاك مِيراثُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم يُقْسَم، وأنتم ها هنا؛ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟» قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد»، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: «ما لكم؟» فقالوا: يا أبا هريرة! قد أتينا المسجدَ فدخلنا فيه، فلم نَرَ فيه شيئًا يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: «وما رأيتم في المسجد أحدًا؟» قالوا: بلى؛ رأينا قومًا يُصَلُّون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلالَ والحرامَ، فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم! فذاكَ ميراثُ محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم».

المبحث الثالث: أثر القرآن في تغيير الإنسان (٢٢)

لما نزل القرآن العظيم تغيَّر العرب، وأُعيد بناء شخصياتهم وفق المنهج الرباني، وتغيروا بآيات الله. وهذه المقالة تكشف طرفًا من أثر القرآن في تغييرهم، وتسلِّط الضوء على عدة عوامل من عوامل تأثير القرآن في نفوسهم وفي نفوس الناس.

منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا؛ وقبل أن ينعم الله -عزّ وجلّ- على البشرية بأعظم نعمة، وهي: إنزال القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين -صلى الله عليه وسلم-، ما كان العرب إلّا شَرَاذِمَ متفرقة وقبائلَ متناحرة، ثم بين عشية وضحاها صاروا إخوة متحابّين، ورفاقًا متآلفين، يفدي بعضهم بعضًا بالغالي والثمين!

وقد نصّ الله تعالى في القرآن على هذه النعمة، فقال: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣].

كانوا يتقاتلون على الناقة والشاة، ثم ما لبثوا أن آثر بعضهم بعضًا على نفسه؛ ونزل فيهم قول الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

لم يكن لأحدهم ولاءٌ إلا لقبيلته التي ينصرها في الباطل قبل الحقّ، ولم يكن في وسع أحدهم إلا الاستجابة لصراخ أخيه في القبيلة، بلا برهان ولا بينة على قوله؛ كما قال الواصفُ لهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانًا

ثم ما كان منهم بعد الإسلام إلا أن صار أحدهم ينصر الحقّ ولو كان مع غير قبيلته، امتثالًا لأمر الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء:١٣٥].

وكانت العصبية القبلية دينهم، فإذا بهم يُجاهِد أحدُهم مع إخوانه في الإسلام ولو كانوا من غير قبيلته؛ بل ولو لم يكونوا من العرب بالأساس!

فكان المسلم الأوسي يقاتل بجوار المسلم الخزرجي، بجوار المسلم القرشي، بجوار المسلم الحبشي، بجوار المسلم الرومي، بجوار المسلم الفارسي، كلهم ذابوا في بوتقة واحدة، يقاتلون يدًا واحدة، حتى لو كان عدوهم هو قبيلة أحدهم.

كانوا يتفاضلون فيما بينهم بالمال والجاه وكثرة العدد والولد وجمال الْخِلْقَة وقوة البدن، ثم أصبحت التقوى هي معيار التفضيل، والذي لا يعلمه إلا الله، بعد أن سمعوا كلام ربهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣].

كانوا ينتقصون ويكرهون النساء والبنات، حالهم في ذلك كما أخبر الله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل: ٥٨- ٥٩].

ويحتقرونهن ولا يعتبرونهن شيئًا؛ ثم أكرموهن وورثوهنَّ، وأعلوا قدرهن؛ كيف لا وقد فرض الله لهن نصيبًا في آيات المواريث، {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [النساء: ٧].

كان سعي أحدهم وكَدُّهُ طول عمره في تحصيل أكبر قدر من المال والإبل والغنم والعلوّ في الأرض، ثم أصبح منتهى أمل أحدهم أن يُطْعَن في سبيل الله طعنة تنقله إلى منازل الشهداء؛ {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

كان ليلهم مع شرب الخمور وتمايل الغانيات وفعل المنكرات، فصاروا لا يبيتون إلا وقد صفّوا أقدامهم بين يدي الله -عزّ وجلّ-، يناجونه في جوف الليل، وقد تركوا الغانيات والخمور، وقد كانوا يفرطون في حياتهم التي بين جنوبهم ولا يفرطون فيها!

كانوا لا يعتبرون العبيد شيئًا، وكان العبد أهون على سيده من شراك نعله؛ ثم أصبح بعد الإسلام أخًا مساويًا له في الحرمة، بل قد يفوقه ويعلوه إن كان أكثر منه في التقوى والإيمان؛ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣].

والسؤال الآن: ما سبب كلّ هذه التغيرات والتحولات وغيرها مما يحيّر الألباب؟

والإجابة على ذلك بشيء واحد: إنه أثر القرآن في تغيير الإنسان.

هذا القرآن الذي أعاد بناء شخصياتهم وفقًا للمنهج الرباني، ولا يراد بذلك مجرد الحفظ والترديد لآيات القرآن؛ وإنما القصد أن يكون القرآن منهج حياة، وخط سير لا يحيد عنه الإنسان.

تأملوا هذا المنهج الرباني التربوي، الذي جاء تفصيله في حديث جُنْدُب بن عبد الله بن سفيان البَجَلِيِّ العَلَقِيِّ -رضي الله عنه-؛ قال: «كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً [جمع حَزَوَّر، وهو الغلام لم يبلغ وقد قارب] مَعَ نَبِيِّنَا -صلى الله عليه وسلم-، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا؛ وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ».

فتأمل قول الصحابي الجليل: «فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ»، وتدبر كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- علّمهم الإيمان قبل القرآن، فلما تعلموا القرآن ازدادوا به إيمانًا.

ثم هو -رضي الله عنه- يوضح المنهج المقابل، فيقول: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»؛ فحريٌّ بنا أن نجعل هذا الحديث مركزًا للمنهج التربوي الذي نأخذ به أنفسنا، وأبناءنا، وبناتنا وأهلينا.

ولم لا؟! أليس هو المنهج الرباني والأسلوب النبوي في التربية، الذي تكلم به من لا ينطق عن الهوى -صلى الله عليه وسلم-؟! وما فائدة أن يكون الإنسان قادرًا على ترديد القرآن كلّه من الفاتحة إلى سورة الناس، ولكنه في الواقع يسير عكس المنهج التربوي للقرآن تمامًا؟!

وحال النبي -صلى الله عليه وسلم-خير مثال يُحتذى به؛ إذ كان -صلى الله عليه وسلم- يهتمُّ بالجانب العملي، ويقدّم الناحية التطبيقية؛ فأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حينما سئلت عن خُلُق النبي -صلى الله عليه وسلم-، لم تجد سوى أن تقول: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ الْقُرْآن».

فالقرآن في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-كان واقعًا عمليًّا؛ فمثلاً لمَّا نزل قول الله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣]، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يمتثل ذلك، كما أخبرت عائشة -رضي الله عنها-: «يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)؛ يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ».

وهكذا كان جيل الصحابة -رضي الله عنهم-؛ كما جاء وصفه في الأثر الرائع عن أبي عبد الرحمن، قال: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَشْرَ آيَاتٍ، وَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ؛ فَإِنَّا عُلِّمْنَا الْعَمَلَ وَالْعِلْمَ».

فتأملوا هذا الفرق بين هذا المنهج وبين ما وضحه الصحابيّ جُنْدُب بن عبد الله بن سفيان -رضي الله عنه- من حال مَنْ كان بعدهم، قال: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ».

فهناك فارق بين المنهجين:

المنهج الأول: وهو القائم على الاهتمام بالفهم والعمل.

المنهج الثاني: وهو القائم على الاهتمام بالحفظ والترديد، حتى إن كان بغير العمل، أو حتى بغير فهم !

ولا ريب أنَّ المؤمنين المتقين يتبعون المنهج الأول؛ ولا علاقة لهم بمن يرددون القرآن ولا يفهمونه، ومن ثمَّ لا يتأثرون به، هؤلاء الذين ذمّهم الله تعالى بجميع أصنافهم؛ فقال: {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨]، وقال -سبحانه وتعالى-: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤].

العامل الأول من عوامل تأثير القرآن: التدرج:

وذلك كما جاء الخبر في الحديث عن يوسف بن ماهك؛ قال: إنيِّ عند عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، إذ جاءها عراقيٌّ، فقال: أَيُّ الكَفَنِ خير؟ قالت: «وَيْحَكَ، وما يضرُّك؟!»، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك؟ قالت: «لِمَ»؟ قال: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غيرَ مُؤَلَّف. قالت: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟! إنمَّا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الخَمْرَ؛ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا؛ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وَإِنِي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ»، قال: فأَخْرَجَتْ له المصحف، فَأَمْلَتْ عليه آيَ السُّوَرِ.

فلنتأمل هذا الأثر العظيم عن أمِّنا عائشة -رضي الله عنها-؛ إذ فيه بيان المنهج الرباني القائم على التدرّج في التأثّر بالقرآن؛ فهذا الرجل العراقي جُلُّ هَمِّه في ترتيب المصحف؛ فقالت عائشة -رضي الله عنها-: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟!»؛ لأن المهم هو ما نستفيده من الآية من أحكام؛ لنعبد الله تعالى على بصيرة، ولنعمل بها في حياتنا، كما أمر الله خالقنا.

فكان بناءُ شخصية الإنسان المسلم في المرحلة الأولى من الإسلام متعلِّقًا بجانب العقيدة، والرقائق، والحديث عن الجنة والنار، والساعة، والصراط، ومشاهد يوم القيامة، وثواب المتقين، وعقوبة المجرمين؛ حتى إذا ترسخت العقيدة في القلوب، وصارت الجنة والنار كأنهما رأي العين، أنزل الله تعالى آيات الأحكام، وبيَّن فيها الحلال والحرام.

وفي عصرنا الحديث يوجد مَن يسلكون سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ولكن على غير هذا المنهج، فيبدؤون الناس بالأمر والنهي، والحلال والحرام، قبل أن تترسخ خشية الله -عزّ وجلّ- في القلوب، وقبل أن تنغرس في صدورهم الرهبة من النار، والرغبة في الجنة، فتكون النتيجة كما أخبرت أمنا عائشة -رضي الله عنها-: «لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا».

ومن هنا ننتقل إلى مجال آخر من مجالات التدرج؛ فالتدرج في القرآن لم يكن قاصرًا على الأحكام الشرعية؛ بل كان القرآن أيضًا منهجًا ربَّانيًّا متدرجًا لإعداد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- للرسالة.

قال الفيروزابادي: «اتَّفقوا على أَنَّ أَوّل السُّور المكِّية {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]، ثمَّ {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، ثمَّ سورة المزمِّل، ثمَّ سورة المدَّثِّر».

فقبل أن يُنَزِّلَ اللهُ تعالى على النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قوله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ١-٢]، كانت التهيئة والإعداد لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة، فقال -سبحانه وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ١- ٥].

وهذه لفتة رائقة تؤكد أنّ الهدف الأسمى من قيام الليل هو ترتيل القرآن وتدبّر معانيه، ومن ثم تتم تربية قائم الليل، وتأهيله لحمل أعباء الدعوة، وليعينه القرآن على تحمل كلّ أذى في سبيل الدعوة؛ كما

قال -سبحانه وتعالى-: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، فأكد -سبحانه وتعالى- في الآية الكريمة أن القرآن مُعينٌ لمن يقوم به الليل على تحمّل الأذى في سبيل الدعوة.

العامل الثاني من عوامل التأثير: الترتيل:

إذ ليس القصد تحقيق أكبر عدد من الختمات، وذلك أن الأمر من الله -سبحانه وتعالى- جاء بترتيل القرآن، فقال -سبحانه وتعالى-: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤]؛ وهكذا كانت قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

واتبعه الصحابة -رضي الله عنهم-؛ فقد كان ترتيل القرآن سببًا لحرمان أبي موسى -رضي الله عنه- والأشعريين من النوم؛ وذلك أن القرآن متى دخلت محبته القلب خرجت منه كلّ محبة تصرفه عن كلام ربّ العالمين، وأول أثر للقرآن على صاحبه أنه يحرمه النوم الطويل.

جاء عن أبي موسى -رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ...).

فأيُّ شرفٍ لهذه الشخصيات الإيمانية، هؤلاء الذين تُعْرَفُ بيوتهم، وتُمَيّزُ من بين البيوت، كما يميّز البشر النجوم المضيئة في السماء المظلمة، وما ذلك إلا بالقرآن؛ ليس كما في عصرنا الآن الذي فيه بيوت تُعرفُ بسماع المنكرات.

وقد عاب الصحابة -رضي الله عنهم- مَنْ اهتمَ بكثرة القراءة وعدد الختمات على حساب ترتيل القرآن؛ حيث جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، فقال: قرأتُ المُفَصَّلَ الليلةَ في ركعة. فقال عبد الله -رضي الله عنه-: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ».

لقد ظنّ الرجل أن ابن مسعود -رضي الله عنه- سيفرح ويُثني عليه عندما يعلم بأنه يقرأ المفصل كلّه في ركعة واحدة! ولكن المفاجأة كانت في شدة إنكار ابن مسعود -رضي الله عنه- عليه؛ إذ أعلمه أن العبرة ليست بكثرة الآيات؛ بل بترتيلها، وتدبر معانيها، وفهم مراميها.

وهذا ينقلنا إلى العامل الثالث: التدبر:

إنّ تأثر الإنسان بالقرآن لا يمكن أن يتم حقيقة إلا بتطبيق القرآن، والتطبيق الصحيح للقرآن لا يتحقق إلا بعد فهم آيات القرآن، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]؛ فمن أخذ القرآن بهذا المأخذ الرباني، وتدبَّر آيات القرآن، فعساه أن يحقق ذلك الأثر الإلهي للقرآن.

تأملوا أثر القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم-:

بكاؤه -صلى الله عليه وسلم- عند سماع القرآن، وتأثره بمعانيه؛ كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-؛ قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: (اقْرَأْ عَلَيَّ). قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: (فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]؛ قَالَ: (أَمْسِكْ). فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ».

ولم يكن أثر القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتصرًا على دموع العين؛ بل كان يؤثر في أعماله -صلى الله عليه وسلم-، فالقرآن كان يرفع من درجة السخاء النبوي؛ فعن ابن عباس-رضي الله عنه-؛ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».

فانظروا ذلك الأثر العملي لمدارسة القرآن، وكيف كان الأثر في مضاعفة الاستعداد الجبلّي للنبي -صلى الله عليه وسلم- للنفقة؛ فهكذا تكون الثمرة الحقيقية لتدبر القرآن برفع مستوى إيمان العبد، ومضاعفة أعماله الصالحة.

وقد يقول قائل: ولكن هذا الأثر للقرآن يحدث للطائعين المتقين، ولكن أين العصاة من ذلك؟!

تأمل هذه القصة: سُئل ابن المبارك: عن ابتداء طلبه العلم؛ فقال: «كنت شابًّا أشرب النبيذ، وأحبّ الغناء، وأطرب بتلك الخبائث، فدعوتُ إخوانًا حين طاب التفاح وغيره إلى بستانٍ لي، فأكلنا وشربنا حتى ذهب بنا السُّكْر، فانتبهت آخر السَّحر فأخذت العود أعبث به وأنشد:

ألم يأن لي منك أن ترحما ونعصي العواذل واللُّوَمَا

فإذا هو لا يجيبني إلى ما أريد؛ فلما تكررت عليه بذلك، وإذا هو ينطق كما ينطق الإنسان: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: ١٦]؛ قلتُ: بلى، يا رب! فكسرت العود، ومزقت ظروف النبيذ، وجاءت التوبة بفضل الله -سبحانه وتعالى- بحقائقها، وأقبلت على العلم والعبادة».

وقد أثّر القرآن في عامة المشركين؛ كما جاء ذلك في الحديث عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-؛ أنها قالت: «لَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، فَرَدَّه ابنُ الدَّغِنَةِ وأجاره من المشركين؛ فقَالُوا لابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فقَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ ذَلِكَ لأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ، وَلاَ القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ [أي: يزدحمون عليه ليسمعوه]، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلاَةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا

أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ،...».
فانظر كيف كان القرآن يؤثر في عامة المشركين حتى النساء والأطفال!

وأخيراً... أفلا ننتبه إلى المعاتبة الربانية الحانية التي كانت سببًا في توبة الكثيرين من الغافلين الذين لم تقض الغفلة على بقية من خير في قلوبهم؟!

ألم يأن لنا أن نستحيي من المعاتبة الربانية في قوله -سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: ١٦]؛ أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه، فتلين عند سماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتطيعه!

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: «إنّ الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال-سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}».

المبحث الرابع: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان (٢٣)

المسألة الأولى: تعريف صناعة الإنسان

صناعة الإنسان تعني صناعة قلبه ونفسه وروحه صناعة محكمة متكاملة.

هي التزكية العلمية للنفس، أي بناء النفس بالتدريج حتى ينضج الإنسان ويستوي على سوقه.

ومصطلح صناعة الإنسان ورد في القرآن الكريم في قول الله تعالى ممتنا على نبيه موسى عليه السلام:

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [سورة طه:٣٩] فقد تولى الله سبحانه وتعالى صناعة أنبيائه وأدبهم فأحسن تأديبهم، هيأ لهم الفرص ويسر لهم الأسباب التي تسهم في تكوينهم وإعدادهم لحمل رسالاته.

وصناعة الإنسان لها أركان، وهي المرتكزات أو الأسس التي تتحكم في بنائه وتشكيله، وهي أركان النجاح الأربعة التي بينها الله تعالى أتم بيان في سورة العصر، فأركان صناعة الإنسان الفردية والجماعية أربعة:

الأول: الإيمان

الثاني: العمل الصالح

الثالث: التواصي بالحق

الرابع: التواصي بالصبر.

وصناعة الإنسان أيضا لها مواصفات ومقاييس جاء بيانها بكل دقة وتفصيل في القرآن والسنة.

وقد كتبت مبحثا في كلٍ من: أركان صناعة الإنسان، ومواصفاتها، في كتاب القرآن والنجاح.

المسألة الثانية: منهج صناعة الإنسان

في المسالة السابقة أوضحت تعريف صناعة الإنسان وأنها تستهدف نفسه وروحه، وعلى هذا فإن منهج صناعة الإنسان يجب أن يسير في هذا الخط ويركز عليه، فصناعة الإنسان لها جهتان:

الأولى: الأفكار والمعتقدات والقناعات.

الثانية: المهارات والعادات والسلوك.

والثانية متوقفة على الأولى ومبنية عليها، فصناعة الإنسان إذا تتوقف على مقدار القناعات والمعتقدات والأفكار التي يمكن غرسها في نفس الإنسان بحيث تشكل حياته.

وعند التأمل والنظر نجد أن الذي يؤثر في صناعة الإنسان ويؤثر على تفكيره، ويغير آراءه ويبدل معتقداته وبالتالي سلوكه وأخلاقه وتصرفاته فيرسم بذلك شخصيته ومنهجه في الحياة ثلاثة أمور:

الأول: الكلام أو اللغة (ويدخل في هذا جميع الوسائل الناقلة والموصلة للكلام صوتا أو صورة)

الثاني: النظر والتفكر في الكون والحياة (ويدخل فيه النظر إلى: القدوات والنماذج والأمثلة الماضية أو الحاضرة والتأثر بهم).

الثالث: الأحداث والمواقف والفرص (وهذه لا اختيار للإنسان فيها بل هي أقدار تساق إليه إن خيرا أو شرا ثم تختلف النتيجة باختلاف التعامل معها)

هذه مصادر صناعة الإنسان في الحياة، وبحسب ما يتوفر له منها تتشكل شخصيته.

وعند الموازنة بينها نجد أن الأمر الأول هو أقواها وأشملها وأدومها وأعمقها أثرا في معظم الأحوال والأوقات، وهذا عام في كل أمور الحياة في كل تخصصاتها ومتطلباتها، وفي مقدمة ذلك يأتي البناء الداخلي للإنسان، إذ هو المنطلق والأساس لأي أمر آخر يراد من هذا الإنسان.

وأيضا فإن الأمرين الآخرين يمكن بسهولة ترجمة وتحويل مضمونهما بواسطة الأمر الأول بكل دقة وبكافة التفصيلات والمشاعر والأحاسيس والمؤثرات، فأي حدث مؤثر أو موقف معبر أو نموذج فذ فريد يمكن ترجمته بواسطة الكلمات، فالله أعطى الإنسان لغة يترجم بها كل ما يريد ويحفظه لنفسه أو ينقله إلى الآخرين.

إن الكلام أو اللغة الحية تتحكم في مشاعر الإنسان وتديرها إلى أي جهة تراد، ألم تر أن إنسانا يستمع لمتكلم فيبكي وآخر يستمع لمتكلم فيضحك وثالث يتحمس وينشط وكله كلام لكنه كلام يختزن في حروفه آلاف الصور والمشاعر التي يتم نقلها عبر الأذن استماعا أو العين قراءة، وهذا التأثير هو الذي يمارسه الخطباء، وتمارسه أجهزة الإعلام.

إننا نرى في الواقع الأثر القوي الذي يحدثه المعلم، أو الخطيب أو المحامي أو المستشار، فما الذي يفعله هؤلاء؟ وكيف يحدثون هذا الأثر؟ إنها الثروة اللغوية الحية التي تعبر عما في النفس وتصف الواقع بكل دقة وتجسده تجسيدا عميقا وتقف على أبعاد وخفايا الموضوع المطروح، تجد خطيبا يقف فيهز الجماهير ويلهب المشاعر والأحاسيس ويغير آراءها ومعتقداتها، بينما يقف خطيب آخر فلا يستطيع الوصول إلى ما وصل إليه الأول، ما الفرق ولماذا؟ الفرق في الروح التي تسري من المتكلم إلى المستمع فتبعث في كلماته الحياة ومن أجل ذلك كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن تحدث الأثر العظيم حتى في نفوس الكفار مما يجبرهم على الاعتراف بهذا الأثر، ولهذا السبب فإن الناس يختلف تأثيرهم بالقرآن قراءة وتربية ووعظا ورقية، فمنهم قوي التأثير ومنهم دون ذلك، ومرجع ذلك كله إلى مقدار حياة مفردات القرآن في نفس القارئ.

الصور في عصرنا الحاضر قد تطورت بشكل ملحوظ وواسع، لكن تبقى الكلمات هي سيدة الموقف والمتفوقة في هذا التخصص، ولك أن تقارن بين ثلاث لوحات إعلان الأولى احتوت كلمات فقط، والثانية صورا فقط، والثالثة كلمات وصور، أيها أقوى أثرا؟ فيما أحسب أن الثالثة أقوى، ثم الأولى، ثم الثانية، وسر قوة الثالثة نابع من الكلمات، ولعل المتأمل في منهج شركات الدعاية والإعلان يلاحظ

باستمرار محاولتهم الربط بكلمة معينة لما يريدون من المستهلك تذكره والانتباه إليه.

الكلمات تفوق الصور في مهارة التصوير والتجسيد للمعاني الذهنية بمرات عديدة، فالإنسان الذي ربيت ملكة التصوير اللغوية لديه يفوق تصويره لما يسمع أي صورة مهما كانت، بل إن خياله يتعداها بمراحل بدليل أنه حين يشاهد الصورة يرى أنها أقل مما تخيل.

إذا نحن أمام قضية تربوية كبرى والتي يمكن تسميتها بـــ: (التربية بالنصوص).

كتاب « الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان»

د. خالد عبد الكريم اللاحم

المبحث الخامس: قراءة القرآن في الصلاة (٢٤)

* الصلاة عمود الدين، والفاتحة عمود الصلاة ، فالفاتحة إذا عمود عمود الدين ، وجاء في الصحيح:«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، فيجب العناية بقراءة الفاتحة في كل ركعة.

* كلما كثرت قراءة القرآن في الصلاة كانت أعظم بركة وأكثر نورًا وروحًا وأقوى في تحقيق العبودية لله تعالى، وقوة تثبيت ذكره سبحانه في القلب، وأقوى في تقوية الإيمان واليقين.

* كلما طالت القراءة في الصلاة كلما زاد النور وقويت الروح التي تحيي القلب وتمده بالطاقة والحياة ، أما حين تقل القراءة فإن الحياة تكون ضعيفة حتى وإن كثرت الركعات ودامت الصلاة، فدوام الصلاة نفعه وقوة أثره مرتبط بطول الصلاة بطول القراءة ثم طول التعظيم في الركوع، وطول التضرع في السجود، أما الصلاة السريعة فإنها مهما كثرت وتوالت فأثرها ضعيف جدًا.

* كل ما ورد عن السلف في تحزيب قراءة القرآن فهو قراءته في صلاة الليل وما ورد عنهم سوى ذلك فهو زيادة على هذا الأصل ، أما الاقتصار على تحزيب قراءة القرآن خارج الصلاة فهو من فعل بعض المتأخرين ممن خفي عليهم العلم بهذه المسألة ، أو بسبب الكسل عن قراءة القرآن في الصلاة.

المبحث السادس: ملخص كتاب «هذه رسالات القرآن، فمن يتلقّاها؟» (٢٥)

يأتي هذا الكتاب في محاولة لإعادة بناء الجسور بين الأمة ومصدر انبعاثها من بين الأمم؛ لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولتجديد وترسيخ تمسكها بأسباب السماء وإن قُطعت عنها أسباب الأرض، وذلك بنفض الغبار عن كتاب الله، بتلقي رسائله وترجمة معانيه في حياتنا كيوم نزل، في الوقت الذي انشغل فيه الناس عن حقائق الأمور بظاهرها فحفظوا حروف القرآن وأضاعوا حدوده.

وعلى الرغم من إقبال الأعداد واجتهاد الكثيرين بحفظه ومراكز التحفيظ خير شاهدٍ على ذلك، إلا أنه حقيقة مغيّب عن واقع حياتنا ومجرياتها، وما الضنك الذي تكابده الأمة إلا نتيجة غفلتها عن رسائل النور والحياة التي تبثها رسائل القرآن، فهو خير سبب يمدنا الله به من السماء؛ ليكون التمسك به هو المخرج لنا من الظلمات إلى النور ولا يكون ذلك إلا إذا تلقينا رسائل القرآن كما أراد الله لنا أن نتلقاها.

مع الكتاب

يبث المؤلف في هذا الكتاب خمس رسائل يستنهض بها همة الفرد ابتداء لتبلغ همة الأمة انتهاءً، ثم لتلَقي القرآن وإعادة النظر في التعامل معه، ومن خلالها يضع يده على أصل الداء الذي بُليت به الأمة أفراداً وجماعات وكان منبته الاشتغال بما هو حول القرآن لا بالقرآن ذاته.

الرسالة الأولى/ في تحديد الوجهة:

يتحدث الكاتب في هذه الرسالة عن مشكلتنا الحقيقة وهي انشغالنا بما حول القرآن وليس بالقرآن نفسه وبما فيه، والفرق بين من يشتغل بالقرآن ومن يشتغل حول القرآن.

فالذي يشتغل بالقرآن يكون القرآن بذلك أساس حياته، أما من يشتغل بالعمل حول القرآن يكون اشتغاله في حقيقة الأمر بالأفكار المجردة، وعلى هذا الأساس يكون الفرق بين حفظنا للقرآن وحفظ الصحابة له.

فطريقتنا في حفظ للقرآن تكون مجرد هدف لفترة محدودة من الزمن، أما الصحابة فكانوا يتلقون الخمس أو العشر آيات يحفظونها فلا يتجاوزونها إلا بعد فهمها وترجمتها في حياتهم فكان حفظهم مشروع حياة.

الرسالة الثانية/ مجالس القرآن منهاج الغرباء:

يستصرخ المؤلف في هذه الرسالة المتلقين لرسالة القرآن، ولا سيما جيل الشباب ويبين لهم أن وظيفتهم هي الانتساب لرسالة القرآن تلقّيا وبلاغاً، ومعنى ذلك الدخول في ابتلاءات القرآن، فلا نكتفي بمنزلة التحمّل بل لا بد من منزلة الأداء ليشتعل القلب بكلمات الله.

إذ إنّ الكلام المجرد لا يكفي لبلاغ رسالات القرآن ولهذا لا بد من جعل قلوبنا مصابيح للقرآن وشراييننا مجرى تياره؛ لكي نصافح الناس بحقائق القرآن، فالذي يحفظ الآية أو الآيتين بهذه الطريقة تكونان نبض قلبه وجريان الدم في عروقه، لهو أنفع لنفسه وللناس من المئات، بل الألوف التي تحفظ القرآن كاملاً من غير شعور به.

فتعلم آيات القرآن وأحكامه وحِكَمِه وتزكية النفس به والدعوة إليه وبه هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» [صحيح البخاري]

الرسالة الثالثة/ إنه وحي فتعرضوا له:

ينبه المؤلف إلى مشكلة نعاني منها اليوم في تعاملنا مع القرآن، لأننا نقرؤه على أنه مجرد مصحف لا روح فيه، فإن كان إيماننا بأن القرآن نزل من السماء في يوم ما، وأنّ محمداً صلى الله عليه وسلم تلقاه من ربه رسالة للعالمين، وعقيدة لا يصح إيمان المسلم إلا بها، فتكمن المشكلة هنا في شعورنا بهذه الحقيقة، والذي هو اليوم شعور ميت، فنحن ننظر للأمر بأنه في يوم ما نزل من السماء ونتوقف عند هذا الشعور، وعندما نقرأ القرآن نربط الوحي بالماضي الذي كان، وحقيقة الوحي أنه نور حاضر وروح حيّ.

فالوحي له دلالتان:

- الوحي الحدث: أي النزول الخفي من السماء وهو سبب النبوة وهو الذي انقطع.

- الوحي الصفة: وهو لا ينقطع أبداً.

فلا بد من تلقي القرآن بوصفه وحياً؛ فهذا هو المفتاح الأساس في اكتشاف كنوزه الروحية والتخلق بحقائقه الإيمانية العظمى.

الرسالة الرابعة/ حول مفهوم التدبر:

يتناول المؤلف أهمية تدبر القرآن الكريم من أجل أن نحياه ونستقي منه، ويوضح التدبر على أنه كما المبصار نكشف من خلاله علل النفس وأمراضها وفي نفس الوقت يقوم بتربيتها وتهذيبها، وأنّ هناك فرقاً بيّناً واضحاً بين التدبر والتفسير.

فالتفسير يخص فئة من الناس، وهم مؤهلون للاجتهاد، في حين أن التدبر ممكن لكل الناس على اختلاف ثقافاتهم وعلومهم، والتدبر مرادف للتفكر؛ فكلاهما سبيل للتذكر، وبالتالي، فإن التذكر لا يحتاج لخبرة علمية أو تخصص دقيق، والثمرة الناتجة من التدبر والتفكر والتذكر هي تهييج النفس للعمل وتنشيط القلب للسير وتوثيق إرادة النفس على عزائم الأعمال.

الرسالة الخامسة/ الإخلاص بوصلة الطريق:

يحذر المؤلف من مسارب الشيطان إلى النفس، والتي هي خفية وأشد ما تكون دهاءً والتواءً، وأن حصون الدعوة الإسلامية وقطار الصحوة الإسلامية الهدف الأول لهذا العدو اللدود، وأنه لا بد من تحصين النفس من هجمات الشيطان، وأنه لا بد لكل منتسب لمدرسة القرآن أن يتجرد لله وحده، وعلى العاملين المخلصين أن يتخلصوا من «الأنا» و «نحن»؛ إذ لا طريق إلى الله إلا طريق الإخلاص.

والسبيل إلى التحقق بالإخلاص إنما يكون قراراً ومكابدةً أو عزيمةً ومجاهدةً، وهذا قبسٌ من نور القرآن يتجلى في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: ٢١٨]

مع المؤلف:

- ولد د. فريد الأنصاري في إقليم الرشيدية في المغرب عام ١٩٦٠م.

- حاصل على عدة شهادات منها: الدكتوراه في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه.

- له عدة مؤلفات: قناديل الصلاة، سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، جمالية الدين... معارج القلب إلى حياة الروح، ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله وغيرها.

بطاقة الكتاب:

اسم الكتاب: هذه رسالات القرآن فمن يتلقّاها؟

المؤلف: فريد الأنصاري

مكان النشر: جمهورية مصر العربية - القاهرة

دار النشر: دار السلام للطباعة والنشر

سنة النشر: ٢٠١١م

عدد صفحات الكتاب: ١١٠ صفحة

كتاب «هذه رسالات القرآن فمن يتلقّاها؟»
د. فريد الأنصاري

المبحث السابع: «النبأ العظيم»
نظرات جديدة في القرءان الكريم (٣٦)

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز - رحمه الله - عن كتابه هذا في مقدمة طبعته الأولى التي صدرت عام ١٩٣٣م، أنه (بحوث في القرءان الكريم) الغرض منها والهدف من ورائها (أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته)

إذن فهناك ثلاثة أهداف أو أغراض من وراء تأليف الشيخ لهذا الكتاب:

أولها: أن يصف هذا الكتاب الخالد بحليته وأن يبين خصائصه التي تميز بها عن غيره من الكتب وعلى سائر الكلام.

ثانيها: أن يكشف جانبا من الحقائق المتصلة والمتعلقة بهذا الكتاب الخاتم الذي جاء على التأبيد لا التوقيت.

ثالثها: أن يبين لدارسي القرءان الطريق والسبيل لكيفية دراسة هذا الكتاب المعجز وكيفية بيان وجوه إعجازه.

وكان منهجه في هذا الكتاب كما يقول: (وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئا من التفصيل والتحليل، وشيئا من التطبيق والتمثيل، فلم أكتف بالإشارة حيث تمكن العبارة، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان)

ثم يبدأ الشيخ رحمه الله بحوث كتابه الفذ ببحث فى تحديد معنى القرءان لغة وشرعا، ويوضح سر اختصاص القرءان بالخلود وعدم التحريف دون غيره من الكتب السابقة.

ثم تلاه ببحث فى بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه. وفى هذا المبحث سيترك الشيخ القرءان يدافع عن نفسه وينافح ويثبت ربانية مصدره فالشيخ استخرج من القرءان الدليل على ربانية مصدره واتضح ذلك في:

١. استدلاله بما حدث فى حادثة الإفك وتأخر الوحي، وأن النبي صلى الله عليه وسلم (ماذا كان يمنعه لو أن أمر القرءان إليه أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها الى الوحى السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟)، لكنه لم يفعل لأنه كان ينتظر الوحي من الله.

٢.استدلاله بمخالفة القرءان لطبع الرسول صلى الله عليه وسلم وعتابه الشديد له فى المسائل المباحة، و ذكر بعض الآيات الدالة على ذلك، كأول سورة التحريم، وأول سورة عبس، والآية ٣٧ من سورة الأحزاب، والآية ٤٣ من سورة التوبة، والآية ١١٣ من سورة التوبة، والآيتين ٦٧ و ٦٨ من سورة الأنفال.

٣. وكذلك استدلاله بتوقف الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا في فهم مغزى النص حتى يأتيه الوحي بالبيان. مثل موقفه صلى الله عليه وسلم من قضية المحاسبة على النيات الآية ٢٨٤ سورة البقرة، وكذلك مسلكه صلى الله عليه و سلم في صلح الحديبية.

ثم يقرر الشيخ بعد سوق هذه الدلائل والبراهين: (هذا طرف من سيرته صلى الله عليه وسلم بإزاء القرءان وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرءان لم يصدر عنه بل ورد إليه و أنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه).

بعد ذلك يبدأ الشيخ فى الاثبات العقلي لمصدرية القرءان عبر أربعة مراحل:

الأولى: أن القرءان لا يمكن أن يكون إيحاءاً ذاتيا من نفس محمد صلى الله عليه وسلم:

ويقول في هذه النقطة (أليس يكفي للحكم ببراءة الانسان من عمل من الاعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟) ثم يوجه حديثه للعقلاء (هل كان هذا النبي الأمي صلوات الله عليه أهلا بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟)

ثم يبرهن بأن الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها وأن أنباء المستقبل لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق. ثم بعد ذلك ضرب أمثلة من النبوءات القرآنية التي تحققت ما تعلق منها بمستقبل الاسلام ورسوله وكتابه و ما تعلق منها بمستقبل المؤمنين و ما تعلق كذلك بمستقبل المعاندين.

الثانية: بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم لابد أن يكون أخذ القرءان عن مُعلم:

يمضي الشيخ في هذا المبحث متسائلا عمن أخذ النبي الأمي هذا الكتاب؟ من المعلم الذي علمه إياه؟ هل هو أحد الأميين من حوله؟ بالطبع لا. هل هو بحير الراهب أم ورقة بن نوفل؟ في المرة الاولى كان معه عمه أبو طالب و في الثانية زوجته خديجة فيتساءل الشيخ: (فماذا سمع هذان الرفيقان من علوم الاستاذين؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرءان وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته؟)

إن سكوت التاريخ عن هذا كله دليل على عدم وجوده. يقرر الشيخ.

الثالثة: وتأتي المرحلة الثالثة والتي تبحث في ظروف الوحي وملابساته الخاصة عن مصدر القرآن:

وفيها يتكلم الشيخ عن ظاهرة الوحي وتحليل عوارضها.

الرابعة: البحث في جوهر القرءان نفسه عن حقيقة مصدره:

وفيها يعلن الشيخ أنه بعد بحثه هذا فيقول عن القرآن: (إننا درسنا الطريق التي جاء منها فما وجدنا في اعترافات صاحبه و لا في حياته الخلقية و لا في وسائله وصلاته العلمية و لا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرءان إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب ينسب إليه من دون الله)

بعد ذلك يبدأ الجزء الثاني من الكتاب وهو الجزء الذي يبحث فيه الشيخ بيان الاعجاز اللغوي والبياني للقرءان الكريم.

فيبدأ الشيخ هذا الجزء في بيان أن القرآن معجزة لغوية ثم يستقصى الشُبه الممكنة حول هذه القضية تمهيدا لمحوها واحدة واحدة.

فيبدأ في إيراد الشُبه الواحدة تلو الأخرى ثم يتعرض لها بما يدحضها ويمحو وجودها وينسف أصلها ويقتلع جذرها بأدلة عقلية ونقلية ولغوية و أسلوبية كيف لا وهو المصاحب للقرآن المتذوق له المدرك لقوة أسلوبه و حلاوته.

ثم ينتقل الشيخ من جلاء الشبهة إلى شفاء الغلة وذلك بكشف جوانب من أسرار الإعجاز بدرس الخصائص والمزايا التي استأثر القرءان بها عن سائر الكلام وكان فيها سر إعجازه اللغوي.

فيشرع الشيخ في مقصوده ببحث تحت عنوان نظرتان فى القشرة السطحية للفظ القرآني حيث يبين الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومداته وغناته و يبين بعدها الجمال التنسيقي فى رصف حروفه و تأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة.

ثم ينتقل الشيخ بعد ذلك للحديث عن لب البيان القرآني و خصائصه التي امتاز بها عن سائر الكلام فيقسم مبحثه هذا الى أربعة مراتب يتحدث في الاولى منها عن القرءان في قطعة قطعة منه و هو يقصد هنا بالقطعة ما أدى معنى تاما و في هذه المرتبة يتحدث الشيخ عن أن أسلوب القرءان هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها لأن أسلوبه يتميز بالقصد في اللفظ و الوفاء بحق المعنى و هو يخاطب العامة و الخاصة و يجمع بين إمتاع العاطفة و إقناع العقل و التعبير القرآني تعبير دقيق ثم يعقد الشيخ مبحثا هاما تحت عنوان القرءان إيجاز كله فهو يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني فليس فيه كلمة إلا و هي مفتاح لفائدة جليلة و ليس فيه حرف إلا جاء لمعنى و يثبت الشيخ ذلك ببعض الامثلة .

ثم بعد ذلك ينتقل الشيخ الى المرتبة الثانية وهي القرءان في سورة سورة منه و يدلل من خلالها أن الأسلوب القرآني متناسق الأوضاع مؤتلف العناصر يأخذ بعضه بحجز بعض و أن البنيان القرآني متماسك و محكم ثم يقدم الشيخ مثالا تطبيقيا على ذلك بتقديم سورة البقرة نموذجا على تماسك بنيان القرءان و إحكامه و ما فعله الشيخ فى هذا المبحث كان البداية و النواة لما بات يعرف الان بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

بقي أن نقول إن الشيخ لم يكمل كتابه هذا لأنه بقيت مرتبتين لم يتكلم فيهما الشيخ رحمه الله هما القرءان فيما بين بعض سوره و بعض و القرءان في جملته.

لقد كتب الشيخ دراز رحمه الله كتابه النبأ العظيم بعقله المتدبر لآياته وقلبه الخاشع وبلسانه المحب لترداده وأذنه التواقة لسماعه لقد كتبه الشيخ بكيانه العاشق لكتاب ربه.

وكتاب النبأ العظيم يعد بحق من أفضل ما كتب في الدراسات القرآنية وبيان جانب من جوانب إعجاز هذا الكتاب الخالد.

كتاب « النبأ العظيم »
الشيخ محمد عبد الله دراز

المبحث الثامن: نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن (٢٧)

أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

ا. الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته، ومداته وغناته:

دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه. ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدا وأرسلت ساذجة في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.

ستجد اتساقا وإتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتا بيتا، وشطرا شطرا، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبا متقاربا. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين الشعر نفيا وإثباتا، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها؟

وأنت، فهل تبينت ها هنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لا عجب إذا أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئا منها إلا في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه -كما قال

الوليد - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرا إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

٣. الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة:

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يخمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس. وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاما ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيها الأمر تقديرا لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

ومن هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني. وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواما لبقاء الإنسان فردا وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صوانا يحببها إلى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحداء» يستحث النفوس على السير إليها. ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به. ذلك أن الناس -كما يقول الباقلاني: إذا استحسنوا شيئا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضا فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها

في النثر والشعر إلا مناهل موروثة، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهو شرع في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في نيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه. فلا جرم لم يجدوا له مثالا يجاذونه به، ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحدا لو حاول أن يدخل عليه شيئا من كلام الناس السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فهم كل قارئ ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد {وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}.

الفصل الخامس: الدعاء

المبحث الأول: المبحث الأول: الدعاء يصنع العجائب

المبحث الثاني: الدعاء من أنفع الأدوية

المبحث الثالث: آداب الدعاء

المبحث الرابع: الدعاء في الصلاة

المبحث الخامس: دعاء القنوت

المبحث السادس: أربعون فائدة في الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم

المبحث السابع: الاستغفار..فضائل وأسرار

المبحث الثامن: حسبنا الله ونعم الوكيل

المبحث التاسع: لا حول ولا قوة إلا بالله

المبحث العاشر: ذكر الله

المبحث الحادي عشر: أذكار الصباح والمساء

المبحث الأول: الدعاء يصنع العجائب (٢٨)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

والمعنى: قل: ما يعبأ بكم ربي، وما يكترِثُ بكم، ولا يهتَم لكم، ولا قدرَ لكم يستوجب الاكتراثَ والمبالاةَ، لولا دعاؤكم إيَّاه، واختلفوا في معنى: ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾، فقال بعض أهل العلم: أي: عبادتُكم له وحده جل وعلا، فهو خطابٌ عام للكافرين والمؤمنين، ثم أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُم ﴾ الآية.

إنَّ للدعاء شأنًا عظيمًا، وخطبًا جليلًا، به ينجو العبدُ من شقاء الدنيا وعذابِ الآخرة، ويفوزُ بالجنانِ والعيشِ الرغيدِ، به تنكشفُ الكرباتُ، وتزولُ البليَّاتُ، به تنزِلُ الخيراتُ، وتحلُّ البركاتُ.

يا من تشكو ضيقًا في صدرِك!

يا من يشكو شظَفَ العيشِ وضيقًا في الرزقِ!

يا من حُرِمَ الولدَ؟

يا من كبَّلته الذنوبُ وأرهقتْه المعاصي؟

يا من طرقَ بابَ أهلِ الأرضِ، فسُدَّتْ في وجهِه!

اطرُقْ بابَ ربِّك، تذلَّلْ إليه، وابكِ بين يديه، وتضرَّع إليه، سلْه حوائجَك، إن أمرَ الكون بيدِه، كل شيءٍ خاضعٌ لعظمتِه وسلطانه.

عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا، فلا تظَالموا، يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلا من هديتُه، فاستهدُوني أهدِكم، يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلا مَن أطعمتُه، فاستطعمُوني أطعِمْكم، يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلا من كسوتُه، فاستكسُوني أكسُكُم، يا عبادي، إنكم تُخطئونَ بالليلِ والنهارِ، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعًا، فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم، كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ، ما نقَصَ ذلك من مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألتَه، ما نقَص ذلك مما عندي إلا كما ينقُصُ المخيطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيراً، فليحمَد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه»، قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على رُكبتيه.

قال ربنا سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال جل شأنه: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

إن للدعاء فضلًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا، وها أنا ذا أذكر لك بعض فضائلِ الدعاء؛ لتكون مُحفِّزًا لك للمداومة على الدعاء ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا سُجدًا وقيامًا.

١. وعد الله أن يستجيب لمن دعاه بصدق:

قال ربنا سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزالُ يُستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجِل»، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجالُ؟ قال: يقول: «قد دعوتُ وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاءَ».

قال العلماء: يجب على العبدِ أن يكون أبدًا في دعائه مُظهرًا الحاجةَ والطاعةَ لله تعالى، وألا يكونَ غرضُه من الدعاءِ ما يريدُ فقط، فإذا لم ينلْه ثقُلَ عليه الدعاءُ، بل الواجبُ إدامةُ الدعاءِ، وتركُ اليأسِ من الإجابةِ، ودوامُ الرجاءِ، والإلحاحُ في الدعاءِ؛ فإنَّ الله يحبُّ المُلحِّينَ عليه في الدعاءِ.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله حيٌّ كريمٌ يستحيي إذا رفعَ الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفرًا خائبتين».

بل إن الله تعالى يجيبُ دعاءَ الكافرَ إذا دعاه صادقًا مخلصًا؛ كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فهذا وعدٌ من الله لمن دعاه صادقًا مخلصًا أن يُجيبَ دعاءَه، إنه سبحانه ليس في حاجةٍ لأن يعِدَ أحدًا، وإذا وعدَ فإنه لا يُخلِفُ وعدَه أبدًا جلَّ شأنُه.

٢. الدعاء هو العبادة:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾: أي: عن دعائي وتوحيدي.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، [مريم: ٤٨]، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الدعاءَ هو العبادةُ»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

قال العلماء: ومعناه أنَّ الدعاءَ مُعظَمُ العبادةِ، أو هو العبادةُ الحقيقيةُ التي تستأهِلُ أن تُسمَّى عبادةً؛ لدلالته على الإقبالِ على الله، والإعراضِ عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخافُ إلا إياه؛ فالدعاءُ فيه

إظهارُ العبدِ غايةَ التذلُّلِ والاستكانةِ، وفيه إظهارُ الافتقارِ إلى الله، والاعترافُ بأنَّ الله تعالى قادرٌ على إجابته، وما شُرِعَت العباداتُ إلا للخضوعِ للباري وإظهارِ الافتقارِ إليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيءٌ أكرمُ على الله من الدعاءِ».

قال العلماء: ليس شيءٌ من الأذكارِ والعباداتِ أفضلُ عند الله من الدعاءِ؛ لأن فيه إظهارَ الفقرِ والعجزِ، والتذلل والاعترافَ بقوةِ الله وقدرته.

٣. الداعي في معيَّة الله:

عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه إذا دعاني».

وهذه معية التوفيقِ والهدايةِ والعنايةِ، فإذا دعوتَ الله وتضرعْتَ بين يديه، كان معك يحفظُك، ويوفقُك، ويرعاك، ويا له من شرفٍ عظيمٍ أنت تكون من الصفوةِ الذين اختصَّهم الله بمعيته الخاصةِ.

٤. من لزم الدعاء لا بد أن يربح:

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث؛ إما أن تُعجَّلَ له دعوتُه، وإما أن يدخرَها له في الآخرةِ، وإما أن يصرِفَ عنه من السوءِ مثلَها»، قالوا: إذًا نُكثِر، قال: «الله أكثرُ».

قال العلماء: «الله أكثر»: فضلُ الله أكثرُ، فما يُعطيه من فضله وسعة كرمه أكثرُ مما يُعطيكم في مُقابلة دعائكم، فأكثروا ما شئتم، فإنه تعالى يُقابِلُ أدعيتَكم مما هو أكثر منها وأجلُّ، وقيل: الله أغلبُ في الكثرةِ، فلا تُعجزونه في الاستكثار، فإن خزائنَه لا تنفَد، وعطاياه لا تفنى، وقيل: الله أكثرُ إجابةً من دعائكم، قلت: كله محتَملٌ إن شاء الله.

فتخيَّل أنك جئتَ يوم القيامة، فرأيت في صحيفتك حسنات كثيرةً، ما هي بصلاة ولا صيام ولا زكاة، إنها دعواتٌ دعوتَ بها، لم يُجبْها الله لك، لكنه سبحانه وتعالى ادَّخَرَها لك يومَ القيامة حسناتٍ يُثَقِّلُ بها ميزانَك.

فلا تنقطِعْ أبدًا عن الدعاء، حتى إذا لم ترَ إجابةً في الدنيا، فإن الخيرَ العظيمَ ينتظرُك في الآخرةِ.

٥. بالدعاء يفرج الله الهم:

عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أصابَ أحدًا قطُّ همٌّ ولا حزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدُك، ابنُ عبدِك، ابن أمَتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سمَّيتَ به نفسَك، أو علمتَه أحدًا من خلقِك، أو أنزلتَه في كتابِك،

أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي، إلا أذهَبَ اللهُ همَّه وحُزنَه، وأبدلَه مكانَه فرَجًا»، قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلَّمُها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمِعَها أن يتعلَّمَها».

فإذا أصابتْك الهمومُ، وملأَ الحزنُ قلبَك، فقُم وتذلَّلْ بين يدي ربِّك، وسلْه تفريجًا لهمومِك، وتيسيراً لأمورِك، إن قلبَك بيدِه، وكلُّ أمرِك خاضعٌ لسطوتِه جلَّتْ قدرتُه.

٦. بالدعاء يُكشف الضر:

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي بكر محمد بن داود قال: كان بدمشق رجلٌ له بغل يُكريه من دمشق إلى تل الزَّبَداني، ويحمِلُ عليه الناس، فذكر أنه أكرى بغله مرةً رجلٌ يحمِلُ عليه متاعًا له بأُجرةٍ معلومة، فلما صار خارج الدرْبِ لقِيَه رجلٌ وسأله أن يحمِلَه على رأسِ الحمل، ويأخذ منه أُجرتَه، قال: فرغِبْت في الكِراء، وحملَه فوق الحمل، فلما صِرنا ببعض الطريق قال لي: هل لك أن تأخُذَ بنا هذا الطريقَ؛ فإنه مختصرٌ، ويجيء عند مفرق طريقين، فقلت له: أنا لا أخْبَرَ هذا الطريقَ، ولا أعرفه، فقال: أنا أعرفه، وقد سلكتُه مِرارًا كثيرةً، قال فأخذتُ في ذلك الطريق، فأشرفْتُ على موضع وعْرٍ وحْشٍ، ووادٍ عظيمٍ هائلٍ، واستوحشتُ، وجعلتُ أنظر يمَنةً ويَسرةً ولا أرى أحَدًا، ولا أرى أي إنسان، قال: فبينا أنا كذلك إذا به يقول لي: امسك برأسِ البغلِ حتى أنزلَ، فقلت له: أيش تنزلُ وقد أشرفتَ في هذا الموضعِ، مُرْ بنا نلحَقُ البلدَ بوقت، فقال: خُذ ويلَك برأسِ البغلِ حتى أنزلَ، وقد أشرفت على واد عظيم يخايل لي أن فيه أقوامًا موتى، فأمسكتُ برأسِ البغلِ حتى نزل، ثم شدَّ على نفسه ثيابَه، وأخرجَ سكينًا عظيمًا من وسطه، وقصدني به ليقتُلَني، فعدوت من بين يديه وأنا أقول: يا هذا خذ البغلَ وما عليه، فقال هذا هو ولي، وإنما أريد قتلَك، فخوَّفتُه بالله عز وجل، وتضرعْتُ إليه، وبكيتُ، وحذرتُه من عقوبة تلحقُه؛ فأبى، وقال: ليس بُدٌّ من قتلك، فاستسلمتُ في يدِه، وقلت: دعني أُصلي ركعتين، ثم افعَلْ ما بدا لك، فقال: افعَل ولا تُطوِّل، قال: فابتدأت بالتكبير، وارتج عليَّ القراءة حتى لم أذكُر من القرآن حرفًا واحدًا، وأنا واقفٌ متحيِّرٌ، وهو جالسٌ بحذائي يقول: هيه افرُغْ، فأجرى الله على لساني بعد وقت، فقرأت: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، فإذا أنا بفارس قد أقبلَ من نحو الوادي، وبيدِه حَربةٌ، فرمى بها الرجلَ فما أخطأت فؤاده، وخرَّ صريعًا، فتعلقتُ بالفارس وهو منصرفٌ، وقلت له: بالله من أنت الذي منَّ الله بحياتي بظهورك؟ فقال: أنا رسولُ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشفُ السوءَ، قال: فأخذتُ البغلَ والحمل، ورجعتُ إلى دمشق سالمًا.

٧. بالدعاء تُرزق الولد:

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠١].

قال الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

٨. بالدعاء تُشفى من المرض:

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

٩. بالدعاء ينجيك الله من الفتن:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

١٠. الدعاء يأتي بالنصر:

قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدرٍ نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثمائة وتسعةَ عشر رجلًا، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلةَ، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربِّه: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهلِ الإسلام لا تُعبَدُ في الأرض»، فما زالَ يهتف بربِّه، مادًّا يديه مستقبلَ القبلة، حتى سقطَ رداؤه عن مَنكِبَيه. فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءَه، فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التزمَه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مُناشدَتُك ربَّك، فإنه سيُنجز لك ما وعدَك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة.

١١. بالدعاء تُغفر الذنوب:

قال آدم عليه السلام وزوجته: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ربنا: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وسبق قولُ الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم تُخطِئون بالليلِ والنهارِ، وأنا أغفر الذنوبَ جميعًا، فاستغفروني أغفِرْ لكم».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا بنَ آدم، إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي».

١٢. الدعاء سبب لدفع غضب الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لم يسأَلِ الله غضِبَ الله عليه».

الله يغضَبُ إن تركْتَ سؤالَه *** وبني آدمَ حين يُسأَلُ يغضَبُ

١٣. الدعاء يرد القدر:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا؛ فإن الدعاءَ يرُدُّ القضاءَ».

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: علَّمني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلماتٍ أقولُهنَّ في الوترِ: «اللهم اهدِني فيمن هدَيتَ، وعافني فيمن عافيتَ».

قلت: يظهر لي والله أعلم أنَّ الدعاءَ يردُّ القدرَ بقدرٍ؛ فالله عزَّ وجلَّ قدَّرَ في علمِه منذ الأزل أن فلانًا سيُصيبُه مرضٌ، لكنه سوف يدعو الله عزَّ وجلَّ أنْ يُعافيَه من المرض ويصرِفَ عنه البلايا، وسوف يُجيبُ الله دعاءَه ويصرفُ هذا عنه المرضَ، ولو أنه تركَ الدعاءَ لأصابه الله بهذا المرضِ، وقدَّرَ الله سبحانه أن فلانًا سيظَلُّ على الكفرِ سنين طويلةً، لكنه سوف يدعو الله صادقًا أن يهديَه إلى الصراط المستقيم، وأن يُبَصِّره بالحقِّ، وسوف يُجيبُ الله دعاءَه ويهديَه إلى الإسلامِ، ولو أنه تركَ الدعاء لأماتَه الله على الكفرِ، وهكذا، هذا ما يظهَرُ لي، والله أعلى وأعلم.

المبحث الثاني: الدعاء من أنفع الأدوية (٢٩)

والدعاء من أنفع الأدوية:

وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل.

وهو سلاح المؤمن، كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض».

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد. ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل. وإن البلاء لينزل، فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة».

وفيه أيضا من حديث ابن عمر عن النبي- صلى الله عليه وسلم - قال: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء».

وفيه أيضا من حديث ثوبان: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء:

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد».

وذكر الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله يحب الملحين في الدعاء».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب، لعل الله عز وجل أن ينجيه.

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه:

أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر، ويدع الدعاء. وهو بمنزلة من بذر بذرا، أو غرس غراسا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه، تركه وأهمله!

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت، فلم يستجب لي».

وفي صحيح مسلم عنه: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحيم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي. فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل» قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوت ربي، فلم يستجب لي».

المبحث الثالث: آداب الدعاء (٣٠)

آدَابُ الدُّعَاءِ وَأسْبَابُ الإِجَابَةِ:

١- الإِخْلاَصُ للَّه.

٢- أَنْ يَبْدَأَ بِحَمْدِ الله، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمّ بِالصَّلاَةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيَخْتِمُ بِذَلِكَ.

٣- الْجِزْمُ فِي الدُّعَاءِ، وَاليَقِينُ بِالإِجَابَةِ.

٤- الإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ وَعَدَمُ الاسْتِعْجَالِ.

٥- حُضُورُ القَلْبِ فِي الدُّعَاءِ.

٦- الدُّعَاءُ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ.

٧- لا يُسْأَلُ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ.

٨- عَدَمُ الدُّعَاءِ عَلَى الأَهْلِ، وَالمَالِ، وَالْوَلَدِ، وَالنَّفْسِ.

٩- خَفْضُ الصَّوْتِ بِالدُّعَاءِ بَيْنَ الْمُخَافَتَةِ وَالْجَهْرِ.

١٠- الاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ، وَالاسْتِغْفَارُ مِنْهُ، وَالاعْتِرَافُ بِالنِّعْمَةِ، وَشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا.

١١- عَدَمُ تَكَلُّفِ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ.

١٢- التَّضَرُّعُ، وَالْخُشُوعُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ.

١٣- رَدُّ الْمَظَالِمِ مَعَ التَّوْبَةِ.

١٤- الدُّعَاءُ ثَلاَثًا.

١٥- اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ.

١٦- رَفْعُ الأَيْدِيْ فِي الدُّعَاءِ.

١٧- الْوُضُوءُ قَبْلَ الدُّعَاءِ إِنْ تَيَسَّرَ.

١٨- أَنْ لاَ يَعْتَدِيَ فِي الدُّعَاءِ.

١٩- أَنْ يَبْدَأَ الدَّاعِي بِنَفْسِهِ إِذَا دَعَا لِغَيْرِهِ.

٢٠- أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلاَ، أَوْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَامَ بِهِ الدَّاعِي نَفْسُهُ، أَوْ بِدُعَاءِ رَجُلٍ صَالِحٍ حَيّ حَاضِرٍ.

٢١- أَنْ يَكُونَ الْمَطْعَمُ، وَالْمَشْرَبُ، وَالْمَلْبَسُ مِنْ حَلاَلٍ.

٢٢- لاَ يَدْعُو بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيْعَةِ رَحِمٍ.

٢٣- أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ.

٢٤- الابْتِعَادُ عَنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي.

أَوْقَاتٌ وَأَحْوَالٌ وَأَمَاكِنُ يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ:

١- لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

٢- جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرِ.

٣- دُبُرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ.

٤- بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ.

٥- سَاعَةٌ مِنْ كُلِّ لَيْلَةٍ.

٦- عِنْدَ النِّدَاءِ لِلصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ.

٧- عِنْدَ نُزُولِ الْغَيْثِ.

٨- عِنْدَ زَحْفِ الصُّفُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

٩- سَاعَةٌ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

وَأَرْجَحُ الأَقْوَالِ فِيهَا أَنَّهَا آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقَدْ تَكُونُ سَاعَةَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلاَةْ.

١٠- عِنْدَ شُرْبِ مَاءِ زَمْزَمَ مَعَ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ.

١١- فِي السُّجُودِ.

١٢- عِنْدَ الاسْتِيقَاظِ مِنَ النَّوْمِ لَيْلاً، وَالدُّعَاءُ بِالْمَأْثُورِ فِي ذَلِكَ.

١٣- إِذَا نَامَ عَلَى طَهَارَةٍ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَدَعَا.

١٤- عِنْدَ الدُّعَاءِ بِـ((لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)).

١٥- دُعَاءُ النَّاسِ عَقِبَ وَفَاةِ الْمَيِّتِ.

١٦- الدُّعَاءُ بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ.

١٧- عِنْدَ دُعَاءِ اللَّهِ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى .

١٨- دُعَاءُ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ.

١٩- دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ فِي عَرَفَةَ.

٢٠- الدُّعَاءُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

٢١- عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ.

٢٢- عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الْمُصِيبَةِ بِـ((إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا)).

٢٣- الدُّعَاءُ حَالَةَ إِقْبَالِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ، وَاشْتِدَادُ الإِخْلاَصِ.

٢٤- دُعَاءُ الْمَظْلُومِ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ.

٢٥- دُعَاءُ الوَالِدِ لِوَلَدِه، وَعَلَى وَلَدِه.

٢٦- دُعَاءُ الْمُسَافِرِ.

٢٧- دُعَاءُ الصَّائِمِ حَتَّى يُفْطِرَ.

٢٨- دُعَاءُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِه.

٢٩- دُعَاءُ الْمُضْطَرِّ.

٣٠- دُعَاءُ الإِمَامِ الْعَادِلِ.

٣١- دُعَاءُ الْوَلَدِ الْبَارِّ بِوَالِدَيْه.

٣٢- الدُّعَاءُ عَقِبَ الْوُضُوءِ إِذَا دَعَا بِالْمَأْثُورِ فِي ذَلِكَ.

٣٣- الدُّعَاءُ بَعْدَ رَمِي الْجَمْرَةِ الصُّغْرَى.

٣٤- الدُّعَاءُ بَعْدَ رَمْيِ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى.

٣٥- الدُّعَاءُ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ، وَمَنْ صَلَّى دَاخِلَ الْحِجْرِ فَهُوَ مِنَ الْبَيْتِ.

٣٦- الدُّعَاءُ عَلَى الصَّفَا.

٣٧- الدُّعَاءُ عَلَى الْمَرْوَةِ.

٣٨- الدُّعَاءُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ.

وَالْمُؤْمِنُ يَدْعُو رَبَّهُ دَائِمًا أَيْنَمَا كَانَ، قال الله ﷻ: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)، وَلَكِنْ هَذِهِ الأَوْقَاتِ، وَالأَحْوَالِ، وَالأَمَاكِنِ تُخَصُّ بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ.

كتاب « الدعاء من الكتاب والسنة »

للمؤلف د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني

المبحث الرابع: الدعاء في الصلاة (٣١)

الدعاء هو العبادة، والصلاة هي الدعاء، فالصلاة هي العبادة، هي أعظم عمل ينبغي أن يشغل حياة العبد، ويسيطر على اهتمامه، الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، هي العروة الوثقى التي تصل العبد بخالقه، وتدخله على مولاه، وتقربه عنده زلفى، وترفعه درجات يصل بها إلى أعلى مراتب الولاية والحب والقرب، أكثر من الصلاة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وتذكر أن الصلاة هي الدعاء، وما شقي عبد فتح الله له أبواب الدعاء والمناجاة.

فالدعاء الدعاء أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، وإذا قيل الدعاء فأول ما ينبغي أن ينصرف الفهم إلى الصلاة فهي الدعاء وهي أقرب ما يكون العبد من ربه.

إن المتأمل في الصلاة يجد أنها توفرت فيها أسباب إجابة الدعاء فمن ذلك:

١. استجابة الدعاء عند الاستفتاح: قال ابن عمر رضي الله عنهما: بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من القائل كلمة كذا وكذا» قال رجل من القوم أنا يا رسول الله قال: «عجبت لها فتحت لها أبواب السماء» رواه مسلم عن ابن عمر

٢. الفاتحة دعاء مستجاب وهي أعظم الدعاء، دل على ذلك حديث (قسمت الصلاة) وهو في صحيح مسلم .

٣. الاستجابة عند التأمين بعد قراءة الفاتحة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

٤. استجابة الدعاء عند التحميد بعد الرفع من الركوع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، وقال رفاعة بن رافع الزرقي كنا يوما نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمدا كثيراً طيبًا مباركًا فيه فلما انصرف قال:«من المتكلم؟» قال: أنا، قال:«رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول» رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلا جاء فدخل الصف وقد حفزه النفس فقال:«الحمد لله حمدًا كثيراً طيبًا مباركًا فيه» فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال:« أيكم المتكلم بالكلمات » فأرم القوم؛ فقال: «أيكم المتكلم بها فإنه لم يقل بأسا» فقال: رجل جئت وقد حفزني النفس فقلتها؛ فقال: «لقد رأيت اثني عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يرفعها» مسلم.

٥. استجابة الدعاء في السجود: إن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وإذا كان السجود في جوف الليل تضاعف قرب العبد من ربه كما جاء في الحديث:« أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر؛ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن » (الترمذي وصححه عن عمرو بن عبسة)، فيجتمع للعبد قرب الحال وقرب الوقت.

٦. الدعاء بعد التشهد وقبل التسليم: قيل يا رسول الله: أي الدعاء أسمع قال: «جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات» رواه الترمذي وحسنه عن أبي أمامة.

فبعد قراءة التشهد الذي يبدأ بالثناء على الله تعالى ثم الصلاة والسلام على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فهو من مواضع استجابة الدعاء وخاصة في الصلوات المكتوبات.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ويطيلها ويكثر فيها التضرع والاستغاثة والإلحاح بالدعاء وطلب كشف الكربة وإزالة الغمة.

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال كنا إذا صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام على الله قبل عباده السلام على جبريل السلام على ميكائيل السلام على فلان وفلان فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل علينا بوجهه فقال: «إن الله هو السلام فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض».

قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الإشارة بالسبابة في جلسة التشهد:« لهي أشد على الشيطان من الحديد » < رواه أحمد عن ابن عمر > أي أن الإشارة بالسبابة عند التشهد في الصلاة أشد على الشيطان من الضرب بالحديد لأنها تذكّر العبد بوحدانية الله تعالى والإخلاص في العبادة.

ولأجل هذه الفائدة العظيمة كان الصحابة رضوان الله عليهم يتواصون بذلك ويحرصون عليه ويتعاهدون أنفسهم في هذا الأمر، فقد جاء في مصنف ابن أبي شيبة عن سليمان بن يحيى قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بعضهم على بعض يعني: الإشارة بالإصبع في الدعاء).

المبحث الخامس: دعاء القنوت (٣٢)

أسوق هُنا دعاء القنوت المتقدم في أول القنوت وآخره، ثم أسوق بعض الأدعية الجامعة من القرآن والسنة، ليختار منها من رغب الزيادة في القنوت ما شاء، وسياق المرويات منها بصيغة الجمع حتى تناسب الدعاء بها من الإمام، وهي:

١. « اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شَرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، وإنَّه لا يَذِلُّ من واليت، وَلاَ يَعِزُّ من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، لا منجا منك إلاَّ إليك».

٢. «اللهم اقْسِمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك مَا تُبَلِّغُنَا به جنتك، ومن اليقين ما تُهون به علينا مصائب الدنيا. اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تُسَلِّط علينا من لا يرحمنا».

٣. «رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

٤. «رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

٥. «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

٦. «رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً».

٧. «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

٨. «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ».

٩. «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

١٠. «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

١١. «اللهم اغفر لنا، وارْحَمْنا، واهْدِنا، وعَافِنا، وارْزُقْنا».

١٢. «اللهم إنا نسألك الهُدَى والتُّقَى والعَفَافَ والغِنَى».

١٣. «اللهم يا مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا على طاعتك».

١٤. «يا مُقَلِبَ القُلُوبِ ثَبِت قُلُوبَنا على دينك ».

١٥. « اللهم لك أسْلَمْنا، وبك آمَنَّا، وعليك تَوَكَّلنا، وإليك أَنَبْنَا، وبك خَاصَمْنَا، اللهم إنَّا نعوذُ بِعِزَّتِكَ لا إلهَ إلا أنتَ أن تُضِلَّنا، أنْتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُون».

١٦. «اللهم أصْلِحْ لنا ديننا الذي هو عِصْمَةُ أَمرنا، وأصْلِحْ لنا دنيانا التي فيها مَعَاشُنا، وأصلحْ لنا آخرتنا التي فيها مَعَادُنا، واجْعَل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، واجْعَل الموتَ راحةً لنا مِنْ كلِّ شر».

١٧. «اللهم إنا نَسأَلُكَ من الخير كُلِه عاجلِه وآجلِه ما عَلِمْنَا منه وما لم نَعْلَمْ، ونعوذُ بك من الشر كله عاجلِه وآجلِه ما عَلِمْنَا من وما لَم نَعْلَمْ. ونسأَلُكَ الجَنَّة وما قَرَّبَ إليها مِنْ قول أو عمل، ونعوذ بك من النارِ وما قَرَّبَ إليها مِنْ قول أو عمل. ونسألك من خيرِ ما سألكَ عَبْدُكَ ونَبِيُّكَ، ونعوذُ بك من شر ما استعاذك منه عبدُكَ ونبيكُ. ونسألكَ أن تجعلَ كُلَّ قضاءٍ قَضَيْتَهُ لنا خيراً».

١٨. «اللهم إنا نسألكَ العَفْوَ والعافيةَ والمُعَافاةَ في الدنيا والآخرةِ. يا ذا الجَلالِ والإِكْرامِ. يا حيُّ يا قيوم».

١٩. «اللهم إنا نعوذُ بك من جَهْدِ البَلاءِ، ودَرَكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ القَضَاءِ، وشَمَاتَةِ الأعْدَاءِ».

٢٠. «اللهم إنا نعوذُ بك من زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عافيتكَ، وفَجْأَةِ نِقْمَتِك، وجميع سَخَطِك».

٢١. «اللهم إنا نعوذُ بك من العَجْزِ والكسلِ والجُبْنِ والبُخْلِ والهَمِ وعذابِ القبر. اللهم آتِ نفوسَنَا تَقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَنْ زَكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَوْلاها. اللهم إنا نعوذُ بك من عِلْمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها».

٢٢. «اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعفُ عَنَّا».

٢٣. «اللهم آتنا في الدنيا حَسَنَةً، وفي الآخرةِ حَسَنَةً، وقِنَا عذابَ النار».

٢٤. «اللهم إنا نعوذُ برِضَاكَ من سَخَطِكَ، وبمُعَافاتكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وبِكَ مِنْكَ، لا نُحصِي ثَنَاءً عليك، أنت كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِك».

٢٥. «اللهم صَلِّ على النَّبِيِّ الأُمِّيِّ وصحبه وَسَلَّمْ».

المبحث السادس: أربعون فائدة في الصلاة على النبي محمد ﷺ (٣٣)

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه: «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام» أربعون فائدة للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهي:

١. امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.

٢. موافقة الله سبحانه وتعالى في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف.

٣. موافقة الملائكة فيها.

٤. الحصول على عشر صلوات من الله تعالى، المصلي مرة واحدة.

٥. أن يرفع العبد بها عشر درجات.

٦. أنه يكتب له بها عشر حسنات.

٧. أنه يمحى عنه بها عشر سيئات.

٨. أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه.

٩. أنها سبب لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

١٠. أنها سبب لغفران الذنوب.

١١. أنها سبب لكفاية الله سبحانه وتعالى العبد ما أهمه.

١٢. أنها سبب لقرب العبد من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

١٣. أنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.

١٤. أنها سبب لقضاء الحوائج.

١٥. أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.

١٦. أنها زكاة للمصلي وطهارة له.

١٧. أنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته.

١٨. أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.

١٩. أنها سبب لتذكر العبد ما نسيه.

٢٠. أنها سبب لرد النبي صلى الله عليه وسلم على المصلي والمسلم عليه.

٢١. أنها سبب لطيب المجلس فلا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.

٢٢. أنها سبب لنفي الفقر.

٢٣. أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره.

٢٤. أنها سبب للنجاة من الدعاء عليه برغم الأنف.

٢٥. أنها سبب لسلوك طريق الجنة؛ لأنها ترمي بصاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها عن طريقها.

٢٦. أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٢٧. سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله.

٢٨. أنها سبب لوفرة «كثرة» نور العبد على الصراط .

٢٩. أنه يخرج بها العبد عن الجفاء.

٣٠. أنها سبب لإبقاء الله سبحانه وتعالى الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض.

٣١. أنها سبب البركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه.

٣٢. أنها سبب لنيل رحمة الله تعالى له.

٣٣. أنها سبب لدوام محبته للرسول صلى الله عليه وسلم وزيادتها وتضاعفها.

٣٤. أنها سبب لمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم للمصلي عليه.

٣٥. أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه.

٣٦. أنها سبب لعرض اسم المصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وذكره عنده.

٣٧. أنها سبب لتثبيت القدم على الصراط والجواز عليه.

٣٨. أن الصلاة عليه أداء لأقل القليل من حقه صلى الله عليه وسلم.

٣٩. أنها متضمنة لذكر الله تعالى وشكره، ومعرفة إنعامه على عباده بإرساله صلى الله عليه وسلم.

٤٠. أنها دعاء، بحيث يسأل العبد ربه تبارك وتعالى أن يثني على خليله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، ويزيد في تشريفه، وتكريمه وإيثار ذكره ورفعه.

المبحث السابع: الاستغفار.. فضائل وأسرار (٣٤)

إن الله -تعالى وهو اللطيف الخبير- قد علم ما في الخلق من ضعف، وما هم عليه من قصور ونقص قد يحملهم على ارتكاب الذنوب، واقتراف المعاصي، ففتح لهم -سبحانه- باب الأمل والرجاء في العفو والمغفرة، وأمرهم أن يلجؤوا إلى ساحات كرمه وخزائن فضله، فهو -سبحانه- رحيم بمن رجاه، قريب ممن دعاه، والخطأ والتقصير مما جبل عليه البشر، والسلامة من ذلك مما لا مطمع فيه لأحد، فقد قال -عليه الصلاة والسلام- فيما رواه مسلم في صحيحه: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله -تعالى- بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله -تعالى- فيغفر لهم».

وإن شأن الكمّل من أهل التقوى وأرباب الهدى أنهم إذا أذنبوا استغفروا، وإذا أخطؤوا تابوا كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما.

وإن من واسع فضل الله على العباد أنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وأنه -تعالى- يغفر الذنوب كلها؛ فعلى العبد ألا يقنط من رحمة ربه وإن عظمت ذنوبه وكثرت آثامه، فقد قال -عز وجل-: (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ) [الحجر:٥٦].

وروى الترمذي وغيره عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «قال الله -تعالى-: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

ولقد أمر الله -تعالى- رسوله -صلى الله عليه وسلم وهو أتقى الخلق- بإخلاص الدين وإدامة الاستغفار، فقال -عز وجل-: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) [محمد:١٩].

فكان -صلى الله عليه وسلم- ملازماً للاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، حتى قال عن نفسه -صلى الله عليه وسلم-: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري في صحيحه.

وروى أبو داود والترمذي وصححه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كنا نعد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «ربِّ اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم».

وهكذا شأن أرباب العزائم وأهل الإيمان الخلّص، يلجؤون إلى الله على الدوام، ويكثرون التوبة والاستغفار، صادقين مخلصين غير يائسين ولا مصرين، قد ملأت خشية الله قلوبهم، ورسخت في مقام الإحسان أقدامهم، فهم بين مراقبة ربهم وشهود أعمالهم (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) [آل عمران:١٦-١٧].

أولئك هم العارفون المتقون، يؤدون الفرائض، ويكثرون من الطاعات والنوافل، ثم يسارعون إلى الاستغفار خشية التقصير أو الإخلال فيما قدموا من صالح الأعمال (كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات:١٧،١٨].

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد أن فرغ من تبليغ رسالة ربه وبلغ البلاغ المبين أمره ربه أن يكثر من الذكر والاستغفار فقال -سبحانه-: (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا) [النصر:١-٣].

وكان -عليه الصلاة والسلام- إذا فرغ من صلاته بادر إلى الاستغفار، وحجاج بيت الله الحرام مأمورون بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفة والمشعر الحرام (ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [البقرة:١٩٩].

عباد الله: إن من رحمة الله بكم ومزيد فضله عليكم ما رتب على الاستغفار من عظيم الجزاء وسابغ الفضل والعطاء؛ فإن كثرة الاستغفار والتوبة من أسباب تنزل الرحمات الإلهية، والألطاف الربانية، والفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال -سبحانه-: (لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [النمل:٤٦]، وقال -عز وجل-: (وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور:٣١]

وإذا كثر الاستغفار في الأمة وعم أفرادها، وصدر عن قلوب موقنة مخلصة دفع الله به عن العباد والبلاد ضروباً من البلاء والنقم، وصنوفاً من الرزايا والمحن؛ كما قال -عز وجل-: (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الأنفال:٣٣].

وإن من آثار الاستغفار أنه سبب لنزول الغيث المدرار، وحصول البركة في الأرزاق والثمار، وكثرة النسل والنماء؛ كما قال -سبحانه- حكاية عن نوح -عليه السلام-: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً) [نوح:١٠-١٢].

والمستغفرون يمتعهم ربهم متاعاً حسناً، فيهنؤون بحياة طيبة، ويسبغ عليهم -سبحانه- مزيداً من فضله وإنعامه: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) [هود:٣].

وفي ملازمة الاستغفار تفريج الكرب والهموم، والمخرج من ضائقات الأمور، وحصول الرزق من حيث لا يحتسب العبد؛ ففي الحديث عند الإمام أحمد وأبي داود وابن ماجه: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

فهذه -يا عباد الله- بعض فضائل الاستغفار ومنافعه جلاّها لنا ربنا في كتابه، وأفصح عنها رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيما صح من خبره، تحمل أهل الإيمان وأرباب التقوى على البدار بالتوبة وكثرة الاستغفار، غير أن هذه المنح الإلهية والفضائل الربانية إنما تحصل للمستغفرين الله -تعالى- حقاً وصدقاً؛ إذ الاستغفار ليس بأقوال ترددها الألسن، وعبارات تكرر بين الحين والآخر فحسب، وإنما الاستغفار الحق ما تواطأ عليه القلب واللسان، وندم صاحبه على ما بدر منه من ذنوب وآثام، وعزم ألا يعود على اقتراف شيء من ذلك؛ إذ هذه أركان التوبة النصوح التي أمر الله -تعالى- بها العباد،

ووعد عليها تكفير الخطيئات والفوز بنعيم الجنات، فقال -عز شأنه-: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) [التحريم:٨].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: «قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يحل عقد الإصرار، ويثبت معناه في الجنان، وليس التلفظ بمجرد اللسان، فمن استغفر بلسانه، وقلبه مصرّ على معصيته، فاستغفاره يحتاج إلى استغفار»، وقال بعض العلماء: «من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته فهو كاذب، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه».

فاتقوا الله -عباد الله- وتذكروا أن في حوادث الزمان، وفجائع الأيام ما يحمل أولي الألباب والنهى وذوي الإيمان والتقى على الاعتبار والإدكار، والعودة إلى الله الواحد القهار، والاعتصام بهدي القرآن، واقتفاء هدي سيد الأنام، والإقبال على طاعة الله ومرضاته وكثرة التوبة والاستغفار؛ فإن ذلك من أعظم الأسباب لحلول الأمن في البلاد، وإضفاء الطمأنينة في نفوس العباد، وهو وحده الكفيل بحفظ أمة الإسلام في كافة بلادها، ومختلف مجتمعاتها من كل ما تخشى وتحاذر.

فأقبلوا على ربكم وأطيعوه، واستغفروه وتوبوا إليه، فقد قال -عز شأنه-: (قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) [الزمر:٥٣-٥٤].

وإن من نفاذ البصيرة، وصدق الإيمان كثرة التوبة والاستغفار على الدوام، فذلك هدي رسول الهدى -صلى الله عليه وسلم- مع أن الله -تعالى- قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه-: «ما رأيت أكثر استغفاراً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-».

وإن مما صح عنه -عليه الصلاة والسلام- من جوامع أدعية الاستغفار، ومما وجه الأمة إليه ما روى البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استعطت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقناً فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه؛ غفرت ذنوبه وإن كان قد فرّ من الزحف» رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه.

وفي الصحيحين: أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»، وروى مسلم في صحيحه أن من آخر ما كان يقول -صلى الله عليه وسلم- في صلاته قبل التسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت».

فاتقوا الله -عباد الله- وبادروا بالتوبة، ولازموا الاستغفار، وتعرضوا لنفحات ربكم في الجهر والإسرار.

المبحث الثامن: حسبنا الله ونعم الوكيل (٣٥)

أحبتي الكرام، خُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا، خُلِقَ عاجزًا لا يستطيعُ وحده أنْ يُصارع الأحداث، ولا يستطيع وحده أن يُقاوم الشدائد، ولا يستطيع وحده أن يُنازل المصائب، ولا يستطيع وحده أن يُجابه المحن، ولا يستطيع وحده أن يقف أمام الفتن والنوازل إلا حينما يتسلح بسلاح الإيمان واليقين، والتوكل على الله عز وجل، ولأجلِ ذلكم، سيكون حديثنا اليوم عن سلاحٍ عظيم يحتاجه المسلم؛ كي يتسلح به أمامَ خطوبِ هذه الحياة، ويستعمله كلما أَلَمَّت به المصائب.

ويستخدمه كلما أحاطتْ به النكباتُ، ويحتمي به كلما تكالبت عليه مشاكل هذه الدنيا التي لا يسلمُ منها أحد.

هذا السلاح يا كرام ينبغي أَلا يَغْفُلَ عنه المسلِمُ أبدًا، فهو ملجأُ الإنسان عند الفزع، وكهفُهُ عند الخوف، وحصنُهُ عند الهلع، ودرعُهُ عند الرعب.

هذا السلاح من الأذكار العظيمة والكلمات المباركة التي وردت في كتابِ اللهِ وفي سنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم، والتي يجدُرُ بكلِّ مسلمٍ أن يُعنى بها وأن يحفظها ويحافظَ عليها.

هذا السلاحُ هو الكلمةُ الْمَعْرُوفَة بالْحَسْبَلَة، إنَّه سلاح «حسبنا الله ونعم الوكيل»؛ يقولها العبد طالبًا عون الله وتوفيقه وتسديده فيما أهمَّه من جلبِ نَعماءَ أو دفعِ ضُرٍّ وبلاء، وحسبنا الله ونعم الوكيل تعني توكل العبد على الله، والتجاءَه إليه، واستعانةً به، واعتمادًا عليه، وطلبَ عونه وتوفيقه وتسديده.

وكلمة (حسبنا الله) يستشعرُ فيها العبدُ اسْمَ اللهِ الحسيب، والحسيب هو الكافي، فهو سبحانه كَافٍ من توكل عليه، وفوَّضَ أمره إليه، واستعان به، واعتمد عليه.

وكلمة (نعمَ الوكيل) صيغةُ مدحٍ وثناءٍ على الله عز وجل، بأنه هو الحفيظ ونِعمَ المُتوكَّل عليه في جميع الأمور، وهو الوكيلُ الذي توكَّل بالعالَمين، والذي يتولَّى بإحسانِه شُؤونَهم خَلقًا وتدبيراً وهداية وتقديرًا، فلا يُضيِّعُهم ولا يترُكُهم ولا يكِلُهم إلى غيرِه.

نعم يا أيها الكرام، (حسبنا الله وَنِعْمَ الوكيل)، ما أكبرَ معناها، وما أَعظمَ دلالتها، وما أجلَّ قدرها، وما أشدَّ أثرها.

فهي العبارةُ التي تلوحُ أَمامَ الإنسان حين تنقطع وتتخلى عنه القوى المادية والأسبابِ الأرضية، (حسبنا الله ونعم الوكيل) ملاذُ العبد وملجَؤُه، وهي نصيرُهُ ومأمنه حالَ الأزمات الشديدة والضائقات العظيمة.

(حسبنا الله وَنِعْمَ الوكيل) هي السلوى في المصائب والحِصن في الشدائد، (حسبنا الله وَنِعْمَ الوكيل) هي أمضَى من القوَى المادية، والأسباب الأرضيَّة.

(حسبنا الله وَنِعْمَ الوكيل) هي المَفزعُ إذا ضاقت الكروب، وهي الملاذُ إذا عَظُمَت الخُطوب، وهي الكلمة التي تقفُ على طرفِ اللسان حين يأْخذ الخوف والحزن مكانه في القلب.

(حسبنا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل) هي تلك الكلمة وتلكم العبارة التي استشعرها إبراهيم عليه السلام، فحين دعا قومه إلى ترك عبادة الأصنام والدخول في دين الله، ضاقوا به ذرعًا، وأجمعوا على إلقائه في النار، وتجهَّزوا لقذفه في تلكم النار الملتهبة، ولكن ماذا قال لما قُذفَ به؟ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ: حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، قالَهَا إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَهُ عليه وسلَّمَ حِينَ قالوا: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إنَّها كلمةُ الحماية وعنوانُ النجاة وهتافُ الرعاية، وعند وقوعه في وسط النار؛ قال الله للنار: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قال المفسرون: لو قال الله: ﴿ كُونِي بَرْدًا على إِبْرَاهِيمَ ﴾، ولم يقل سلامًا، لأصاب البرد إبراهيم وآذاه، لكنه قال: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾؛ أي: كوني بردًا يسلم إبراهيم من أذاه.

(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكِيلُ) هي كذلك الكلمة نفسها التي قالها نبيُّنا ورسولنا وقدوتنا وشفيعنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن معه بعد غزوة أحد، حين قيل لهم: إنَّ النَّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم؛ قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، وَقَالُوا:

ماذا قالوا؟ وبماذا هتفوا؟ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فماذا كان جزاؤهم؟

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، فالله الذي أمر النَّار لتكون بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابَه يرجعون، ولم يمسسهم سوء هو الذي يجعل المحن منحًا وعطايا، ويجعلُ الفقر والحاجة سعةً وغنًى، ويجعل الهمومَ والأحزان أفراحًا ومسرات، ويجعلُ المنْع عطاءً ورحمة، وهذا كلُّه لمن توكل عليه وجعلَهُ حَسْبُهُ، وأيقن به وأحسنَ الظنَّ به سبحانه، وهذا مضمون حسبنا اللهُ ونعم الوكيل.

أيها الأحباب، ما أجمل وما أروع هتاف حسبنا الله ونعم الوكيل، فإن قلَّ مالُك وكثُرَ دينُك، فناد: (حسبُنا اللهِ ونِعْمَ الوكيلُ)، وإذا خفتَ من عدوٍّ، أو ظُلمتَ أو ابتليتَ، فاهتفْ وردد وقل: (حسبي اللهُ ونِعْمَ الوكيل)، وإذا ضاقت بك السبُل، وأُغْلِقَت دونك الأبواب، وتعسَّرت عليك الحياة ولم تجد من الناسِ أنيسًا ولا مؤنسًا، فقل وردِّد واهتف: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْل)، وإن سُلِبَ حقك، وضَعُفتَ عن استرداده، فقل وردد: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوكيل).

قلْها بيقين ليدفعَ الله عنك الهموم والغموم والأحزان، قلْها بإيمانٍ عميق ليُزيحَ الله عنك الكروبَ والشدائد، قلْها بعزم راسخ وثبات لا يلين؛ ليُذهب الله عنك البأس، ويُعجِّلَ لك الفَرج بإذن الله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فما أحوجنا ونحن اليوم نعاني مشاكلَ وأزمات، وشدائدَ ومحنًا، وبلايا وفتنًا، وآلامًا وأمراضًا،وأوبئة وأوجاعًا - أن نُعنى بكلمةِ حسبنا الله ونعم الوكيل، أن نعيش مع هذه الكلمة العظيمة المباركة، مُتأملين معناها، متدبرين دلالتها، وأن نأتي بها في مواضعها المناسبة، مع الأخذ بالأسباب؛ لنُكْفى ونُوقى بإذن الله عزَّ وجلَّ.

نعم يا مسلمين، ينبغي ألا يُفهَمُ أن نُواريَ عجزَنا وكسلنا وضَعفنا وراء الحسبَلَة أو الحوقَلَة، فهذا مظهرٌ من مظاهر الضَّعفِ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمُ أصحابَه ويربيهم على مواجهة الأحداثَ والمواقف بـ»حسبنا الله ونِعمَ الوكيل»، مُستشعِرين جلالةَ معانيها، وعظيم مدلُولِها، مع العملِ الجادِّ، واتخاذِ الأسبابِ بحكمةٍ وبصيرةٍ، قال صلى الله عليه وسلم: (المُؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المُؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِص على ما ينفعُك واستعِن بالله ولا تَعجِز).

حتى سلفنا الصالح رضوانُ الله عليهم، قد سلكوا مسلك هذه الكلمة العظيمة آخذين بالأسباب متوكلين على الله، فلم تُؤثِّرُ فيهم الأوهام، ولم تُزعِجُهم الحوادِث، ولم يتسرَّبْ إليهم خوفٌ ولا ضعف، لعلمهم أن الله يتكفَّل بمن توكَّل عليه بالكفايةِ التامَّة، فوثَقوا بالله واطمئنُّوا إلى وعدِه، فزال همُّهم وقلَقُهم، وتبدَّل عُسرُهم يُسرًا، وحُزنهم فرَحًا، وخوفُهم أمنًا.

المبحث التاسع: لا حول ولا قوة إلا بالله (٣٦)

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى ذِكْرِهِ، وَإِلَى طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَإِلَى أَفْضَلِ أَنْوَاعِ الْأَذْكَارِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ، وَتُقَرِّبُ إِلَيْهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَظِيمَةِ كَلِمَةُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ فَلَا تَحَوُّلَ لِمَخْلُوقٍ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا تَتَيَسَّرُ لَهُ الْأُمُورُ، وَلَا تَحْصُلُ لَهُ الْقُوَّةُ مِنْ أَجْلِ الْقِيَامِ بِأَيِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا بِاللَّهِ وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَالْخَلْقُ فُقَرَاءُ إِلَى اللهِ، لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ أَبَدًا؛ فَلَا طَاعَةَ لِلَّهِ إِلَّا بِعَوْنِهِ، وَلَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ فِي «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» إِثْبَاتٌ لِمَعْنَى الْعُبُودِيَّةِ، وَإِظْهَارُ الفَقْرِ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِطَلَبِ الْمَعُونَةِ عَلَى مَا يُزَاوِلُهُ مِنَ الْأُمُورِ.

فَلَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ»، وَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئًا، وَلَا نَمْلِكُ مِنْ دُونِهِ، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا مِمَّا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا»، فَلَا تَأْخُذْ مِمَّا تُحِبُّ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَمْتَنِعْ مِمَّا تَكْرَهُ إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ.

فَلَا حَرَكَةَ، وَلَا اسْتِطَاعَةَ، وَلَا دَفْعَ، وَلَا مَنْعَ، إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ - تَعَالَى -، وَالحَوْقَلَةُ مُسْتَحَبَّةٌ فِي كُلٍّ، وقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللهُ -: «ولْيَكُنْ هَجِيرَاهُ - أَيْ: عَادَتُهُ ودأْبُهُ -: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ فَبِهَا تُحْمَلُ الْأَثْقَالُ، وتُكَابَدُ الْأَهْوَالُ، وَيُنَالُ رَفِيعُ الْأَحْوَالِ. فَهُوَ الدُّعَاءُ الَّذِي لَا تَتْرُكُهُ، وَالذِّكْرُ الَّذِي لَا تَفْتَرْ عَنْهُ». فَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَالُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ فَقَطْ، وَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ فَإِنَّ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» تُقَالُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وكُلِّ حِينٍ، أَمَّا الَّتِي تُقَالُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ؛ فَهِيَ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أَمَّا «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ فَهِيَ تَنْفِي الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ عَنِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مَا لَمْ يُمِدَّهَا اللهُ بِعَوْنٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَمَدَدٍ مِنْهُ، رَبُّوا عَلَيْهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ وَأَشْيَعُوهَا فِي طُرُقِكُمْ وَمَقَارِّ أَعْمَالِكُمْ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ قَالَهَا وَتَدَبَّرَهَا، فَهِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؛ فَلَا تُفَرِّطُوا فِي الْكَنْزِ الْعَظِيمِ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْحَكِيمِ»، وَتُقَالُ مَعَ كُلِّ أَذَانٍ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ، وَعِنْدَ النَّوْمِ.

جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ قَالَ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وَمِنَ الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَتَأَكَّدُ بِهَا قَوْلُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مَا يَلِي:

إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ»؛ فَيَقُولُ الْمُجِيبُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، وَإِذَا قَالَ: «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»؛ قَالَ الْمُجِيبُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

عِنْدَمَا يَرَى نعَمَ اللهِ عَلَيْهِ، حَيْثُ قَالَهَا الْمُؤْمِنُ لِصَاحِبِهِ: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف: ٣٩]، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَلِهَذَا يُؤْمَرُ بِهَذَا مَنْ يَخَافُ الْعَيْنَ عَلَى شَيْءٍ؛ [انْتَهَى كَلَامُه رَحِمَهُ اللهُ]، وَلِذَا كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِذَا دَخَلَ حَائِطَهُ يُرَدِّدُ: «مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» حَتَّى يَخْرُجَ. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللهُ -: «يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ أَنْ يَقُولَ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ!».

وَهِيَ مِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي تُقَالُ عِنْدَ النَّوْمِ وَيَغْفِرُ اللهُ بِهَا الذُّنُوبَ، قَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ أَوْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». [رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وَهِيَ مِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي تُقَالُ عِنْدَ التَّقَلُّبِ فِي الْفِرَاشِ وَالْأَرَقِ وَعِنْدَ ذَهَابِ النَّوْمِ مِنَ اللَّيْلِ، فعَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

وَمِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي تُقَالُ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ؛ فَيَقِي اللهُ بِهَا الْمُسْلِمَ مِنَ الشَّيْاطَِينِ: قَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وَتُقَالُ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، حَيْثُ كَانَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

وهي علاج للتطير والتشاؤم فتقول: («اللهُمَّ لا يأتي بالحَسَنَات إلا أنْتَ، ولا يدَفْعُ السَّيئَاتِ إلا أنت، ولا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بِكَ» رواه أبو داود بسند حسن.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْحَوْقَلَةِ:

أَنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، حَيْثُ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ! أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». قَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَمَا لَنَا مَنْجًى مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ». [رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ]، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَالْكَنْزُ مَالٌ مُجْتَمِعٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَمْعٍ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ وَالِافْتِقَارَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ يُوجِبُ الِاسْتِعَانَةَ».

وَهِيَ غَرْسٌ مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكْثِرُوا غِرَاسَ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِإِبْرَاهِيمَ: «وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟»، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «وَأَكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّهُ عَذْبٌ مَاؤُهَا، طَيِّبٌ تُرَابُهَا، فَأَكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِهَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا غِرَاسُهَا. قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَهِيَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ قَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَحَدِ أَصْحَابِهِ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟»؛ قُلْتُ: بَلَى؟ قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». [رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وَهِيَ مِنْ أَسْبَابِ غُفْرَانِ الذُّنُوبِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَا عَلَى الْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ». [رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وهي مِنْ أَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ: قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ].

وإِذَا قَالَهَا الْمُسْلِمُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ؛ أَنْجَاهُ اللهُ بِهَا مِنَ النَّارِ قَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: صَدَقَ عَبْدِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا شَرِيكَ لِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، لِيَ الْمُلْكُ، وَلِيَ الْحَمْدُ، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي». قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَالَ الْأَغَرُّ شَيْئًا

لَـمْ أَفْهَمْـهُ، قَـالَ: فَقُلْـتُ لِأَبِي جَعْفَـرٍ: مَـا قَـالَ؟ فَقَـالَ: «مَـنْ رُزِقَهُـنَّ عِنْـدَ مَوْتِـهِ لَـمْ تَمَسَّـهُ النَّـارُ». [رَوَاهُ ابْـنُ مَاجَـهْ بِسَـنَدٍ صَحِيـحٍ].

وَمَـنْ قَالَهَـا مَـلأَ يَدَيْـهِ مِـنَ الْخَـيْرِ: حَيْـثُ جَـاءَ رَجُـلٌ إِلَى النَّبِـيِّ - صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ - فَقَـالَ: إِنِّي لَا أَسْـتَطِيعُ أَنْ آخُـذَ مِـنَ الْقُـرْآنِ شَـيْئًا؛ فَعَلِّمْنِي مَـا يُجْزِئُنِـي مِنْـهُ، قَـالَ: «قُـلْ: سُـبْحَانَ اللَّـهِ، وَالْحَمْـدُ للَّـهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ، وَاللـهُ أَكْـبَرُ، وَلَا حَـوْلَ وَلَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللـهِ الْعَـلِيِّ الْعَظِيـمِ»، قَـالَ: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، هَـذَا للَّـهِ عَـزَّ وَجَـلَّ فَـمَا لِي، قَـالَ: «قُـلْ: اللَّهُـمَّ ارْحَمْنِـي وَارْزُقْنِـي وَعَافِنِـي وَاهْـدِنِي»، فَلَـمَّا قَـامَ قَـالَ: هَكَـذَا بِيَـدِهِ فَقَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ - صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ -: «أَمَّـا هَـذَا؛ فَقَـدْ مَـلأَ يَـدَهُ مِـنَ الْخَـيْرِ». [رَوَاهُ أَبُـو دَاوُدِ بِسَـنَدٍ حَسَـنٍ].

وَهِـيَ مِـنَ الْبَاقِيَـاتِ الصَّالِحَـاتِ الَّتِـي يُرْجَـى نَفْعُهَـا فِي الْآخِـرَةِ: وَفِي الْحَدِيـثِ الْحَسَـنِ الَّـذِي رَوَاهُ أَحْمَـدُ: عَـنْ رَسُـولِ اللـهِ - صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ - قَـالَ: «اسْـتَكْثِرُوا مِـنَ الْبَاقِيَـاتِ الصَّالِحَـاتِ» قِيـلَ: وَمَـا هِـيَ يَـا رَسُـولَ اللـهِ؟ قَـالَ: «الْمِلَّـةُ»، قِيـلَ: وَمَـا هِـيَ يَـا رَسُـولَ اللـهِ؟ قَـالَ: «الْمِلَّـةُ»، قِيـلَ: وَمَـا هِـيَ يَـا رَسُـولَ اللـهِ؟ قَـالَ: «التَّكْبِيـرُ، وَالتَّهْلِيـلُ، وَالتَّسْـبِيحُ، وَالتَّحْمِيـدُ، وَلَا حَـوْلَ وَلَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللـهِ»، وَالْمُـرَادُ بِالْمِلَّـةِ: مَـا شَرَعَ اللـهُ لِعِبَـادِهِ عَـلَى أَلْسِـنَةِ الْأَنْبِيَـاءِ - عَلَيْهِـمِ الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ -، فَالْمُـرَادُ هَاهُنَـا بَيَـانُ أَنَّ هَـذِهِ الْكَلِـمَاتِ كَأَنَّهَـا تَمَـامُ الدِّيـنِ.

وَكَانَ ابْـنُ عُمَـرَ يَقُـولُ لِجُلَسَـائِهِ وَهُـوَ فِي الْحَـجِّ: «مَـا لَكُـمْ لَا تُحَدِّثُـونَ! أَلَا تَقُولُـونَ سُـبْحَانَ اللـهِ وَالْحَمْـدُ للـهِ وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ وَاللـهُ أَكْـبَرُ وَلَا حَـوْلَ وَلَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللـهِ، الْحَسَـنَةُ بِعَـشْرِ أَمْثَالِهَـا إِلَى سَـبْعُمَائَةِ ضِعْـفٍ، فَـإِنْ زِدْتُـمْ خَـيْرًا زَادَكُـمُ اللـهُ». [أَخْرَجَـهُ ابْـنُ أَبِي شَـيْبَةَ فِي مُصَنَّفِـهِ] بسـند صحيـح.

إِنَّ قَـوْلَ لَا حَـوْلَ وَلَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللَّـهِ يُبَاعِـدُ بَـيْنَ الْإِنْسَـانِ وَبَـيْنَ الْعُجْـبِ وَالْكِـبْرِ، وَيَجْلُـو الْقَلْـبَ، يُطَمْـئِنُ النَّفْـسَ وَيُهَذِّبُهَـا، وَيُدَمِّـرُ الشَّـيْطَانَ وَيَـرُدُّ كَيْـدَهُ، يُكَفِّـرُ اللـهُ بِـهِ السَّـيِّئَاتِ، وَيُعْظِّـمُ بِـهِ الدَّرَجَـاتِ.

وَهِـيَ مِـنْ أَفْضَـلِ أَنْـوَاعِ الذِّكْـرِ وَأَيْسَـرِهِ: دَخَـلَ رَسُـولُ اللَّـهِ - صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ - عَـلَى امْـرَأَةٍ وَبَـيْنَ يَدَيْهَـا نَـوًى أَوْ حَـصًى تُسَـبِّحُ بِـهِ، فَقَـالَ: «أُخْـبِرُكِ بِمَـا هُـوَ مِـنْ هَـذَا أَفْضَـلُ؟ قُـولِي: سُـبْحَانَ اللَّـهِ عَـدَدَ مَـا خَلَـقَ فِي السَّـمَاءِ، وَسُـبْحَانَ اللَّـهِ عَـدَدَ مَـا خَلَـقَ فِي الْأَرْضِ، وَسُـبْحَانَ اللَّـهِ عَـدَدَ مَـا بَـيْنَ ذَلِـكَ، وَسُـبْحَانَ اللَّـهِ عَـدَدَ مَـا هُـوَ خَالِـقٌ، وَاللـهُ أَكْـبَرُ مِثْـلَ ذَلِـكَ، وَالْحَمْـدُ للَّـهِ مِثْـلَ ذَلِـكَ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ، مِثْـلَ ذَلِـكَ، وَلَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللَّـهِ مِثْـلَ ذَلِـكَ». [أَخْرَجَـهُ الضِّيَـاءُ بِسَـنَدٍ حَسَـنٍ]. فَانْظُـرْ إِلَى هَـذَا الْأَجْـرِ الْعَظِيـمِ، فَـلَا يَقْـوَى أَحَـدٌ فِي بَدَنِـهِ، وَلَا فِي مِلْـكِ يَـدِهِ إِلَّا بِاللـهِ تَعَـالَى.

وَبِهَا دَفْعُ الْكَرْبِ: لأن مَعْنَي «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه»، أَيْ: «لَا تَحَوُّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَّا بِقُوَّةِ اللهِ»؛ فَإِنَّ الْمَكْرُوبَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهَذَا الذِّكْرِ الْعَظِيمِ لِيُبَدِّلَ اللهُ حَالَهُ مِنَ الْكَرْبِ إِلَى الْفَرَجِ، وَمِنَ الْحُزْنِ إِلَى الْفَرَحِ».

وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ الْكَلَامِ، وَبِهَا يُفْتَتَحُ الدُّعَاءُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، واللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحَمْدُ، وَلَهُ الْمُلْكُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ». [رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ].

وَتُقَالُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّعَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ الحسن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وَلِلْحَوْقَلَةِ صِيَغٌ وَأَلْفَاظٌ وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ الصحيحة:

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه»

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ».

المبحث العاشر: ذكر الله (٣٧)

الذكر كما عرفه العلماء: هو ما يجري على اللسان والقلب، من تسبيح الله تعالى وتنزيهه، والثناء عليه ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال.

قال الله تعالى: {فاذكروني أذكركم} [البقرة: ١٥٢].

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت» رواه البخاري.

وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره. وأخرج البخاري تعليقا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، إذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس له».

أولا: فوائد الذكر:

جاء في «الوابل الصيب» لابن القيم رحمه الله ما مختصره :

١ - أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

٢- أنه يرضي الرحمن عز وجل.

٣ - أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

٤ - أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

٥ - أنه يقوي القلب والبدن.

٦ - أنه ينور الوجه والقلب.

٧ - أنه يجلب الرزق.

٨ - أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٩ - أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة.

١٠ - أنه يورثه المراقبة حتى يدخل في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه.

١١ - أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل.

١٢ - أنه يورثه القرب منه سبحانه.

١٣ - أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

١٤ - أنه يورث الهيبة لربه عز وجل، وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه، وحضوره مع الله تعالى.

١٥ - أنه يورث ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى: {فاذكروني أذكركم} [البقرة: ١٥٢].

١٦ - أنه يورث حياة القلب.

١٧ - أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

١٨ - أنه يورث جلاء القلب من صدئه، وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب. وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر.

١٩ - أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

٢٠ - أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى.

٢١ - أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة.

٢٢ - أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة.

٢٣ - أنه ينجي من عذاب الله تعالى.

٢٤ - أنه سبب لتنزيل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر.

٢٥ - أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل واللغو.

٢٦ - أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين.

٢٧ - أنه يسعد الذاكر بذكره ويسعد به جليسه.

٢٨ - أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة.

٢٩ - أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى يوم الحر الأكبر في ظل عرشه.

٣٠، ٣١ - أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها.

٣٢ - أن العطاء والفضل الذي رتب عليه ما لم يرتب على غيره من الأعمال.

٣٣ - أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه، الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده. قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئكهم الفاسقون} [الحشر: ١٩].

٣٤ - أن الذكر يسير العبد وهو في فراشه وفي سوقه، وفي حالتي صحته وسقمه، وفي حالتي نعيمه ولذته.

٣٥ - أن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط.

٣٦ - أن الذكر رأس الأصول، وطريق عامة الطائفة، ومنشور الولاية، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل.

٣٧ - أن في القلب خلة وفاقة لا يسدها شيء البتة إلا ذكر الله عز وجل.

٣٨ - أن الذكر يجمع المتفرق (من القلب والإرادة، والهموم) ويفرق المجتمع (من الذنوب وجند الشيطان).

٣٩ - أن الذكر ينبه القلب من نومه ويوقظه من سنته، وهو أيضا يقرب البعيد (الآخرة) ويبعد القريب (الدنيا).

٤٠ - أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد.

٤١ - أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، فهي معية بالقرب والولاية والتوفيق.

٤٢ - أن الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله عز وجل، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل.

٤٣ - أن الذكر رأس الشكر، فما شكر الله من لم يذكره.

٤٤ - أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطبا بذكره.

٤٥ - أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى.

٤٦ - أن الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه.

٤٧ - أن الذكر أصل موالاته عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها.

٤٨ - أنه ما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى.

٤٩ - أن الذكر يوجب صلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر {هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور} [الأحزاب: ٤٣].

٥٠ - أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليستوطن مجالس الذكر.

٥١ - أن مجالس الذكر مجالس الملائكة.

٥٢ - أن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته.

٥٣ - أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك.

٥٤ - أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى.

٥٥ - أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرا لله عز وجل، فأفضل الصوام أكثرهم ذكرا لله تعالى في صومه.

٥٦ - أن إدامته تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية أو مالية أو بدنية مالية كحج التطوع.

٥٧ - أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه، ويلذذها، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل.

٥٨ - أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق.

٥٩ - أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن.

٦٠ - أن عمال الآخرة في مضمار السباق، والذاكرين هم أسبقهم في ذلك المضمار.

٦١ - أن الذكر يعطي للذاكرة قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه.

٦٢ - أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده.

٦٣ - أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء.

٦٤ - أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم.

٦٥ - أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب.

٦٦ - أن الجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها، قال مجاهد: إن الجبل ينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل؟ فمن قائل: لا، ومن قائل: نعم.

٦٧ - أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق، قال عز وجل في المنافقين: {ولا يذكرون الله إلا قليلا} [النساء: ١٤٢].

٦٨ - أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء، ولهذا سميت مجالس الذكر: رياض الجنة.

٦٩ - أنه يكسو الوجه نضرة في الدنيا ونورا في الآخرة.

٧٠ - أن في دوام الذكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثيرا لشهود العبد يوم القيامة، قال تعالى: {يومئذ تحدث أخبارها} [الزلزلة: ٤].

٧١ - الذكر ثناء على الله، والدعاء سؤال حاجة، فالذكر أفضل من الدعاء.

٧٢ - الذكر والثناء يجعل الدعاء مستجابا.

٧٣ - قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر لكل منهما مجردا، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة.

انتهى من «الوابل الصيب».

منزلة الذكر وأقسامه

جاء في «مدارج السالكين» لابن القيم أيضا رحمه الله ما مختصره:

ومن منازل {إياك نعبد وإياك نستعين} منزلة «الذكر»

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائما يترددون.

و «الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا، وعمارة ديارهم، التي إذا تعطلت عنه صارت بورا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب [الحريق]، ودواء أسقامهم الذي متى

فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانا فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء، فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل، فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورا. وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة.

و «الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم [مأمورون] بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياما، وقعودا، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقه، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاث أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم ... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟! فيقال: قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

المبحث الحادي عشر: أذكار الصباح والمساء (٣٨)

١. أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

٢. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

٣. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِن شَرِّ مَا خَلَقَ* وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ* وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

٤. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ* مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ* مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ (ثلاثَ مرَّاتٍ).

٥. ((أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ للَّه، وَالْحَمْدُ للَّه، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ وَخَيرَ مَا بَعْدَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبرْ)). [وإذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك للَّه] [وإذا أمسى قال: رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة، وشر ما بعدها.]

٦. ((اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ)). [وإذا أمسى قال: اللَّهم بك أمسينا، وبك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير].

٧. ((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ)).

٨. ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ، وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَمَلاَئِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ، أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ)) (أربعَ مَرَّاتٍ). [وإذا أمسى قال: اللَّهم إني أمسيت...]

٩. ((اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ)). [وإذا أمسى قال: اللَّهم ما أمسى بي...]

١٠. ((اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ)) (ثلاثَ مرَّاتٍ).

١١. ((حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)) (سَبْعَ مَرّاتٍ).

١٢. ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ: فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي، وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَينِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي)).

١٣. ((اللَّهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرَكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ)).

١٤. ((بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) (ثلاثَ مرَّاتٍ).

١٥. ((رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نَبِيّاً)) (ثلاثَ مرَّاتٍ).

١٦. ((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)).

١٧. ((أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ:فَتْحَهُ، وَنَصْرَهُ، وَنورَهُ، وَبَرَكَتَهُ، وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ)). [وإذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك للَّه ربّ العالمين اللَّهم إني أسألك خير هذه الليلة: فتحها، ونصرها، ونورها، وبركتها، وهداها، وأعوذ بك من شر ما فيها، وشر ما بعدها.]

١٨. ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلاَمِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلاَصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)). [وإذا أمسى قال: أمسينا على فطرة الإسلام...]

١٩. ((سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)) (مائة مرَّةٍ).

٢٠. ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) (عشرَ مرَّاتٍ) ، أَوْ (مرَّةً واحدةً عندَ الكَسَلِ).

٢١. ((لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) (مائةَ مرَّةٍ إذا أصبحَ).

٢٢. ((سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)) (ثلاثَ مرَّاتٍ إذا أصبحَ).

٢٣. ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً)) (إذا أصبحَ).

٢٤. ((أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)) (مائةَ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ).

٢٥. ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)) (ثلاثَ مرَّاتٍ إذا أمسى).

٢٦. ((اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ)) (عشرَ مرَّاتٍ).

الفصل السادس: الصلاة

المبحث الأول: فضل الصلاة والمحافظة عليها

المبحث الثاني: مقالات من كتاب مفاتح إقامة الصلاة

المبحث الثالث: حفظ مقاصد الصلاة (لماذا أصلي؟)

المبحث الرابع: سر الصلاة الإقبال على الله

المبحث الخامس: قيام الليل لذة الروح ومتعة الحياة.. هل من طموح؟

المبحث الأول: فضل الصلاة والمحافظة عليها (٣٩)

قال الله تعالى: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين} [البقرة: ٤٣].

ومن أفضل ما جاء في فضل الصلاة والمحافظة عليها الأحاديث التالية:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا». متفق عليه.

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره فأنزل الله تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات} [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». متفق عليه.

والمعنى كما جاء في تفسير ابن كثير: «إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة».

٣ - عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله» رواه مسلم.

٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة». رواه مسلم.

٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح، وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل منها ما انتقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر أعماله على هذا». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٦ - عن أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير الفريضة إلا بنى له بيتا في الجنة، أو: إلا بني له بيت في الجنة». رواه مسلم.

وفي رواية الترمذي «أربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعدالمغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الفجر». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح [وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي].

٧ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة». متفق عليه. الفذ: يعني الواحد.

٨ - عن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاة المكتوبة، ولكن سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن». رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن، وهو كما قال. انظر «صحيح الجامع».

جاء في «مختصر منهاج القاصدين» ما مختصره:

واعلم: أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة؛ لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود؛ فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، وقال الله تعالى: {لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم} [الحج: ٣٧]. والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ؛ لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

المعنى الأول: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

والمعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضرا مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين الاستكانة، والخشوع.

ومن ذلك الرجاء: فإنه زائد على الخوف، فكم من معظم ملكا يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره.

والمصلي ينبغي أن يكون راجيا بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر.

وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه.

وإذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذبن قلبك لسانك، لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هي ملجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغوا، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: {الحمد لله رب العالمين}، واستحضر لطفه عند قولك: {الرحمن الرحيم}، وعظمته عند قولك: {مالك يوم الدين}، وكذلك في جميع ما تتلو.

وقد روينا عن زرارة بن أبي أوفى رضي الله عنه أنه قرأ في صلاته: {فإذا نقر في الناقور} [المدثر: ٨] فخر ميتا، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف.

واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذل، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون.

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده، انتهى من «مختصر منهاج القاصدين».

المبحث الثاني: مقالات من كتاب مفاتح إقامة الصلاة (٤٠)

أولا: صلاة جوف الليل وصلاة الفجر

إن الصلاة في جوف الليل الآخر لا يعدلها أي صلاة، إنها الوقود لصحة القلب وحياته، فهي المنطلق والأساس في كل ما يقال في تزكية القلب وتحقيق النجاح في الحياة، بدونها يصبح القلب ضعيفا لا يمكنه القيام بما أنيط به من واجبات عظام ومهام ثقال.

إن ترك الصلاة في جوف الليل هو من أعظم الأسباب فيما أصاب الناس من وهن وضعف وانحراف، لماذا؟ لأنهم بهذا أضعفوا قلوبهم وتبعها كل ضعف.

إن قناعة الناس وإيمانهم بأهمية هذا العلاج ضعيفة لذلك يحصل التهاون به حتى من بعض طلاب العلم والدعاة والصالحين.

إن هذا العلاج يستحق مهما أخذ من وقت ومهما كان صعبا مادام الثمن قوة القلب، قوة الإرادة وشرح الصدر واستثمار أعلى للوقت والحياة.

الصلاة في جوف الليل سر من أسرار الحياة، سهل ميسر بعون الله، فاستفد منه قبل فوات الأوان.

جوف الليل الآخر من أهم أوقات الصلاة لذلك فإن الشيطان يحرص أشد الحرص على تفويت هذه الفرصة كل ليلة على الإنسان ليتمكن منه وينتصر عليه كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حين قال : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد <رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة>، وقال عن رجل نام حتى أصبح : ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه <رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود> ، فاحذر أن يبول الشيطان في أذنيك ويتسلط على قلبك ويزعجك بأنواع الوساوس، بل احرص كل الحرص على الاستيقاظ قبل الفجر والوضوء والصلاة لتحصل بإذن الله على قوة قلبك وتنتصر على الشيطان ولا ينتصر عليك فيؤذيك خلال يومك وليلتك، أنت في معركة فاحذر أن تنسى ذلك وتضع سلاحك وتترك الجهاد فتهزم وتخسر.

إن من أسوأ العادات التي ابتلي بها مجتمعنا اليوم عادة السهر بعد صلاة العشاء والتأخر في النوم إلى منتصف الليل أو قريبا من الفجر ثم النوم وتضييع أهم وأثمن وأغلى موارد قوة القلب والنفس، ومع وضوح الأدلة وكثرتها في هذه المسألة وقوتها إلا أنك ترى الكثير غير مستعد لتغيير هذه العادة والالتزام بالنوم المبكر والاستيقاظ قبل الفجر والصلاة في جوف الليل ، وهذا شيء عجيب تقول له هذا هو العلاج ، وهو يعاني من المرض ويتألم ثم لا تمتد يده لأخذ العلاج ؟

والمشاهد في واقعنا اليوم أن هذه العادة لم يقتصر ضررها على ترك صلاة آخر الليل فحسب بل امتد إلى ترك صلاة الفجر أو التثاقل عنها ، حتى إن صلاة الفجر اليوم أصبحت لا تختلف من حيث المقدار عن صلاة المغرب بينما السنة معلومة في هذه المسألة ، وبالمقارنة بين صلاة الفجر في مجتمعنا اليوم وقبله بعشرات السنوات نجد انحدارا تدريجيا في تخفيفها وقلة من يصليها ، وصاحب هذا النقص في صلاة الفجر زيادة المشكلات في المجتمع وحصول الوهن والضعف في النفوس حتى إن معدلات

الإنجاز عند كافة شرائح المجتمع أصبحت مقلقة سواء في ذلك الطالب أو المعلم أو الموظف أو الطبيب أو المهندس أو العامل.

لو صلى الناس اليوم صلاة الفجر كما كان يصليها النبي صلى الله عليه وسلم فإني على يقين بإذن الله تعالى أن واقعنا سيتغير إلى الأفضل والأحسن، ويختفي كثير من مظاهر الفشل والنقص شيئا بعد شيء، فإن الخير يجذب بعضه بعضا، والشر كذلك يجر بعضه بعضا، فالإنسان إما في صعود أو هبوط لا يمكنه التوقف أبدا هذه سنة الحياة.

ثانيا: الصلاة أعلى استثمار لرمضان وليلة القدر

إن المتأمل في هدي النبي صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا يجد أن الصلاة هي أهم ما يميز به الأوقات الفاضلة وفرص العمر الثمينة كرمضان عامة والعشر الأواخر وفيها ليلة القدر خاصة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة) ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله (رواه البخاري ومسلم عن عائشة) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلط العشرين بصلاة ونوم فإذا كان العشر شمر وشد المئزر (رواه أحمد عن عائشة) ،هذا أهم عمل يختص به رمضان وتستغل به ليلة القدر ، إنه الاجتهاد في الصلاة معظم الليل .

ونلاحظ أيضا أنه في هذا الشهر العظيم والموسم المبارك شرع صيام النهار ومن أهم مقاصد هذا الصيام أن يكون معينا على صلاة الليل بتهيئة القلب لتلقي العلم والإيمان، ومحققا لصحة البدن لينشط في هذه الصلاة المباركة، وفي العشر الأواخر من رمضان سن النبي صلى الله عليه وسلم لأمته الاعتكاف ليكون معينا على ذكر الله وكثرة الصلاة التي تقرب إلى الله عز وجل وتزيد الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثالثا: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي

مما لا شك فيه ولا ريب أن الصلاة هي العلاج الجذري والمنهجي لما يشكو منه كثير من المربين والمصلحين مما وقع في صفوف الشباب والفتيات وهو ما يعرف بالعشق أو التعلق، وهو أنواع وألوان، وهو مراتب ودرجات فمنه القوي المستحكم ومنه السطحي الطفيف، ومنه الشامل المستغرق ومنه ما يكون في أمر واحد دون غيره من الأمور.

ومن يقرأ كتاب الجواب الكافي لابن القيم يراه يشخص ما ابتلي به الشباب والفتيات اليوم، وقد أطال ابن القيم في معالجة القضية وتحليلها وأجاد في ذلك إلا أن عين الدواء ربما اختفى في ثنايا كلامه ولم يستطع القارئ فقهه وفهمه.

والخلاصة والاختصار لمن سأل عن الجواب الكافي والدواء الشافي لعلاج هذه المعضلة التي تسيطر على القلب وتفسد السلوك وتوقع المبتلى بإحراجات ونقائص متعاقبة هو: الصلاة بمفاتيحها ، والتدريب على تطبيقها بشكل عملي متكامل، إنه علاج عملي واضح ويقع على موضع الداء تماما وبعون الله يقتلعه من القلب والنفس ويحصل الشفاء والتنعم بالحرية والتخلص من عبودية التعلق.

إن عبودية العشق تحصل حين يفرغ القلب من عبودية الله، والصلاة بمفاتيحها إذا طبقت بشكل صحيح متكامل تزرع عبودية الله في القلب وتنمو يوما بعد يوم حتى يحصل الارتقاء والصعود في سلم الكمالات ومراتب المعالي.

أصل هذا المرض وسببه الأكبر ضعف الإيمان وفراغ القلب من ذكر الله ، ثم إطلاق البصر وملاحقة الصور دون مراقبة أو مجاهدة أو محاسبة ، فتجد الشباب أو الفتيات يطلقون أبصارهم دون الشعور بأي حرج فيبدأ المرض ثم يزيد بالتدريج إلى أن يستحكم ويتغلغل فيسيطر على القلب ويأسره، وفي هذه المرحلة تتنوع الحالات فالكثير منهم يحصل عنده التعلق بصورة واحدة تسيطر عليه وتسد عليه الأفق فلا يرى غيرها ، وفي حالات أخرى يحصل التنقل من صورة إلى صورة بين كل فترة وأخرى ، وفي كل الحالات العلاج بإذن الله سهل ميسر حين يعالج بالصلاة ، بالتعليم والتوجيه والترغيب والتدريب إلى أن يتماثل الشخص للشفاء ويحس بالعافية وبعدها يمكنه متابعة نفسه بمفرده مع التأكيد عليه بألا يفرط بالعلاج أو يهمله حين يرى الشفاء ويحس بالعافية فينتكس مرة أخرى.

الصلاة هي المعين الأول لمن لم يستطع الباءة أي الزواج، والصوم وجاء أي قاطع لما يتبقى من دواعي الشهوة، وقاطع لوساوس الشيطان.

فالصوم لا يكون وجاء حتى تكون قبله الصلاة وعلى الوجه الصحيح، فالصوم والصلاة قرينان لمن أراد تزكية قلبه وإعفاف نفسه، وحينما نقول الصلاة فينبغي أن نعلم معنى الصلاة وتعريفها العملي أنها ما تضمنت المفاتيح الثلاثة عشر.

رابعا: الصلاة حصن المسلم

حين طرد الشيطان من الجنة أقسم بعزة الله تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (ص: ٨٢ - ٨٣) ،لماذا استثنى المخلصين ؟ الجواب معلوم: أنه لا يقدر عليهم وليس له عليهم سلطان كما أخبر الله بذلك: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) (الإسراء: ٦٥) ، والصلاة القائمة تحقق الإخلاص الذي يحفظ ويحصن العبد من الشيطان، تسلط الشيطان يعني نقص إخلاص العبودية لله ، والصلاة تحقق إخلاص العبودية لله رب العالمين ، إذا الصلاة حرز وسياج قوي يحفظ ويحمي العبد من كيد الشيطان ، هذا هو التشخيص ، وهذه هي المعادلة في هذه القضية .

لا يوجد في هذه الحياة مضاد لسلطان الشيطان على النفس، ومبيد لوساوسه في القلب مثل الصلاة.

إن الصلاة متى أديت بالكيفية الصحيحة والكمية الكافية فإن الشيطان لا يجد له إلى القلب سبيلا ولا يكون له سلطان على النفس أبدا.

هـذا هـو عـلاج النفـس وشـفاء القلـب وهـو بـين يديـك فـإن شـئت فاجتهـد فيـه تحصـل عـلى الحصانـة والمناعـة، وإن فرطـت وقـصرت في المجاهـدة والتدريـب فاعلـم مـن أيـن أتيـت ومـا سـبب ضعفـك ومصـدر بلائـك، ومتـى تعبـت مـن حالـك وأغلقـت في وجهـك الأبـواب فتذكـر هـذا العـلاج وعليـك بـه يشـفك اللـه مـن كل داء.

هـذه كلـمات موجـزة في هـذه القضيـة الكبـيرة مـن قضايـا الحيـاة توضـح لـك أبعـاد القضيـة وتجيبـك عـلى كل أسـئلتها، وتجمـع لـك أطرافهـا، فمـن علـم غنـم، ومـن جاهـد سـلم.

خامسا: الصلاة والنصر

الصـلاة هـي وسـيلة النـصر، أعنـي الصـلاة التـي تحقـق التوحيـد وإخـلاص العبوديـة للـه رب العالمـين، فالنـصر يتنـزل عـلى المخلصـين.

هـذه الصـلاة هـي أمـضى سـلاح في هـذه الحيـاة، وكل سـلاح عداهـا فـلا يعـد شـيئا في مقابلهـا، إننـا قبـل أن نفكـر أو نشـتغل بالأسـلحة الماديـة يجـب أن نخطـط ونسـعى جاهديـن إلى زرع هـذا السـلاح في نفـوس أفرادنـا فـردا فـردا، فمتـى تحقـق ذلـك فـإن النـصر معـه بـإذن اللـه، فالنـصر مـع الصـبر، والصـبر مـن أعظـم ثمـار الصـلاة.

الصـلاة هـي سـلاح القـوة للفـرد والأسرة والمجتمـع والدولـة، فـأي فـرد أو أسرة أو أمـة حقـق أفرادهـا الصـلاة نـصرت وسـادت، هـذا وعـد اللـه المؤكـد وليـس مـن عنـدي، والتاريـخ خـير شـاهد عـلى هـذه الحقيقـة الربانيـة، والوعـد الإلهـي.

إن الصـلاة هـي السـلاح الـذي يجـب أن يسـعى المسـلمون إلى التسـلح بـه، وهـي السـلاح الـذي يرهـب الأعـداء ويقـذف في قلوبهـم الرعـب فـلا تنفعهـم أسـلحتهم شـيئا (وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِـمُ ٱلرُّعْـبَ) (الأحزاب: ٢٦).

لقـد وعـد اللـه عبـاده المخلصـين بالنـصر والتمكـين فقـال : (وَعَـدَ ٱللَّـهُ ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـواْ مِنكُـم وَعَمِلُـواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسـتَخلِفَنَّهُم فِي ٱلأَرضِ كَـمَا ٱسـتَخلَفَ ٱلَّذِيـنَ مِـن قَبلِهِـم وَلَيُمَكِّنَـنَّ لَهُـم دِينَهُـمُ ٱلَّـذِي ٱرتَـضَىٰ لَهُـم وَلَيُبَدِّلَنَّهُـم مِّـن بَعـدِ خَوفِهِـم أَمنًـا يَعبُدُونَنِـي لَا يُشرِكُـونَ بِي شَيـًٔا) (النـور: ٥٥)،هـذا هـو الـشرط وهـذا هـو الجـزاء ، فالمعادلـة واضحـة وقاطعـة ، والوعـد مـن العليـم القديـر أكيـد مضمـون ، لكـن يبقـى العمـل ومـن يحقـق الـشرط المطلـوب وهـو إخـلاص العبوديـة للـه وحـده لا شريـك لـه، والصـلاة هـي الوسـيلة إلى إخـلاص العبوديـة للـه رب العالمـين ، فمتـى كانـت الصـلاة صـلاة فـإن إخـلاص العبوديـة للـه حاصـل معهـا ولا بـد والنـصر جـزاء المخلصـين.

لم تكـن كـثرة العـدد وقـوة السـلاح يومـا مـا هـي المعيـار الفاصـل في القـوة بـل القاعـدة في هـذا الأمـر: (كَـم مِّـن فِئَـةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَـت فِئَـةً كَثِـيرَةً بِـإِذنِ ٱللَّـهِ) (البقـرة: ٢٤٩)، (إِن يَنصُرۡكُـمُ ٱللَّـهُ فَـلَا غَالِـبَ لَكُـم) (آل عمـران: ١٦٠)، (مَـن كَانَ يُرِيـدُ ٱلعِـزَّةَ فَلِلَّـهِ ٱلعِـزَّةُ جَمِيعًـا) (فاطـر: ١٠)، (وَلِلَّـهِ ٱلعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلمُؤمِنِـينَ وَلَٰكِـنَّ ٱلمُنَٰفِقِـينَ لَا يَعلَمُـونَ) (المنافقـون: ٨)، (وَكَانَ حَقًّـا عَلَينَـا نَـصرُ ٱلمُؤمِنِـينَ) (الـروم: ٤٧).

لقـد كان النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم يلجـأ إلى هـذه الصـلاة في شـدائد الحيـاة كلهـا ومـن أشـدها حـين

ملاقاة الأعداء، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال ثم جئت مسرعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنظر ما فعل ، فجئت فإذا هو ساجد يقول : (يا حي يا قيوم) لا يزيد على ذلك ، ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك ، ثم ذهبت إلى القتال ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك ، ثم ذهبت إلى القتال ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك ، ففتح الله عليه <تعظيم قدر الصلاة ٣٤٣/١>، وفي حديث حذيفة في غزوة الخندق ذكر فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان طول الليل يصلي < مسند أحمد> ، وكان هذا دأبه صلى الله عليه وسلم في كل غزواته فكانت الصلاة هي السلاح الذي يستنزل به النصر من ربه و يستدفع به شر أعدائه ومكائدهم، فكان الله ينجيه ويحفظه في كل مرة ، وهذا العون والمدد حاصل لكل من تأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم وسلك طريقه واستن بسنته.

من كان كذلك فهو القائد الذي تنصر أمته، والمربي الذي يصلح مجتمعه، والإداري الذي ينجز أهدافه، أما من تكبر وأعرض أو أهمل وتكاسل فليس له من هذا النصر نصيب.

سادسا: الصلاة والرزق

قد ربط الله تعالى الرزق بالصلاة في أكثر من آية في كتابه الكريم ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا خَلَقتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعبُدُونِ . مَآ أُرِيدُ مِنهُم مِّن رِّزقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطعِمُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلقُوَّةِ ٱلمَتِينُ) (الذاريات: ٥٦ - ٥٨)، وقوله تعالى: (وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ) (طه: ١٣٢)، أي جاهد نفسك على فعلها وإتقانها وإحسانها وكثرتها ولا تضع وقتك وحياتك في البحث عن الرزق وتأمين المستقبل، فالله لم يخلقك لتتعب وتشقى في طلب رزقك فقد كفله لك حين تصطبر على الصلاة، فمتى رعيت هذه الصلاة وقمت بها كما يجب فإن رزقك مكفول يأتيك وأنت في محرابك (فَنَادَتهُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلمِحرَابِ) (آل عمران: ٣٩)، (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا ٱلمِحرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزقٗا) (آل عمران: ٣٧)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا <رواه الترمذي وصححه عن عمر بن الخطاب> ،المؤكدات لهذه القضية واضحة ساطعة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، الكثير من الناس لم يثق بربه وبوعده فاشتغل بما ضمنه له عما أمره به فوكله الله إلى نفسه فتعب وشقي وأضاع الاثنين فلم يحفظ صلاته ، ولم يأته من رزقه إلا ما كتب له.

إن ارتباط الصلاة والعبودية بالرزق في آيات القرآن عجيب ودقيق كلها تؤكد هذا المعنى.

ولا يفهم من هذا الكلام الدعوة إلى البطالة وترك السعي في مناكب الأرض بحثا عن الرزق، إنما هي أولويات، فالصلاة أولا، ولها الصدارة في احترام مواعيدها ومنحها الوقت الكافي فرضا ونفلا، ثم بعد ذلك في الوقت متسع لطلب الرزق كما (إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبحٗا طَوِيلٗا) (المزمل: ٧).

والمقصود أن الصلاة تثبت في القلب الإيمان والتوكل واليقين الذي هو أعظم أسباب الرزق، وهو باب الخيرات والبركات (وَأَلَّوِ ٱستَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسقَينَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا) (الجن: ١٦)، (فَقُلتُ ٱستَغفِرُواْ رَبَّكُم إِنَّهُ كَانَ غَفَّارٗا . يُرسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيكُم مِّدرَارٗا . وَيُمدِدكُم بِأَموَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَّكُم جَنَّٰتٖ وَيَجعَل لَّكُم أَنهَٰرٗا) (نوح: ١٠ - ١٢).

سابعا: التربية هي الصلاة

التربية هي الصلاة، هذا باختصار هو التعريف العملي للتربية وبيان حدودها، وكل ما عدا ذلك من أمور التربية فهي أمور فرعية تأتي تبعا لهذا الأصل العظيم الذي يصنع روح الإنسان، ويربي نفسه تربية يسهل معها كل تربية ، ويمكن معها غرس كل فضيلة واقتلاع كل رذيلة بيسر وسهولة.

أما من يفقد التربية على الصلاة فيصعب ملاحقة مفردات سلوكه وتعديل أخلاقه وتصرفاته.

إن التربية على الصلاة تزرع في النفس القوة الموجهة للذات التي تقودها إلى المكرمات وتذودها عن السفاسف والدناءات .

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكفى بهذا البيان من رب العالمين تأصيلا وتأكيدا لما أريد إثباته في هذا المقال.

نعم التربية هي الصلاة، لكن البعض قد يجهل كيفية التربية بالصلاة، والبعض ربما ينقص فقهه وفهمه لهذه القضية فيرى أن الصلاة مجرد عبادة من العبادات تؤدى حسب تعليمات معينة وانتهى الأمر.

والصواب هو ما تم تقريره وتوضيحه في مسائل هذا الكتاب، نسأل الله بمنه وفضله أن يهدينا إلى سواء الصراط.

التربية على الصلاة يكون بأمرين:

الأول: لماذا أصلي؟ وهو المفتاح الأول، ويمثل جانبه التطبيقي معجم مقاصد الصلاة.

الثاني: كيف أصلي؟ وهو بقية المفاتيح.

ولا يصح في التربية الفصل بين القرآن والصلاة، فيكون حفظ القرآن في جهة، والصلاة في جهة كما يفعله بعض المربين في الحلقات، بل هما لحمة واحدة، كتلة واحدة، سبيكة واحدة ، إن التربية يجب أن تسير على الاثنين معا وفي مسبك واحد كما تم بيانه في هذا الكتاب وكتاب الحفظ التربوي للقرآن.

وأما اقتصار بعض الحلقات على تحفيظ القرآن دون التربية على الصلاة، أو عدم إعطائها ما تستحق، أو الفصل بينهما، فهذه أخطاء تربوية تحتاج إلى تصحيح.

كتاب «مفاتح إقامة الصلاة وإخلاص العبودية لله»

د. خالد عبد الكريم اللاحم

المبحث الثالث: حفظ مقاصد الصلاة (لماذا أصلي؟) (٤١)

إن استحضار مقاصد الصلاة وحضورها في القلب بصورة صحيحة وعميقة من أهم ما يفتح للعبد تعظيم الصلاة ويجعله يعرف علو شأنها ورفيع قدرها، وعظيم خطرها، وشرف مكانتها، والعلم بمقاصد الصلاة من أهم الأسباب الجالبة لحب الصلاة وقوة الرغبة في الإكثار منها وتطويلها والتلذذ بها ذلك أن من عرف قيمة الشيء حرص عليه ورغب فيه. إن تعظيم الصلاة ومعرفة شأنها فرع عن العلم بمقاصدها وقوة اليقين بمعانيها، فقوة الإيمان بالصلاة هي أول وأولى لبنة يتم بناؤها في تربية الإنسان وصناعته.

إن الحفظ التربوي لمقاصد الصلاة ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى جهاد ومكابدة حتى يتمكن العبد من ربطه وعقله في قلبه وتثبيته في فؤاده وحينها يكون هدي إلى الصراط المستقيم وسار على الدرب القويم.

إن تعلم وتعليم مقاصد الصلاة لهو من أهم الواجبات وأول المفروضات لأنه به يستقيم عمود الدين ويحصل به السير على الصراط المستقيم.

ومع هذا الحفظ وقبله وبعده لا بد من كثرة الدعاء بأن يجعل الله الصلاة قرة عينك وأن يشرح لها صدرك، أي دوام التضرع بأن ييسر الله لك هذه الصلاة وأن يجعل لك منها أوفر الحظ والنصيب، فكان من دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠)، فادع الله ليلا ونهارا سرا وجهارا أن يجعلك وذريتك من مقيمي الصلاة، لا يهدأ لك بال، ولا تقر لك عين حتى تكون الصلاة قرة عينك وذريتك وإخوانك المسلمين.

ينظر بعض الناس إلى الصلاة على أنها واجب يؤديه ، أو قربة من القرب وطريقا من طرق كسب الثواب، وزيادة الحسنات فحسب، ومن كانت هذه نظرته للصلاة فإنه لم يقدر الصلاة حق قدرها ولم يفقه سر مشروعيتها؛ فرضا ونفلا، ولم يتبين له سبب حرص النبي صلى الله عليه وسلم الشديد عليها، و من خلال عرض مقاصد الصلاة نعلم أن الصلاة هي التوحيد، هي الإيمان، هي العلم، هي الدين، هي منبع القوة، ومصدر الطاقة الذي يمد القلب والنفس بالحياة، ومن ثم تسري هذه الحياة إلى بقية أعمال الإنسان، ومن أجل ذلك لا بد أن يكون لها اهتمام خاص، وتقديم دائم على سائر الأعمال، أما من نقص علمه في هذا الباب فربما اشتغل بالمفضول عن الفاضل، وترك الأهم اشتغالا بالمهم، أي أننا ربما نجد من اشتغل بالدعوة والتربية وقد أهمل نفسه في هذا الأمر فصار هو بحاجة إلى دعوة وتربية .

المقصد الأول: ذكر الله، العلم، التوحيد، الإيمان

المقصد الثاني: الدخول على الله ومناجاته

المقصد الثالث: القرآن: تدبر وتذكر، فهم وحفظ

المقصد الرابع: الدعاء: تعظيم وتضرع، ثناء وسؤال

المقصد الخامس: الشكر

المقصد السادس: الصبر

المقصد السابع: الثواب

فوائد ليست مقاصد

إن فوائد الصلاة وثمارها في الدنيا لا حصر لها، ذلك أنها تقوم بصناعة هذا الإنسان صناعة متقنة محكمة ومن ثم تتعدد وتتنوع المنافع والفوائد التي تحققها تلك الصناعة.

وأذكر بعض هذه الفوائد إجمالا وأؤكد أنها ليست مقاصد، بل هي فوائد وثمار، هي جوائز وهبات ومنافع يسوقها الله لعبده الذي شرح صدره للصلاة ويسرها له، والعبد الصالح يستعين بهذه الهبات والفوائد على طاعة الله وذكره، يستغلها ويستثمرها في الخير.

من فوائد الصلاة:

- الوقاية من الأمراض النفسية
- الشجاعة والإقدام
- النشاط والحماس
- الحلم والأناة والرفق وحسن الخلق
- سعة الرزق.
- قوة الإرادة
- إدارة الوقت بفاعلية
- توفير المال والنجاح في إدارته
- النوم المريح وتخفيض عدد ساعاته
- قوة التركيز والانتباه
- النصر في جميع الميادين.
- النجاح في الدراسة والعمل.
- السعادة وشرح الصدر
- قوة البدن وصحته

وهذه الفوائد لا ينبغي للمصلي الاشتغال بها، لأن ذلك يضعف تحقيق المقاصد ويصرف النية عن الأصل من مشروعية الصلاة، والمطلوب هو التركيز على المقاصد وتحصيل الإيمان العميق بها، مع الاجتهاد في تحقيق مفاتيح الصلاة كاملة فإنها متى تحققت تحقق ما بعدها بعون الله تبارك وتعالى.

المبحث الرابع: سر الصلاة الإقبال على الله (٤٢)

وسرُّ الصلاة وروحها ولبُّها، هو إقبال العبد على الله بكليّته فيها، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربِّه إلى غيره فيها.

بل يجعل الكعبة ـ التي هي بيت الله ـ قبلة وجهه و بدنه، و رب البيت تبارك و تعالى قبلة قلبه و روحه، و على حسب إقبال العبد على الله في صلاته، يكون إقبال الله عليه، و إذا أعرضَ أعرض الله عنه ، كما تدين تُدان.

للإقبال على الله في الصلاة ثلاث منازل

والإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل:

*إقبال العبد على قلبه فيحفظه و يصلحه من أمراض الشهوات و الوساوس ، و الخطرات المُبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها.

* والثاني: إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كانه يراه.

*والثالث: إقباله على معاني كلام الله ، و تفاصيله و عبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع و الطمأنينة و غير ذلك.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقاً، ويكون إقبال الله على المصلي بحسب ذلك.

كيف يكون الإقبال في كل جزء من أجزاء الصلاة؟

فإذا انتصب العبد قائماً بين يديه، فإقباله على قيُّومية الله وعظمته فلا يتفلت يمنة ولا يسرة.

وإذا كبَّر الله تعالى كان إقباله على كبريائه وإجلاله وعظمته.

وكان إقباله على الله في استفتاحه على تسبيحه والثناء عليه وعلى سُبُحات وجهه، وتنزيهه عمَّا لا يليق به، ويثني عليه بأوصافه وكماله.

فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، كان إقباله على ركنه الشديد، وسلطانه وانتصاره لعبده، ومنعه له منه وحفظه من عدوه.

وإذا تلى كلامه كان إقباله على معرفته في كلامه كأنه يراه و يشاهده في كلامه كما قال بعض السلف: لقد تجلّي الله لعباده في كلامه.

والناس في ذلك على أقسام ولهم في ذلك مشارب، وأذواق فمنهم البصير، والأعور، والأعمى، والأصم، والأعمش، وغير ذلك، في حال التلاوة والصلاة، فهو في هذه الحال ينبغي له أن يكون مقبلاً على ذاته وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه وأحكامه وأسمائه.

وإذا ركع كان إقباله على عظمة ربه، وإجلاله و عزه و كبريائه، و لهذا شرع له في ركوعه أن يقول: «سبحان ربي العظيم».

فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله على حمد ربه والثناء عليه وتمجيده وعبوديته له وتفرده بالعطاء والمنع.

فإذا سجد، كان إقباله على قربه، والدنو منه، والخضوع له والتذلل له، والافتقار إليه والانكسار بين يديه، والتملق له.

فإذا رفع رأسه من السجود جثا على ركبتيه، وكان إقباله على غنائه وجوده، وكرمه وشدة حاجته إليهنّ، وتضرعه بين يديه و الانكسار؛ أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه ويهديه ويرزقه.

فإذا جلس في التشهد فله حال آخر، وإقبال آخر يشبه حال الحاج في طواف الوداع، و استشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشغال الدنيا والعلائق والشواغل التي قطعه عنها الوقوف بين يدي ربه و قد ذاق قلبه التألم و العذاب بها قبل دخوله في الصلاة، فباشر قلبه روح القرب ، و نعيم الإقبال على الله تعالى ، و عافيته منها و انقطاعها عنه مدة الصلاة ، ثم استشعر قلبه عوده إليها بخروجه من حمى الصلاة ، فهو يحمل همَّ انقضاء الصلاة و فراغه منها و يقول: ليتها اتصلت بيوم اللقاء.

و يعلم أنه ينصرف من مناجاة مَن كلّ السعادة في مناجاته، إلى مناجاة من كان الأذى والهم والغم والنكد في مناجاته، و لا يشعر بهذا و هذا إلا من قلبه حي معمور بذكر الله و محبته، و الأنس به، ومن هو عالم بما في مناجاة الخلق و رؤيتهم ، ومخالطتهم من الأذى و النكد، وضيق الصدر وظلمة القلب، وفوات الحسنات، و اكتساب السيئات، وتشتيت الذهن عن مناجاة الله تعالى عز و جل .

المبحث الخامس: قيام الليل لذة الروح ومتعة الحياة.. هل من طموح؟ (٤٣)

في سكون الليل وهدوئه تصفو الروح، وترق المشاعر، وتحلو المناجاة، حين يقبل العبد على مولاه؛ قال بعض العلماء: «ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة، إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة»، والذائق لطعم المناجاة يجد الأنس والقرب في الصلاة.

ويبين أبو سليمان الداراني هذا الشعور بقوله: «أهل الليل بليلهم ألذ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، ولو لم يعط الله - تعالى - أهل الليل في ثواب صلاتهم إلا ما يجدون من اللذة فيها، لكان الذي أعطاهم أفضل من صلاتهم».

وهذه اللذة لا يشعر بها إلا من جربها؛ ففي هذا الوقت من الليل يكون الهواء أكثر نقاءً، والجو أكثر صفاءً، والنسيم العليل يملأ الدنيا بعبيره، والسكون والهدوء يغمر الكون؛ فتشعر كأنك في عالم آخر، غير عالمنا الذي نعيش فيه، وكأن الدنيا كلها تستعد وتتزين لنزول رب العزة - سبحانه وتعالى - إلى سمائنا الدنيا، في الثلث الأخير من الليل؛ فلا تضيع على نفسك هذه اللذة، ولا تلك المتعة، وسارع إلى مناجاة الله - عز وجل - ودعائه في السَّحَر؛ لتفوز بالإجابة والغفران.

كان الفُضَيْل بنُ عياض - رضي الله عنه - يقول: «إذا غربتِ الشمس، فرحتُ بالظَّلام؛ كي ينام النّاس؛ فأخْلُو بالله، عزّ وجلّ».

وعندما سُئِل الحسنُ البصريُّ - رضي الله عنه -: «لماذا المجتهدون بالليل أجملُ النَّاس وجوهاً»؟ قال: «لأنهم خَلَوْا بالرحمن؛ فألبسهم الله من نوره».

وقيام الليل ليس هدفاً لذاته، وما يفعل الله بسهر العبد؟ لكنه وسيلة إلى ذكر الله، والتبتل إليه، والتوكل عليه، وإيجاد الفرد المسلم الأمين، والمجتمع الراشد.

ولقد حبب الله - عز وجل - إلى رسوله الخلاء في غار حراء، في فترة الإعداد لتلقى الرسالة؛ لضرورة هذا الأمر للدعاة إلى الله؛ فلابد لهم من فترات يخلون فيها مع أنفسهم، ويتزودون بما يعينهم على هذا الأمر؛ فالروح تحتاج إلى خلوة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس؛ فلابد من فترة للتأمل والتدبر، والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه.

وقيام الليل عبادة تصل القلب بالله- تعالى - وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة الفانية، وعلى مجاهدة النفس، في وقت هدأت فيه الأصوات، ونامت العيون وتقلب النّوام على الفرش.

لذا؛ كان قيام الليل من مقاييس العزيمة الصادقة، وسمات النفوس الكبيرة، وقد مدح الله عباده، وميزهم عن غيرهم بقوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} [الزمر:٩].

وقيام الليل سنة مؤكَّدة، حث النبي - صلى الله عليه وسلم - على أدائها بقوله: ((عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة إلى ربكم، وتكفير للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد))؛ رواه الترمذي وأحمد.

وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل))، وقد حافظ - صلى الله عليه وسلم - على قيام الليل، ولم يتركه سفراً ولا حضراً، وقام - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد ولد آدم المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - حتى تفطّرت قدماه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))؛ متفق عليه.

حلاوة ولذة

الذين جربوا لذة قيام الليل يُؤْثرون لقاء الله على الراحة، بل ويصل بهم الحد إلى هجر المضاجع ومجافاتها؛ لأن هناك ما هو أحب وأعظم؛ يقولُ تعالىَ: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُون * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦]، أي: يخاصمون مواضع نومهم، ويُقْبلون على عبادة ربهم بقيام الليل.

وقد كان الصحابة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - يحبّون قيام الليل، ويفضّلون الموت على ترك القيام؛ فقد طلب النبي - صلى الله عليه وسلم - من عبَّادِ بنِ بِشْرٍ - رضي الله عنه - أن يتولَّى حراسة المسلمين في إحدى المعارك؛ فأخذ يقوم الليل، وأثناء حراسته جاءَ أحد الأعداء؛ فضربه بسهم وقع في كتفه؛ فأخرج السّهم، وأكمل الصلاة؛ فضربه الرجل بسهم آخر؛ وقع في كتفِه؛ فأخرجَهُ وأكْمَل صلاته؛ فضُرب بسهم ثالث؛ فأخرجه وركع وسجد وسلّم، ثم أيقظ أحد الصحابة؛ فقال له: لِمَ لَمْ توقظْني؟ فقَال له: كنتُ في ركعتين، وكنت في قراءة لسورة مِن سور القرآن، لئن أقرؤُها أحبُّ إليَّ مِنْ خروج رُوحي.

وكان هناك غلام صالح يقوم الليل كله، وعندما سئل: مَا الَّذي يدفعكَ إلى ذلك؟ قال: إذا ذُكِرَتِ النَّارُ، اشتدَّ خوفي، وإذا ذُكِرت الجنة، اشتدَّ شوقي، فلا أقدِر أنْ أنام.

الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضي الله عنه - الذي كان يقَسِّمُ الليل؛ فيقوم الثلث الأول من الليل، ثم يوقظ زوجته؛ فتقوم الثلث الثاني، ثم توقظ الأمُّ ابنتَهما؛ فتقوم الثلث الأخير، وفي الليلة التالية، تقوم الأم الثلث الأول، ثم توقظ أنساً؛ ليقوم الثلث الثاني، ثمَّ يوقظ ابنته؛ لتقوم الثلث الأخير، وهكذا كان بيت أنس يحظى بشرف قيام الليل كاملاً، فيا لها من منزلة عظيمة! ويا له من شرف كبير!

وهذه جارية للحسن البصري - رضي الله عنه - عندما باعها رجعت إليه تقول: «يا مولاي، رُدَّني؛ لقد بعتَني إلى قوم لا يقومون الليل، ولا يصلون إلا الصلواتِ الخمس».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكثر من قيام الليل؛ حتى إن قيام الليل ترك أثراً واضحاً في ملامحه؛ فكثرة البكاء بين يدي الله في القيام؛ ترك خطين أسودين في وجهه، ومن أقواله: «لم يبق مِن حلاوةِ الدنيا إلا ثلاثة أشياء: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في جماعة».

وكذلك ابن مسعود - رضي الله عنه - كان إذا هدأت العيون، يُسمع له دويٌّ كدويِّ النَّحْلِ، وهو يصلِّي.

وهذا أبو هريرة - رضي الله عنه - كان هو وامرأته وخادمه يقسمون الليل ثلاثاً، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا. فالليل كله صلاة ومناجاة، ودموع وخشوع، وذكر وشكر، والشعار: «لا للفرش الوثيرة، والنوم اللذيذ».

ولله در الفضيل بن عياض، وهو يعرض وضعاً شعورياً إيمانياً بديعاً؛ حيث يقول: «أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب؛ فإذا تحرك قال: ليس هذا لكِ، قومي خذي حظكِ من الآخرة».

ولا تنس أنهم كانوا بذلك التعب يتلذذون، وبالقيام يفرحون، وبعيون غير أعيننا إلى الليل ينظرون؛ فهو عندهم موطن تنتعش فيه الأرواح، وتبتهج وترتاح، وتتقلب بين مسرات وأفراح، وتكثر من المساءلة والإلحاح، فهي قائمة بين يدي خالقها، عاكفة على مناجاة بارئها، تتنسم من تلك النفحات، وتقتبس من أنوار تلك القربات، وما يَرِدُ عليها في تلك المقامات؛ ولذا جاءت وصاياهم وقد عملوا، وتذكيرهم وقد اعتبروا، وحثهم وقد سبقوا، فها هو الحسن ينادي بكم قائلاً: «كابِدوا الليل، ومدوا الصلاة إلى السحر، ثم اجلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار».

وقال أبو محمد الجريري: «قصدتُ الجنيد؛ فوجدتُه يصلي؛ فأطال جداً، فلما فرغ قلتُ: قد كبرتَ، وَوَهَنَ عَظْمُكَ، ورق جلدكَ، وضعفتْ قوتكَ، ولو اقتصرتَ على بعض صلاتك؛ فقال: اسكت، طريق عرفنا به ربنا، لا ينبغي لنا أن نقتصر منه على بعضه، والنفس ما حملتها تتحمل، والصلاة صلة، والسجود قربة؛ ولهذا قال تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق:١٩]، ومن ترك طريق القرب، يوشك أن يُسلَك به طريق البعد».

ثمار وفوائد

ذَكَر القرآن صفات عباد الرحمن، ومنها قيام الليل، فهل تحب أن تكون من هؤلاء: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً} [الفرقان:٦٣].

فقيام الليل ينقي القلب ويطهره، ويملأه بحب الطاعة، ومن يستحضر عظمة الله في تلك اللحظات، يجد أن الدنيا كلها هينة ضئيلة في عينيه؛ فأنت تترك كل الدنيا وتناجي مالكها؛ فيكون هذا دافعاً للخشوع في الصلاة، والإخلاص.

يقول ابن القيِّم: «إن الرجلين ليقامان في الصف، خلف نفس الإمام، وبين صلاتهما كما بين السَّماء والأرض. وذلك أنَّ قلب أحدهما تعدَّدتْ أمامه الصُّورُ، في حين قلب الآخر لا يبصر غير الله وطاعته، عز وجل».

وقف أبو ذر - رضي الله عنه - ذات يوم أمام الكعبة، وقال لأصحابه: «أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعدّ له بزاد؟ قالوا: نعم. قال: فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون. فقالُوا: دُلَّنَا على زاده. فقال: حجوا لعظائم الأمور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل؛ لوحشة القبور، وصومُوا يوماً شديداً حَرُّه؛ لطول يوم النّشور».

وعن أبي الدَّرداء، أنَّ النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ثلاثةٌ يحبُّهمُ اللهُ، ويضحكُ إليهمْ، ويستبشرُ بهِمْ: الذي إذَا انكشفتْ فئةٌ، قاتلَ وراءَهَا بنفسه لله - عز وجل - فإمَّا أنْ يُقتَلَ، وإمَّا أنْ ينصرَهُ الله - عز وجلّ - ويكفيه؛ فيقولُ: انظُرُوا إلَى عبدِي هذَا كيفَ صبرَ لي بنفسه، الَّذي لهُ امرأةٌ حَسَنَةٌ وفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ؛ فيقومُ مِنَ اللَّيلِ فيقولُ: يَذَرُ (يترك) شهوتَهُ ويذكُرُنِي، ولَوْ شاءَ رَقَدَ (نام). والَّذي إذَا كانَ في سفرٍ، وكانَ معهُ ركبٌ فسهرُوا ثُمَّ هَجَعُوا؛ فقامَ في السَّحَرِ في ضَرَّاءَ وسَرَّاءَ)).

قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أقربُ مَا يكونُ العبدُ من الرَّبِّ، في جوفِ اللَّيلِ الأخيرِ؛ فإنِ استطعتَ أنْ تكونَ ممَّنْ يذكرُ اللهَ في تلكَ السَّاعةِ، فكُنْ))؛ الترمذي والنسائي.

وقد أوصى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقيام الليل؛ فقال: ((أيُّها النَّاسُ أفشُوا السَّلام، وأطعمُوا الطَّعام، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيَامٌ؛ تدخلُوا الجنةَ بسلامٍ))؛ الحاكم وابن ماجه والترمذي.

وقيام الليل يطرد الغفلة عن القلب؛ كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((من قام بعشر آيات، لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية، كتب من القانتين، ومن قام بألف آية، كتب من المقنطرين))؛ رواه أبوداود وابن حبان.

قال يحيى بن معاذ: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين».

الإعجاز العلمي في قيام الليل

جاء في كتاب: «الوصفات المنزلية المجربة وأسرار الشفاء الطبيعية» لمجموعة من المؤلفين الأمريكيين، أن القيام من الفراش أثناء الليل، والحركة البسيطة داخل المنزل، والقيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة، وتدليك الأطراف بالماء، والتنفس بعمق - له فوائد صحية عديدة.

والمتأمل لهذه النصائح، يجد أنها تماثل تماماً حركات الوضوء والصلاة عند قيام الليل، وقد سبق النبي - صلى الله عليه وسلم - كل هذه الأبحاث في الإشارة المعجزة إلى قيام الليل؛ فقال: ((عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله - عز وجل - ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء من الجسد)).

وعن كيفية قيام الليل بطرد الداء من الجسد يقول الدكتور: «صلاح أحمد حسين» أستاذ الطب بجامعة أسيوط:

- يؤدي قيام الليل إلى تقليل إفراز هرمون الكورتيزون (وهو الكورتيزون الطبيعي للجسد) ، خصوصاً قبل الاستيقاظ بعدة ساعات، وهو ما يتوافق زمنياً مع وقت السحر(الثلث الأخير من الليل)؛ مما يقي من الزيادة المفاجئة في مستوي سكر الدم، الذي يمثل خطورة على مرضى السكر، ويقلل كذلك من الارتفاع المفاجئ في ضغط الدم، ويقي من السكتة المخية والأزمات القلبية في المرضى المعرضين لذلك.

- يقلل قيام الليل من مخاطر تخثر الدم في وريد العين الشبكي؛ الذي يحدث نتيجة لبطء سريان الدم في أثناء النوم، وزيادة لزوجة الدم بسبب قلة تناول السوائل، أو زيادة فقدانها، أو بسبب السمنة المفرطة وصعوبة التنفس؛ مما يعوق ارتجاع الدم الوريدي من الرأس.

- يؤدي قيام الليل إلى تحسن وليونة عند مرضى التهاب المفاصل المختلفة، سواء كانت روماتيزمية أو غيرها؛ نتيجة الحركة الخفيفة والتدليك بالماء عند الوضوء.

- قيام الليل علاج ناجح لما يعرف باسم: «مرض الإجهاد الزمني»؛ لما يوفره قيام الليل من انتظام في الحركة ما بين الجهد البسيط والمتوسط، الذي ثبتت فاعليته في علاج هذا المرض.

- يؤدي قيام الليل إلى تخلص الجسد مما يسمي بـ «الجليسيرات الثلاثية»: وهي نوع من الدهون التي تتراكم في الدم، خصوصاً بعد تناول العشاء المحتوي على نسبة عالية من الدهون، التي تزيد من مخاطر الإصابة بأمراض شرايين القلب التاجية، بنسبة ٣٢٪ في هؤلاء المرضى مقارنة بغيرهم.

- يقلل قيام الليل من خطر الوفيات بجميع الأسباب، خصوصاً الوفاة الناتجة عن السكتة القلبية، والدماغية، وبعض أنواع السرطان.

- يقلل قيام الليل من مخاطر الموت المفاجئ بسبب اضطراب ضربات القلب؛ لما يصاحبه من تنفس هواء نقي، خال من ملوثات النهار، وأهمها عوادم السيارات، ومسببات الحساسية.

- قيام الليل ينشط الذاكرة، وينبه وظائف المخ الذهنية المختلفة؛ لما فيه من قراءة وتدبر للقرآن، وذكر للأدعية، واسترجاع لأذكار الصباح والمساء؛ فيقي من أمراض: الزهايمر، وخرف الشيخوخة، والاكتئاب، وغيرها، وكذلك يؤدي قيام الليل إلى التخفيف من مرض طنين الأذن، الذي يحدث لأسباب غير معروفه.

حكم قيام الليل

كان قيام الليل فرضاً في أوّل الأمر، حين قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [المزمل:١-٤]، ثمَّ نُسخ هذا الفرض إلى الندب بقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل:٢٠].

يقول الإمام القرطبي: «وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه؛ فيقوم حتى يصبح؛ مخافة أن يخطئ؛ فانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم؛ فرحمهم الله وخفَّف عنهم». لأجل ذلك، خفَّف الله على المسلمين؛ رحمةً بهم، ولم يجعل القيام فرضاً، بل ندب إليه، وحثَّ عليه.

وقد ارتبط قيام الليل في أذهان الناس بشهر رمضان؛ نظراً لأنَّ رمضان هو شهر الصيام والقيام، ويتأكَّد هذا القيام في العشر الأواخر؛ حيث الاعتكاف والتهجُّد، ومسألة ارتباط القيام في أذهان الناس برمضان نابعةٌ من تقصير المسلمين - في غير رمضان - في القيام بهذه العبادة، واغتنام دقائق الليل الغالية؛ ولذلك غدا قيام الليل له مناسبةٌ، هي حلول شهر رمضان.

وهذا - بالطبع - ليس هو الأصل، فربُّ رمضان الذي نقوم له فيه هو ربُّ الشهور الأخرى، وهو - سبحانه - الذي ينزل كلَّ ليلةٍ في ثلثها الأخير؛ ليقول: ((من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له))؛ كما ثبت في الحديث المتَّفق عليه.

أسباب معينة على قيام الليل

فضيلة الشيخ محمد صالح المنجد يقول: هناك أسباب معينة على قيام الليل منها:

١- الإخلاص لله تعالى: فكلما قوي إخلاص العبد، كان أكثر توفيقاً إلى الطاعات والقربات؛ فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم ونياتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك؛ ولذا حرص السلف الكرام أشد الحرص على إخفاء الطاعات، كقيام الليل؛ سأل رجلٌ تميمَ بن أوس الداري - رضي الله عنه - فقال له: «كيف صلاتك بالليل؟ فغضب غضباً شديداً، ثم قال: والله لركعة أصليها في جوف الليل في السر، أحب إليّ من أن أصلي الليل كله، ثم أقصّه على الناس».

٢- أن يستشعر مريد قيام الليل أن الله تعالى يدعوه للقيام: فإذا استشعر العبد أن مولاه يدعوه لذلك - وهو الغني عن طاعة الناس جميعاً - كان ذلك أدعى للاستجابة.

٣ - معرفة فضل قيام الليل: فمن عرف فضل هذه العبادة، حرص على مناجاة الله تعالى، والوقوف بين يديه في ذلك الوقت.

٤-النظر في حال السَّلف والصالحين في قيام الليل، ومدى لزومهم له: فقد كان السلف يتلذذون بقيام الليل، ويفرحون به أشد الفرح؛ قال عبد الله بن وهب: «كل ملذوذ إنما له لذة واحدة، إلا العبادة؛ فإن لها ثلاث لذات: إذا كنت فيها، وإذا تذكّرتها، وإذا أعطيت ثوابها». وقال ثابت البناني: «ما شيء أجده في قلبي ألذّ عندي من قيام الليل».

٥- النوم على الجانب الأيمن: وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يرشد أمته إلى النوم على الجانب الأيمن؛ فعن حفصة - رضي الله عنها - قالت: ((كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أخذ مضجعه، جعل يده اليمنى تحت خده الأيمن))؛ رواه الطبراني.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «وفي اضطجاعه - صلى الله عليه وسلم - على شقه الأيمن سر؛ وهو أن القلب معلّق في الجانب الأيسر؛ فإذا نام على شقه الأيسر، استثقل نوماً؛ لأنه يكون في دعة واستراحة؛ فيثقل نومه، فإذا نام على شقه الأيمن، فإنه يقلق، ولا يستغرق في النوم؛ لقلق القلب، وَطَلَبِهِ مُسْتَقَرَّهُ، وميله إليه».

٦-النوم على طهارة فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة))؛ متفق عليه، وجاء من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((طهّروا هذه الأجساد؛ طهركم الله؛ فإنه ليس عبد يبيت طاهراً إلا بات معه في شعاره ملك، لا يتقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك؛ فإنه بات طاهراً))؛ رواه الطبراني.

٧- التبكير بالنوم: النوم بعد العشاء - مبكراً - وصية نبوية، وخصلة حميدة، وعادة صحية؛ ومما جاء في فضله حديث أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - قال: ((إن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يستحب أن يؤخر العشاء، وكان يكره النوم قبلها، والحديث بعدها))؛ رواه البخاري، وقال ابن رافع: كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينِشّ الناس بدِرّته بعد العتمة، ويقول: قوموا؛ لعل الله يرزقكم صلاة.

٨- المحافظة على الأذكار قبل النوم: فإن هذه الأذكار حصن حصين، يقي بإذن الله من الشيطان، ويعين على القيام، ومن هذه الأذكار، ما ثبت من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره؛ فإنه لا يدري ما خلّفه عليه، ثم ليضطجع على شقّه الأيمن، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي، فارحمها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))؛ متفق عليه.

وينبغي كذلك أن يحافظ المسلم على الأذكار الشرعية عند الاستيقاظ، ومنها: ما ثبت من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه - وسلم قال: ((إذا استيقظ أحدكم، فليقل: الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره))؛ رواه الترمذي والنسائي.

٩-الحرص على نومة القيلولة بالنهار - وهي إما قبل الظهر أو بعده - فعن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((قيلوا فإن الشياطين لا تقيل))؛ رواه الطبراني، وقال إسحاق بن عبد الله: القائلة من عمل أهل الخير، وهي مجمة للفؤاد مَقْواة على قيام الليل. ومرّ الحسن البصري بقوم في السوق في وسط النهار؛ فرأى صخبهم وضجيجهم؛ فقال: «أما يقيل هؤلاء؟! فقيل له: لا. فقال: إني لأرى ليلهم ليل سوء».

١٠- اجتناب كثرة الأكل والشرب: فإن الإكثار منهما من العوائق العظيمة التي تصرف المرء عن قيام الليل، قال سفيان الثوري: «عليكم بقلة الأكل؛ تملكوا قيام الليل». ورأى معقل بن حبيب قوماً يأكلون كثيراً؛ فقال: «ما نرى أصحابنا يريدون أن يصلوا الليلة». وقال وهب بن منبه: «ليس من بني آدم أحب إلى شيطانه من الأكول النوام».

١١- مجاهدة النفس على القيام: وهذا من أعظم الوسائل المعينة على قيام الليل؛ لأن النفس البشرية - بطبيعتها - أمارة بالسوء، تميل إلى كل شر ومنكر؛ فمن أطاعها فيما تدعوا إليه، قادته إلى الهلاك والعطب، وقد أمرنا الله - تعالى - بالمجاهدة فقال: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج:٧٨] وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩].

وعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((المجاهد من جاهد نفسه في الله))؛ رواه الترمذي وابن حبان. وفي حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الرجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عُقَد، فإذا وضأ يديه، انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه، انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه، انحلت عقدة، وإذا وضأ

رجليه، انحلت عقدة؛ فيقول الله - عز وجل - للذين من وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا؛ يعالج نفسه، ويسألني، ما سألني عبدي فهو له))؛ رواه أحمد وابن حبان

١٢-اجتناب الذنوب والمعاصي: فإذا أراد المسلم أن يكون ممن ينال شرف مناجاة الله تعالى، والأنس بذكره في ظلم الليل، فليحذر الذنوب؛ فإنه لا يُوفّق لقيام الليل من تلطخ بأدران المعاصي؛ قال رجل لإبراهيم بن أدهم: «إني لا أقدر على قيام الليل؛ فصف لي دواء؟ فقال: لا تعصه بالنهار؛ وهو يُقيمك بين يديه في الليل؛ فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف».

وقال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد: إني أُبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعِدّ طهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال الحسن: ذنوبك قيدتْك». وقال - رحمه الله -: «إن العبد ليذنب الذنب؛ فيحرم به قيام الليل، وصيام النهار». وقال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبّل، كبلتك خطيئتك».

الفصل السابع: أعمال القلوب

المبحث الأول: أهمية النية في حياة المسلم

المبحث الثاني: من درر ابن القيم عن الأعمال القلبية

المبحث الثالث: الإخلاص

المبحث الرابع: الشكر

المبحث الخامس: في بستان الصابرين.. آيات الصبر

المبحث السادس: الرضا بالقدر.. أجمل اختيار في الحياة

المبحث السابع: التوكل على الله

المبحث الثامن: سلوا الله اليقين

المبحث التاسع: التفاؤل

المبحث العاشر: حسن الظن بالله

المبحث الأول: أهمية النية في حياة المسلم (٤٤)

في عصرٍ انتشرتْ فيه الفِتن، وكثُرتْ فيه الشهوات، وطغتْ فيه المادة على كلِّ شيءٍ في حياتنا، وتحوَّل الناس فيه - إلا مَن رَحِم ربيِّ - إلى مجرد آلات، همُّهم الأكبر هو جمع المال بشتَّى الطرق، والجري وراء ملذَّات الدنيا - غاب عن الكثير ولم يخطر ببالهم هذا السؤالُ المهم، ألا وهو: كم سيعيش كلٌّ منهم في هذه الدنيا؟

وإن كان السؤال قد يبدو غريبًا؛ لأن كل الناس يعلمون يقينًا أن إجابة هذا السؤال من الأمور الغيبية التي اختص الله - تعالى - بها؛ فهو القائل: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولكنِ افْترضْ معي أنكَ ستعيش في هذه الدنيا ٧٠ عامًا؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أعمار أمَّتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم مَن يجوز ذلك))؛ «صحيح الجامع»

فلو سلَّمنا بذلك، هل فكَّرتَ مرةً كيف ينقضي هذا العمر بسرعة رهيبة، وتمرُّ الأيام والشهور والسنون منك كالبرق الخاطف دون أن تشعرَ؟!

فيتساءل بعضُنا: هل تَذكُر رمضان العام الماضي، وكأنه كان بالأمس القريب؟ وهل تذكر كيف مضتْ مراحل عُمرك المختلفة؟ وهكذا يمرُّ العمر منَّا ونحن لا ندري، وهذا من علامات الساعة؛ كما أخبر عن ذلك النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: ((لا تقوم الساعةُ حتى يتقاربَ الزمان، فتكون السَّنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضَّرمةِ بالنار))؛ «صحيح الجامع»، رقم (٧٤٢٢).

• وفجأة تجد نفسَك أمام مَلَك الموت، ثم يوم القيامة ترى عمرك الذي قضيتَه في هذه الدنيا، ما هو إلا ساعة؛ فقد قال الله - تعالى -: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولعلَّ الذي يزيد الأمرَ صعوبةً ومشقة في ذلك اليوم، أنك ترى عُمرك الذي عشتَه في الدنيا - والذي كنَّا قد افترضناه ٧٠ سنة - لم يكن كلُّه لله؛ بل ضاع منه ما يقرب من ١٣ عامًا قبل التكليف، وضاع منه الكثير في الطعام والشراب، والعمل والمواصلات، وفي الكثير من الأعمال، منها ما هو ضروري لا يُمكن الاستغناء عنه، ومنها ما ليس بضروري يمكن الاستغناء عنه.

وتخيَّل معي كمْ يقضي صاحب السبعين عامًا من عُمره في أمور ضرورية لا يُمكن الاستغناء عنها، وهذا ما سنوضِّحه بالجدول التالي:

العمل	ما يقضيه يوميًا	ما يقضيه في ٧٠ عامًا
النوم	٦ ساعات	١٧ سنة ونصف
الطعام والشراب	ساعة	٣ سنوات
العمل	٨ ساعات	٢٣ سنة ونصف
قضاء الحاجة والاستحمام	٣٠ دقيقة	سنة ونصف
المجموع	١٥ ساعة ونصف من اليوم	٤٥ سنة ونصف من العمر

• وسواء اتفقنا على هذا الجدول أم اختلفنا، فلكَ أن تتخيلَ أن أكثر من نصف العُمر ينقضي في أمور ضروريَّة لا يمكن الاستغناء عنها لأيِّ إنسان، وهذا بخلاف أمور أُخرى لا يتسع المقام لذِكرها، لها ضرورة في الحياة، ولكنها أمور ثانويَّة، مثل: انتظارِ المواصلات، والوقوف في طابور الخبز، والذهاب للحلاَّق، والزيارات العائلية، وحل المشاكل، واستخراج البطاقة و... و...، إذًا يتبقَّى من العُمر القليل جدًّا، وبرغم ذلك تجد مَن يسرف على نفسه في هذا العُمر المتبقِّي في مشاهدة المسلسلات والأغاني والأفلام وما حرَّم الله، ومَن يقضي وقته على الإنترنت لساعات طويلة، ومن يجلس أمام «البلاي ستيشن»، ومن يجلس للتحدُّث في الهاتف في الغِيبة والنميمة والكلام غير المفيد، ومن يذهب «للإستاد»؛ لكي يشاهد المباراة هناك، وينتظر صفارة الحكم معلنًا فوزَ فريقه بالمباراة، فهؤلاء نذكِّرهم بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يُسأل عن خمس: عن عُمره فيمَ أفناه؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيمَ أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟))؛ حسن، «صحيح الجامع»،وأن يغيِّروا مسارهم، ويجعلوا عُمرهم كلَّه لله، وذلك بأن يتركوا ما هم عليه من المعاصي، ويتوبوا إلى الله، ويجعلوا أعمالهم كلَّها لله.

وقد قيل: «إن العبد المؤمن بين مخافتين: بين أَجَلٍ قد مضى، لا يدري ما الله قاضٍ فيه، وبين أجلٍ قد بقي، لا يدري ما الله صانع فيه، فليأخذِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات؛ فوالله ما بعد الموت من مستعتَب، وما بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار، فلِيبكِ مَن ضاع عُمره، وليس له منها نصيب ولا سهم»؛ «تنوير الأذهان من تفسير البيان».

إذًا، ما السبيل إلى تغيير مسارنا؟ وأين نجد النجاة؟ وكيف تتحوَّل أعمارنا كلها لله؟

قبل التحدُّث عن الوصول للنجاة، وتغيير المسار، وتحويل أعمارنا كلها لله، لا بد أن نعلم هذه الحقيقةَ الغائبة عن كثيرٍ من أذهان الناس، إلا مَن رحم ربيِّ، ألا وهي: الإجابة عن سؤال: لماذا خلقَنا اللهُ؟

• إن إجابة هذا السؤال غير واضحة لدى كثيرٍ من المسلمين، ولا يعلمونها جيدًا، وإن علموا بها، فهم يفهمونها فَهمًا خاطئًا، إذًا لماذا خلقنا اللهُ؟

إن الله خلقَنا في هذا الكون لغاية واحدة، ألا وهي: العبادة؛ فهو القائل - سبحانه -: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، نعم لقد خلقنا الله؛ لكي نعبده، وسيبعث الله الخلقَ بعد الموت؛ ليحاسبهم بمقتضى تلك العبادة، وهذا مقتضى عدله - سبحانه - قال - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١ - ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧ - ٢٨]، وذلك مقتضى حكمته - سبحانه وتعالى - فمُحالٌ أن يخلقَ هذا الخلقَ، ويزوِّده بالروح والعقل عبثًا دون عمل، ودون بعث وحساب على ذلك العمل؛ قال - تعالى -: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولقد أوجز الشيخ حافظ بن أحمد آل حكمي هذه الغايةَ التي خُلقنا من أجلها، في بيتين من أبيات منظومته الشهيرة «متن سُلَّم الوصول»، فقال:

اعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ ... لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدًى وَهَمَلاَ

بَلْ خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ ... وَبِالإِلَهِيَّةِ يُفْرِدُوهُ

وقد يَفهم كثيرٌ من الناس معنى العبادة فَهمًا خاطئًا، فيعتقدون أن معنى العبادة: أن نمكث في المسجد، نصلي، وندْعو، ونتذلَّل لله، ونبكي من خشيته، ونصوم له النهار، ونقيم له الليل فقط، لا، ليس هذا المعنى الكامل للعبادة؛ بل هذا جزء من معنى العبادة، ونحن لا ننكر، ولا نقلل من أهمية الجانب التعبُّدي؛ من صيام، وصلاة، وزكاة، وحج، وصدقة.

فإن الشعائر التعبُّديَّة لها أهميتها ومكانتها، ولكنها ليست العبادة كلها؛ بل هي جزءٌ من العبادة التي يريدها الله - تعالى - لأن العبادة مفهوم شاملٌ، لا يقتصر على الفرائض فقط؛ لأن الحياة بما فيها كلها لله، والإسلام لا يفرِّق بين طريق الدنيا والآخرة، ولا بين العبادات والأخلاق؛ بل يجعل كلَّ حركة في حياة المسلم وثيقةَ الصلة بعقيدته؛ من أجل أن يتوجَّه إلى ربِّه وينفذ أوامره، ويبتعد عن نواهيه، مُحققًا بذلك رسالتَه؛ فقد قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]

وبذلك عرَّفها ابن تيميَّة - رحمه الله - بقوله:

«العبادة: هي اسم جامعٌ لكلِّ مَا يُحِبُّه اللهُ ويَرْضَاه، مِنَ الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ وذلك أنَّ العبادةَ لله هي الغايةُ المحبوبةُ له، والمرضيَّةُ له، التي خَلَقَ الخَلْقَ لها؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وبها أَرْسَلَ جميعَ الرُّسُلِ».

• لذلك يجب على المسلم الفَطِن أن يعلم جيدًا أنه يعيش في حياة، هي ممرٌّ سوف يُوَصِّله في النهاية إلى جنة - نسأل الله أن يجعلنا من أهلها - أو إلى نار - نسأل الله أن يصرفنا عنها - وفي ظل تلك الحياة يقوم بكثير من الأعمال في حياته، قد تكون سببًا لقُربه من الجنة أو من النار.

أولاً: ما هي المشكلة؟

إن معرفة سبب أية مشكلة يُسهم بالطبع في حلِّ تلك المشكلة فيما بعدُ؛ فمعرفة الداء هي البداية للوصول للدواء.

لكن: هل هناك بالفعل مشكلة، ولو كان ثمَّة مشكلة، ما هي تلك المشكلة؟

هناك بالفعل مشكلة تواجه كثيراً من الناس، الذين تحولتْ حياتُهم إلى مجرد نمطٍ واحد، فيما يقومون به من أعمال كل يوم بشكلٍ روتيني، دون أيِّ تغييرٍ أو تجديد، في شتى مجالاتهم، فأصبحتْ حياتهم بلا طعم، والقيام بأعمالهم أصبح ثقيلاً على أنفسهم، فهم بلا همَّة ولا نشاط؛ بل قُل: مجرَّد آلات لها موعد لبداية العمل، وموعد لنهايته.

• والمصيبة الكبرى أن هذا الروتين قد استشرى أثرُه حتى إلى الجانب الديني؛ فتحوَّل الناس، حتى الملتزمون - إلا من رحم ربيِّ - لمجرِّد مؤدِّين لعبادتهم على وتيرة واحدة، دون أن تُحْدِثَ تلك العباداتُ التي يُؤَدُّونها يوميًّا أيَّ تغيير فيهم.

فتجد من المسلمين المحافِظَ على الصلاة في جماعة، والحافظَ لكتاب الله كاملاً، والمُنفقَ في سبيل الله، والحاجَّ والمعتمر لبيت الله، كل هؤلاء تجدهم بكثرة في المسلمين - نسأل الله أن يثبِّتنا ويثبِّتهم على الحق - لكنَّ الصدمةَ الكبرى عند النظرِ إلى حالهم، من جانب الأخلاق أو التعاملات، فعندما تنظرُ إليهم تجد فجوة رهيبة بين الجانب الديني والجانب الدنيوي، وهذا الفصلُ الرهيب بين الجانبين خطأ، وليس سمةً من سمات الإسلام؛ بل هو من أحدِ الأسباب التي تؤدِّي إلى الصد عن دينِ الله.

وانظر لحالهم بعد أن مَنَّ الله عليهم بكلِّ ذلك، لا جديد، فهم كما هم، لا تغيير، والأمَّة - بالطبع - كما هي لا تغيير، وهؤلاء يصدق عليهم قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فحفظة القرآن - بفضل الله - في هذه الأمَّة كثيرون، ولكن أين هم من الأخلاق والمعاملات؟! ماذا فعل القرآن فيهم؟ فهل هذا الحافظ بعد أن كان سيِّئ الخُلق، تحسَّنتْ أخلاقه؟ وإن كان مسيئًا للجار، فهل أحسن لجاره؟

إذا لم يحدث تغييرٌ له، فيصبح الحفظ لكتاب الله بذلك حُجةً عليه، لا له.

وكم مليون مسلم يذهبون إلى الحَرَم كلَّ عام؛ من أجل الحج والعُمْرَة! هل أثَّر الحج والعمرة فيهم تأثيراً إيجابيًّا بعد أن عادوا إلى بلادهم؟

وقد كان من المفترض أن يتغيَّر حالهم لأحسن حال، وكيف لا؟! وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - عن جزاء ذلك، فقال: ((مَنْ حَجَّ لله فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجعَ كيوْمَ ولدتْه أُمُّه))؛ «صحيح البخاري» (١٤٤٩) من حديث أبي هريرة، كتاب: الجمعة، باب: فضل الحج المبرور.

إذا أردتَ التأكُّد من ذلك، انظر إلى حالهم بعد النزول من «عَرَفات»، فهذا يدخِّن، وهذه تغتاب، ولا مانع من مشاهدة الأفلام والمسلسلات عند العودة إلى المنزل، لا جديد سوى لقَب «الحاج والحاجة» فقط.

• وقِسْ على هذا كلَّ الأعمال التعبُّدية، مثل: الصلاة، فكم من مصلٍّ محافظ على الصلاة في المسجد، ويأكل أموالَ الناس بالباطل، وينظر إلى الحرامِ، ويأكل الرِّبا، ويسيء المعاملة لزوجته ويضربها، ويقسو على أولادِه.

هل تعلمون لماذا لم تُؤثِّر تلك الأعمالُ بالإيجاب فيهم؟

إن فتَّشتَ عن السبب الحقيقي، ستجد أنهم لم يكن لهم من الأصل نيَّاتٌ في أعمالهم؛ بل مجرَّد أنهم فعلوا مثلما يفعل كلُّ الناس، أو كان لديهم نيَّات فاسدة، فكانت النتيجة عدم جَنْي أيَّة ثمار من تلك الأعمال، تَعُود عليهم بالنفع أو التغيير، ومن ثَمَّ انعكس ذلك الوضع على الأُمَّة، فوصلتْ إلى حالة يُرثى لها، واضحة كوضوح الشمس.

المبحث الثاني: من درر ابن القيم عن الأعمال القلبية (٤٥)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فالقلوب لا تُسَرُّ ولا تسعد ولا تطمئنُّ إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى، ومحبَّته، وحُسْن الظن به، والخوف منه، والتوكُّل عليه، والإنابة إليه، والأُنْس به، ومن أعجب الأشياء أن تجد قلبَ مسلم يعرض عن هذه الأعمال القلبية، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله، في كتابه «الفوائد»: من أعجب الأشياء: أن تعرفه ثم لا تُحِبُّه، وأن تسمع داعِيه ثم تتأخَّر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيرَه، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرَّض له، وأن تذوق ألمَ الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأُنْس بطاعته، وأن تذوق عُصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومُناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلُّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه! وأعجبُ من هذا علمُك أنك لا بُدَّ لك منه، وأنك أحوجُ شيءٍ إليه وأنت عنه مُعْرِض، وفيما يُبعِد عنه راغب.

ومن هذه حاله فَقَدْ نسي ربَّه، فأنساه الله جل جلاله ذاتَه ونفسَه، قال العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة»: من نسي ربَّه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه؛ بل نسي ما به صلاحُه وفلاحُه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائمة؛ بل ربما كانت الأنعام أخبرَ بمصالحها منه؛ لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها، فنسي ربَّه، فأنساه نفسه وصفاتها، وما تكمل به وتزكو به وتسعدُ به في معاشها ومعادها.

أما مَن وفَّقه الله عز وجل، فكان قلبُه مطمئنًا بالله، وقرَّت عينُه به، فقد سعد وفاز في نفسه، وفرح وأنس به كلُّ قريب وحبيب، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين»: مَن قرَّتْ عينُه بالله قرَّتْ به كلُّ عين، وأنس به كلُّ مستوحش، وطاب به كُلُّ خبيث، وفرح به كلُّ حزين، وأمِنَ به كُلُّ خائف، وشهد به كلُّ غائب، وذكَّرت رؤيتُه بالله، فإذا رُئي ذُكِرَ الله.

قد اطمأنَّ قلبُه بالله، وسكنت نفسُه إلى الله، وخلصت محبَّتُه لله، وقَصَرَ خوفه على الله، وجعل رجاءه كلَّه لله، فإن سَمِعَ سَمِعَ بالله، وإن أبْصَر أبْصَر بالله، وإن بطش بطش بالله، وإن مشى مشى بالله، فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، فإذا أحبَّ أحبَّ لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا أعطى فلله، وإذا منع فلله.

قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوَّه ومخوفه، وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتَّخذ رسولَه وحدَه دليلَه وإمامَه وقائدَه وسائقَه، فوحَّد الله بعبادته ومحبَّته وخوفه ورجائه، وأفرد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلُّق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه.

للعلامة ابن القيم دُرَر عن الأعمال القلبية جمعتُ بعضًا منها، اللهَ أسألُ أن ينفع بها.

عبودية الله جل جلاله:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُّه إلَّا الله وحده تحمَّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحَمَلَ عنه كلَّ ما أهمَّه، وفرَّغ قلبه لمحبَّته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدُّنْيا همُّهُ حمَّلهُ اللهُ همومَها وغُمومَها وأنكادَها، ووكَّله إلى نفسه، فشغل قلبَه عن محبَّته بمحبةِ الخَلْق، ولسانه عن ذكره بذكرِهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم...فكُلُّ مَن أعرض عن عبودية الله...ومحبته بُلي بعبودية المخلوق وخدمته.

[كتاب: الفوائد].

هجرة القلب إلى الله ورسوله:

الهجرة إلى الله ورسوله فرضُ عَيْنٍ على كُلِّ أحَدٍ في كُلِّ وقتٍ، ولا انفكاك لأحد من وجوبها، وهي مطلوب الله ومراده من العباد؛ إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: هجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها، وهي هجرة تتضمَّن (مِن) و(إلى)، فيُهاجر بقلبه من محبَّة غير الله إلى محبَّته، ومن عبودية غيره إلى عبوديَّته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكُّل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكُّل عليه، ومِن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذُّلِّ له والاستكانة له إلى دعاء ربِّه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له.

وهذا هو بعينه معنى الفِرار إليه؛ قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفِرار من الله إليه.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب قوة داعي المحبة وضعفه، فكلما كان داعي المحبة في قلب العبد أقوى، كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة، حتى إنه لا يكاد يشعر بها علمًا، ولا يتحرك بها إرادة.

وعن هاتين الهجرتين يُسأل كلُّ عبد يوم القيامة وفي البرزخ، ويُطالب بهما في الدنيا، فهو مطالب بهما في الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

[كتاب: الرسالة التبوكية].

أهمية الأعمال القلبية وشدة حاجة المسلم إليها:

الله سبحانه وتعالى هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوبُ بُعْدُه، وهو المعينُ على دفعه.

اللـه سـبحانه خلـق الخَلْـقَ لعبادتـه الجامعـة لمعرفتـه والإنابـة إليـه ومحبتـه والإخـلاص لـه، فبذكـره تطمـئن قلوبهـم، وبرؤيتـه في الآخـرة تقـرُّ عيونهـم، ولا شيء يعطيهـم في الآخـرة أحـبَّ إليهـم مـن النظـر إليـه، ولا شيء يعطيهـم في الدنيـا أحـبَّ إليهـم مـن الإيمـان بـه، ومحبتهـم لـه، ومعرفتهـم بـه.

العبـد لا فـرح لـه أعظـم مـن فرحـه بوجـود ربِّـه، وأُنْسـه بـه، وطاعتـه لـه، وإقبالـه عليـه، وطمأنينتـه بذكـره، وعـمارة قلبـه بمعرفتـه، والشـوق إلى لقائـه، فليـس في الكائنـات مـا يسـكن العبـد إليـه، ويطمـئن بـه، ويتنعَّـم بالتوجـه إليـه إلا اللـه سـبحانه، ومـن عبـد غـيره وأحبَّـه- وإن حصـل لـه نـوع مـن اللـذَّة والمـودَّة والسـكون إليـه والفـرح والـسرور بوجـوده- ففسـاده بـه ومضرتـه وعطبـه أعظـم مـن فسـاد أكل الطعـام المسـموم اللذيـذ الشـهي الـذي هـو عـذب في مبدئـه، وعـذاب في نهايتـه.

فحاجـة العبـد إلى أن يعبـد اللـه وحـده ولا يـشرك بـه شـيئًا في محبتـه، ولا في خوفـه، ولا في رجائـه، ولا في التـوكل عليـه، ولا في العمـل لـه، ولا في الحلـف بـه، ولا في النـذر لـه، ولا في الخضـوع لـه، ولا في التذلـل والتعظيـم والسـجود والتقـرُّب أعظـم مـن حاجـة الجسـد إلى روحـه، والعـين إلى نورهـا، بـل ليـس لهـذه الحاجـة نظـيرٌ تُقـاس بـه.

[كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين].

• اللـذة التامـة والفـرح والـسرور، وطيـب العيـش، والنعيـم، إنمـا هـو في معرفـة اللـه، وتوحيـده والأُنْـس بـه، والشـوق إلى لقائـه، واجتـماع القلـب والهـمِّ عليـه، فـإن أنكـد العيـش عيـش مـن قلبـه مُشـتَّت، وهَمُّـه مفـرَّق؛ فاحـرص أن يكـون همُّـك واحـدًا، وأن يكـون هـو اللـه وحـده، فهـذا غايـة سـعادة العبـد، وصاحـب هـذه الحـال في جنـة معجَّلـة قبـل جنـة الآخـرة وفي نعيـم عاجـل.

[كتاب: رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه].

• ليسـت حاجـة الأرواح قـط إلى شيء أعظـم منهـا إلى معرفـة بارئهـا وفاطرهـا، ومحبتـه، وذكـره، والابتهـاج بـه، وطلـب الوسـيلة إليـه، والزُّلفـى عنـده، ولا سـبيل إلى هـذا إلا بمعرفـة أوصافـه وأسـمائه، فكلـما كان العبـد بهـا أعلـم كان باللـه أعـرف، ولـه أطلـب، وإليـه أقـرب، وكلـما كان لهـا أنكـر كان باللـه أجهـل، وإليـه أكـره، ومنـه أبعـد، واللـه تعـالى ينـزل العبـد مـن نفسـه حيـث يُنزلـه العبـد مـن نفسـه.

فمـن كان لذكـر أسـمائه وصفاتـه مبغضًـا، وعنهـا مُعرضًـا نافـرًا ومُنفـرًا، فاللـه لـه أشـد بغضًـا، وعنـه أعظـمُ إعراضًـا، ولـه أكـبر مقتًـا.

[كتاب: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية].

من علامات معرفة العبد بربّه:

مـن علامـات المعرفـة: الهيبـة، فكلـما ازدادت معرفـة العبـد بربِّـه، ازدادت هيبتـه لـه، وخشـيته إيـاه، كـما قـال اللـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطـر: ٢٨]؛ أي: العلـماء بـه، وقـال النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((أنـا أعرفُكـم باللـه، وأشـدُّكم لـه خشـيةً)).

[كتاب: روضة المُحبِّين ونزهة المشتاقين].

معرفة الله سبحانه وتعالى:

معرفة الله سبحانه نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي يشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة تُوجِب الحياء منه، والمحبة له، وتعلُّق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته والإنابة إليه، والأنس به، والفِرار من الخَلْق إليه.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: باب التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكُّر في آياته المشهودة، وتأمُّل حِكْمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعَدْله وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها، وتفرُّده بذلك وتعلُّقها بالخَلْق والأمر، فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري.

[كتاب الفوائد].

من ثمار المعرفة بالله عز وجل:

• من عرف الله، صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كلُّ شيءٍ، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأَنِسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال، والمراقبة، والمحبَّة، والتوكُّل عليه، والإنابة إليه، والرِّضا به، والتسليم لأمره؛ [كتاب: روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين].

• المعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء.

• المعرفة تثمر حسن الخلق.

[كتاب: مدارج السالكين في منازل السائرين].

معرفة الله جل جلاله من أعظم أسباب النظر إلى وجهه سبحانه:

أعظم نعيم الآخرة ولذاتها: النظر إلى وجه الربِّ جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت في الحديث الصحيح في حديث الرؤية: ((فواللهِ ما أعطاهم شيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إليه))، وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: ((وأسألُكَ لذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ، والشوق إلى لقائكَ)).

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تُحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية كتفلةٍ

في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيبُ ما في الدنيا معرفته ومحبَّته، وألذُّ ما في الجنة رؤيتُه ومشاهدتُه، فمحبَّتُه ومعرفتُه قُرَّةُ العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها؛ بل لذَّات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضَّنْك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

والمقصود أن أعظم لذَّات الدنيا هو السبب الموصِّل إلى أعظم لذة في الآخرة.

[كتاب: الداء والدواء].

الأنس بالله:

• متى رأيت نفسك تهربُ من الأُنْس به إلى الأُنْس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلُح له.

[كتاب: بدائع الفوائد].

• من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]: منزلة الأُنْس بالله، والأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكُلُّ مطيعٍ مستأنس، وكُلُّ عاصٍ مستوحشٌ، كما قيل:

فإنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعْها إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

• الله جعل للقلوب نوعينِ من الغذاء: نوعًا من الطعام والشراب الحسِّي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، والثاني غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب من السرور والفرح والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف.

[كتاب: مدارج السالكين في منازل السائرين].

تعظيم الله عز وجل وتوقيره:

• مَن عظُم وقارُ الله في قلبه أن يعصيهُ، وقَّره في قلوب الخلق أن يُذلوه.

• من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنك تُوقر المخلوق وتُجلُّه أن يراك في حال لا تُوقِّر الله أن يراك عليها! ومنْ كان كذلك، فإن الله لا يُلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبةً؛ بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإنْ وقَّروه مخافة شرِّه فذاك وقار بغض لا وقار حب. [كتاب: الفوائد].

• الذنوب تُضعِف في القلب تعظيم الربِّ جل جلاله، وتُضعِف وقاره في قلب العبد، ولو تمكَّن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه، فإن عظمة الله وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، وكيف ينتهك عبدٌ حرمات الله، و يطمع ألَّا ينتهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حقُّ الله، ولا يُهوِّنه الله على الناس؟! أم كيف يستخفُّ بمعاصي الله، ولا يستخفُّ به الخَلْق؟!

[كتاب: الداء والدواء].

الإنابة إلى الله:

• الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يُفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبَّته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله. [كتاب: الفوائد].

• الإنابة: الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمَّن المحبَّة والخشية، فإن المنيب مُحِبٌّ لمن أناب إليه، خاضِعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ، والناسُ في إنابتهم على درجات متفاوتة؛ فمنهم المنيب بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقُرُبات، فهو ساعٍ فيها بجهده، وقد حُبِّب إليه فعل الطاعات وأنواع القُرُبات، وهذه الإنابة مصدرُها الرجاء، ومطالعة الوعد والثواب، ومحبَّة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا، وجانبُ الرجاء ومطالعة الرحمة والمِنَّة أغلبُ عليهم، وإلَّا فكُلُّ واحدٍ من الفريقين منيبٌ بالأمرين جميعًا؛ ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم، فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأوَّلين اندرج تحت خوفهم، فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرُّع، والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة: شهود الفضل، والمِنَّة، والغِنى، والكَرَم، والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعَلَّقوا به آمالَهم، ومنهم المنيب عند الشدائد والضرَّاء فقط إنابة اضطرار، لا إنابة اختيار؛ كحال الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].
[كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين].

الافتقار إلى الله:

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقر العباد إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم، لا ينفكُّ عنهم، كما أنَّ كونه غنيًّا حميدًا أمرٌ ذاتيٌّ له، فغِناه وحمده ثابتٌ له لذاته لا لأمر أوجبه...كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا ... كما الغِنى أبدًا وصف له ذاتي

الفَقْرُ فقران فقرُ اضطرار، وهو فقر عام لا خروج لبرٍّ ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ،ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا؛ بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربِّه، والثاني معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتانِ المعرفتانِ أنتجا له فقرًا هو عين غِناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوُت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوُتهم في هاتين المعرفتين، فمَنْ عرَف ربَّه بالغِنى المطلق عرَف نفسَه بالفقر المطلق، ومَن عرَف ربَّه بالقدرة التامَّة عرَف نفسَه بالعجز التام، ومَن عرَف ربَّه بالعِزِّ التام عرَف نفسَه بالمسكنة التامَّة، ومَن عرَف ربَّه بالعلم التام والحكمة عرَف نفسَه بالجهل.

ومن هاهنا خُذِلَ مَنْ خُذِلَ ووُفِّقَ مَنْ وُفِّقَ، فحُجب المخذول عن حقيقته، وأُنْسِي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربِّه، فطغى وبغى وعتا، فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥-١٠].

فأكْمَلُ الخَلْق أكملُهم عبوديةً، وأعظمُهم شهودًا لفقره وحاجته وضرورته إلى ربِّه وعدم استغنائه عنه طرفة عين؛ ولهذا كان من دُعائه صلى الله عليه وسلم: ((أصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلى نَفْسِي طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحَدٍ من خلقك)).

وكان يدعو ((يا مُقلِّب القلوبِ ثبِّتْ قَلْبي على دِينك)) يعلم صلى الله عليه وسلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل، لا يملك هو منه شيئًا، وأن الله عز وجل يصرِّفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]؛ ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلةً، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربِّه عزَّ وجل.

• جملة نعت الفقير حقًّا أنه المتخلي من الدنيا تظرُّفًا، والمتجافي عنها تعفُّفًا، لا يستغني بها تكثُّرًا، ولا يستكثر منها تملُّكًا، وإن كان مالكًا بهذا الشرط لم تضرَّه؛ بل هو فقيرٌ غِناه في فقره، وغنيٌّ فقرُه في غِناه.

ومن نعته أنه يعمل على موافقة الله في الصبر والرِّضا والتوكُّل والإنابة، فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه، خاضِعٌ متواضِعٌ، سليم القلب، سَلِس القيادة للحقِّ، سريع القلب إلى ذكر الله، بريءٌ من الدعاوى، لا يدَّعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهِدٌ في كلِّ ما سوى الله، راغبٌ في كلِّ ما يُقرِّب إلى الله، قريبٌ من الناس، أبعدُ شيءٍ منهم، يأنَسُ بما يستوحشون منه، ويستوحش ممَّا يأنسون به، مُتفرِّدٌ في طريق طلبه، لا تُقيِّده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، ولا يأسَف على مفقود.

مَن جالسَه قرَّتْ عينُه به، ومَن رآه ذكَّرته رؤيتُه بالله، قد حمل كلَّه ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكفَّ أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته، وسبَّل لهم عرضه ونفسه لا معاوضة ولا لذلة وعجز، لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه، وصفه الصدق والعِفَّة والإيثار والتواضُع والحِلْم والوقار والاحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عِوَضًا، ولا مدحة، لا يعاتب، ولا يخاصم، ولا يطالب، ولا يرى له على أحدٍ حقًّا، ولا يرى له على أحدٍ فضلًا، مقبل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

[كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين].

الغِنى بالله عز وجل:

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ليس الغِنى عن كثرة العَرَضِ؛ ولكن الغِنى غِنَى النفسِ))، ومتى استغنت النفس استغنى القلب...وفي القلب فاقة عظيمة، وضرورة تامَّة، وحاجة شديدة، لا يسدُّها إلا فوزه بحصول الغِنى الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كُلُّ شيءٍ، وإن فاتَه فاتَه كُلُّ شيء، فكما أنه سبحانه الغنيُّ على الحقيقة ولا غنيَّ سواه، فالغِنى به هو الغِنى في الحقيقة ولا غِنى بغيره البتة، فمن لم يستغنِ به عمَّا سواه تقطَّعَتْ نفسُه على السوى حسرات، ومَن استغنى به زالَتْ عنه كلُّ حسرة، وحضره كُلُّ سرورٍ وفرحٍ، والله المستعان.

والغِنى بالحق تبارك وتعالى عن كلِّ ما سواه، وهي أعلى درجات الغِنى، فأول هذه الدرجة: أن تشهد ذِكْرَ الله عز وجل إيَّاك قبل ذِكْرِك له، وأنه تعالى ذَكَرَكَ فيمن ذكَرَه من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدَّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونِعَمه عليك حيث لم تكن شيئًا البتة، وذكرك سبحانه بالإسلام فوفَّقك له واختارك له دون مَن خذله، قال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]، فجعلك أهلًا لما لم تكن أهلًا له قط؛ وإنما هو الذي أهَّلَك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكُلِّ جميلٍ أولاكَهُ لم يكن لك إليه سبيل.

ومَن الذي ذكَّرك باليقظة، حتى استيقظتَ، وغيرُك في رقدةِ الغفلةِ معَ النوَّام؟! ومَن الذي ذكَّرك سواه بالتوبة حتى وفَّقك لها، وأوقعها في قلبك، وبعث دواعيك عليها، وأحيا عزماتك الصادقة عليها، حتى تُبتَ إليه، وأقبلت عليه، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذَّتها؟! ومَن الذي ذكَّرك سواه بمحبَّته حتى هاجَتْ من قلبك لواعجها، وتوجَّهت نحوه سبحانه ركائبُها، وعمر قلبك بمحبَّته بعد طول الخراب، وآنسك بقُرْبه بعد طول الوحشة والاغتراب؟! ومَن تقرَّب إليك حتى تقرَّبْتَ إليه، ثم أثابَكَ على هذا التقرُّب تقرُّبًا آخر، فصار التقرُّب منك محفوفًا بتقرُّبَين منه تعالى: تقرُّب قبله، وتقرُّب بعده، والحبُّ منك محفوفًا بحبَّين منه: حبٍّ قبله، وحُبٍّ بعده، والذكر منك محفوفًا بذِكْرين: ذِكْرٍ قبله، وذِكْرٍ بعده.

فلولا سابق ذِكْره إياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرة ممَّا وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكُّل عليه والإنابة إليه والتقرُّب إليه، فهذه كلها آثاره ذكره لك.

ثم إنه سبحانه ذكَّرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونَفَس نِعَمٌ عديدة ذكَّرك بها قبل وجودك، وتعرَّف بها إليك، وتحبَّب بها إليك، مع غِناه التامِّ عنك وعن كل شيء، وإنما ذلك مُجرَّد إحسانه وفضله وجُوده، وإذا هو الجواد المحسن لذاته، لا معاوضة، ولا لطلب جزاء منك، ولا حاجة دَعَتْه إلى ذلك، كيف وهو الغَني الحميد؟! فإذا وصل إليك أدنى نِعَمه منه، فاعلم أنه ذكَّرك بها، فلتعظُم عندك لذكره لك بها، فإنه ما حقرك مَن ذكَّرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبَّب إليك بنِعْمَتِه، هذا كُلُّه مع غِناه عنك.

الدرجة الثانية من درجات الغِنى بالله: دوام شهود أوَّليته تعالى...فالعبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإله الحق الكامل في أسمائه وصفاته، الغني بذاته عما سواه، الحميد المجيد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده، فهو معبودٌ محمودٌ حيٌّ قيُّومٌ، له المُلْك، وله الحمدُ في الأزل والأبَدِ، لم يَزَلْ ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، وكل شيء سواه فإنما كان به، وهو تعالى بنفسِه ليس بغيره، فهو القيُّوم الذي قيام كل شيءٍ به، ولا حاجة به في قيُّومته إلى غيره بوجه من الوجوه، فإذا شهد العبدُ سبقَه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق، وغاب بهذا عمَّا سواه من المحدثات.

وليس هذا مختصًّا بشهودِ أوَّليته تعالى فقط؛ بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الربِّ جَلَّ جلالُه يُستغنى بها بقَدْرِ حظِّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها.

الدرجة الثالثة من درجات الغِنى بالربِّ جَلَّ جلالُه: الفوز بوجوده: هذا الغنى أعلى درجات الغِنى.... فمَنْ طلب الله بصِدْق وَجَدَه، ومَن وَجَدَه أغناه وجودُه عن كلِّ شيءٍ...ومَن وَصَل إلى هذا الغِنى قرَّت به كلُّ عين؛ لأنه قرَّت عينُه بالله والفوز بوجوده، ومَن لم يصل إليه تقطَّعَت نفسُه على الدنيا حسرات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن أصبحَ والدنيا أكبرُ همِّه جعل اللهُ فقرَهُ بين عينيه، وشتَّت عليه شملهُ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصبحَ والآخرة أكبرُ همِّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شَمْلَه، وأتَتْهُ الدُّنْيا وهي راغمة...)).

فهذا هو الفقر الحقيقي والغِنى الحقيقي، وإذا كان هذا غِنى مَنْ كانت الآخرةُ أكبرَ همِّه، فكيف من كان الله عز وجل أكبر همِّه، فهذا من باب التنبيه والأولى.

[كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين].

مراقبة الله جل جلاله:

السكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرُها على الجوارح.

وثمرة هذه السكينة: الطمأنينة للخير تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهةً تعارض الخير، ولا إرادةً تعارض الأمر؛ بل لا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة مرور الوساوس الشيطانية التي يُبْتلى بها العبد؛ ليقوى إيمانُه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردِّها وعدم السكون إليها، فلا يظُن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

وأسبابها الجالبة لها: استيلاء مراقبة العبد لربِّه عز وجل حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء، والسكينة، والمحبة، والخضوع، والخشوع، والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبةُ أساسُ الأعمال القلبية كلِّها، وعمودُها الذي قيامها به.

[كتاب: أعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين].

عدم الأمن مِن مَكْر الله جل وعلا:

الذي يخافه العارفون بالله من مكره: أن يؤخِّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترارٍ، فيأنسوا بالذُّنوب، فيجيئهم العذاب على غِرَّةٍ وفترة.

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلَّى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته فيُسرِع إليهم البلاءُ والفتنةُ، فيكون مكرُه بهم تخلِّيه عنهم، وأمرٌ آخرُ: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون، وأمر آخرُ: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيُفتنون به، وذلك مكر.

[كتاب: الفوائد].

حُسْن الظنِّ بالله عز وجل:

حُسْن الظَّنِّ يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربِّه أنه يُجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المُسيء المُصِرُّ على الكبائر والظلم فإن وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظَّنِّ بربِّه.

وحسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدل السيئة الحسنة، واستقبل بقيَّة عمره بالخير والطاعة... فحسن الظَّنِّ إن حمل على العمل، وحثَّ عليه، وساق إليه، فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

كثير من الجُهَّال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمرَه ونهيَه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وربَّما اتَّكَل بعضُ المغترين على ما يرى مِن نِعَم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغيِّر ما به، ويظن أن ذلك من محبَّة الله له...وهذا من الغرور، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا رأيتَ اللهَ عز وجل يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]

• أحسن الناس ظنًّا بربِّه أطوعهم له... وكلما حَسُن ظنُّه حَسُن عملُه.

[كتاب: الداء والدواء].

المبحث الثالث: الإخلاص (٤٦)

معنى الإخلاص: خلص خلوصاً خلاصاً، أي صفى وزال عنه شوبه، وخلص الشيء صار خالصاً، وخلصت إلى الشيء وصلت إليه، وخلاص السمن ما خلص منه.

فكلمة الإخلاص تدل على الصفاء والنقاء والتنزه من الأخلاط والأوشاب.

والشيء الخالص هو الصافي الذي ليس فيه شائبة مادية أو معنوية.

وأخلص الدين لله قصد وجهه وترك الرياء. وقال الفيروز أبادي: أخلص لله ترك الرياء.

كلمة الإخلاص كلمة التوحيد، والمخلصون هم الموحدون والمختارون، وأما تعريف الإخلاص في الشرع فكما قال ابن القيم - رحمه الله -: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، أن تقصده وحده لا شريك له.

وتنوعت عبارات السلف فيه، فقيل في الإخلاص:

- أن يكون العمل لله تعالى، لا نصيب لغير الله فيه.

- إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

- تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

- تصفية العمل من كل شائبة.

المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عزوجل، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله.

قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾.

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، أحسن عملاً أي أخلصه وأصوبه.

قيل للفضيل بن عياض الذي ذكر هذا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل وإن لم يكن خالصاً وكان صواباً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون موافقاً للسنة، ثم قرأ: ﴿فمن كان يرجو رحمة ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

وقال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾، يعني أخلص القصد والعمل لله، والإحسان متابعة السنة، والذين يريدون وجه الله فليبشروا بالجزاء ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾، ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾، ﴿وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى﴾.

وأما أهل النقيض وأهل الرياء فإن الله ذمهم وبيّن عاقبتهم ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾، ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾، ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾، ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾.

وقد مدح الله المخلصين: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾، ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾، ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾.

في غزوة أحد أراد الله الابتلاء والتمحيص ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات))، إنه أهم حديث، علمنا إياه صلى الله عليه وسلم في كل شيء، في الصلاة، والصيام، والحج وغيرها..

قال صلى الله عليه وسلم: ((من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى))، كذلك فإن بعث الناس على حسب نياتهم: ((إنما يبعث الناس على نياتهم)).

أهمية الإخلاص

١. النجاة تكون بسببه في الآخرة.

٢. اجتماع القلب في الدنيا وزوال الهم لا يكون إلا به: ((من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر عليه)).

٣. مصدر رزق عظيم للأجر وكسب الحسنات ((إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك)) {رواه البخاري}.

٤. ينجي من العذاب العظيم يوم الدين، فقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم عن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة، وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقارئ تعلم العلم وعلمه ليقال عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء..، وهذا الحديث حدث به أبو هريرة فكان يغشى عليه من هوله كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى استطاع التحديث به. وفي مجال عدم الإخلاص في طلب العلم يقول صلى الله عليه وسلم: ((من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة))، وقال: ((من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار)).

الإخلاص يريح الناس يوم يقول الله للمرائين اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء.

الإخلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل غزى يلتمس الأجر والذكر فقال لا شيء له«ثلاثاً» إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه.

ابن مكرز رجل من أهل الشام قال: يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال صلى الله عليه وسلم: لا أجر له. فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهمه فقال له لا أجر له.

قال الله- تعالى - في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)).

كذلك الإخلاص هو أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل له، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله هباء ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾.

قال ابن المبارك: ((رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كبير تصغره النية)).

الإخلاص مهم جداً، لأن أغلب الناس يعيشون في صراعات داخلية ويعانون من أشياء، فحرموا البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر وتعلم العلم إلا من المخلصين، الإخلاص مهم في إنقاذنا من الوضع الذي نعيش فيه، فقد أصبح عزيزاً نادراً قليلاً، مشاريع ودعوات تلوثت بالرياء، حركات إسلامية دمرت بسبب افتقاد الإخلاص وبعد أن أريد بها الرئاسة والجاه والمال..

يقول ابن أبي جمرة وهو من كبار العلماء: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

ومن فوائد الإخلاص أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات، قال أحد السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله. لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب للمهمات مطلوب شرعاً.

النية عند الفقهاء: تمييز العبادات عن العادات وتمييز العبادات عن بعضها البعض، إرادة وجه الله عز وجل.

الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه)).

الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة للذنوب، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه فيغفر فيه كبائر، وإلا فأهل الكبائر كلهم يقولون لا إله إلا الله. كالبغي التي سقت كلباً فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها.

تنفيس الكروب لا يحدث إلا بالإخلاص، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همّهم، وكان منهم الرجل الذي وفى عاملاً أجره ونماه وصبر على ذلك سنين، وقد كان يقول كل واحد منهم اللهم إنك إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

وبالإخلاص يرزق الناس الحكمة، ويوفقون للصواب والحق ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾.

وبالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه، بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر)) {رواه البخاري}. وفي مسلم: إلا شاركوكم في الأجر.

بالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقيه، وهو نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك..

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حرز من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السلام من امرأة العزيز ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾، ﴿إلا عباد الله المخلصين. أولئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنات النعيم﴾.

الإخلاص في التوحيد:

قال صلى الله عليه وسلم: ((ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر)).

في السجود:

قال صلى الله عليه وسلم: ((ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عن خطيئة)).

في الصيام:

قال صلى الله عليه وسلم: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) ، ((من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)).

في قيام الليل:

قال صلى الله عليه وسلم: ((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)).

الإخلاص في ترك الحرام، المحبة في الله، الصدقة ...

(حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله).

الإخلاص في الخروج إلى المساجد

((خرج للمسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت به خطيئة، فإن صلى ما دامت الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة)).

الإخلاص في طلب الشهادة:

((من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)).

الإخلاص في اتباع الجنائز:

((من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد ومن صلى ثم رجع قبل أن يدفن فإنه يرجع بقيراط)).

الإخلاص في التوبة:

((قصة قاتل المئة نفس وملائكة الرحمة)).

الإنسان يحتاج أن يبين لنفسه بالكلام أشياء مما ينويه حتى يزداد أجره كرجل ليس لديه مال فيقول لو كان لي مثل هذا عملت مثلما يعمل. قال صلى الله عليه وسلم: ((فهما في الأجر سواء)).

لقد مر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرتهم نبراساً لمن بعدهم وقدوة وخيراً، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهم وعلى رأس هؤلاء الأنبياء، النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحواريو الأنبياء والصحابة الذين فتحوا البلاد بإخلاصهم ومن بعدهم من التابعين..

يقول عبدة بن سليمان: كنا مع سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فلما التقى ساعة فطعنه ازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو يلثم وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: لائماً أعنت يا أباعمر ممن يشنع علي؟.

يقول الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة وما يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به، ولقد أدركت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه في السر فيكون علانية أبداً.

لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾.

يقول علي بن مكار البصري الزاهد: ((لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلاناً أخاف أن أتصنع له فأسقط من عين الله)) فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات.

قال الذهبي: يقول ابن فارس عن أبي الحسن القطان: ((أصبت ببصري وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة)) قال الذهبي: صدق والله فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام وإظهار المعرفة.

قال هشام الدستوائي: ((والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عزوجل)).

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وما بين الناس)).

ومن عجائب المخلصين ما حصل لصاحب النفق، حاصر المسلمون حصناً واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين وحفر نفقاً فانتصر المسلمون، ولا يُعرَف من هو هذا الرجل، وأراد مَسْلَمَة أن يعرف الرجل لمكافأته، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه طارق بليل وسأله شرطاً وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبداً، فعاهده، وكان يقول: ((اللهم احشرني مع صاحب النفق)).

وعمل الخلوة كان أحب إلى السلف من عمل الجلوة.

يقول حماد بن زيد: كان أيوب ربما حدث في الحديث فيرقّ وتدمع عيناه، فيلتفت وينتخط ويقول ما أشد الزكام!!، فيظهر الزكام لإخفاء البكاء.

قال الحسن البصري: ((إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها، فإذا خشي أن تسبقه قام وذهب وبكى في الخارج)).

يقول محمد بن واسع التابعي: ((إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم)).

للإمام الماوردي قصة في الإخلاص في تصنيف الكتب، فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يظهر شيء في حياته، لما دنت وفاته قال لشخص يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما إذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل، وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت مني وأني ظفرت بما أرجوه من النية الخالصة، فلما حضرته الوفاة بسط يده، فأظهرت كتبه بعد ذلك.

كان علي بن الحسن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين بالظلمة، فالصدقة تطفيء غضب الرب، وكان أهل بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات عرفوا، ورأوا على ظهره آثاراً مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل فكان يعول ١٠٠ بيت.

تلك الأحوال والقصص أظهرها الله ليكون أصحابها أئمة ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾.

وهكذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقيام الليل، وهكذا صام داوود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله، فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء..

وهذا أعرابي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال له أهاجر معك، فغنموا بعد خيبر وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا بسهم فأموت فأدخل الجنة. قال صلى الله عليه وسلم: ((إن تصدق الله يصدقك))، فلبثوا قليلاً وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقيل أهو أهو قال صلى الله عليه وسلم: ((صدق الله فصدقه)) فكُفِّن في جبة النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ((اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك وقتل شهيداً أنا شهيد على ذلك)).

ماذا قال بعض العلماء في الإخلاص؟

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة.

قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، وإن أعجبه الصمت فلينطق. فإن خشي المدح فليصمت، ولا يفتر عن محاسبة نفسه، فإنها تحب الظهور والثناء.

سُئِل سهل بن عبد الله التستوري: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب. فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس.

قال سفيان: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي، إنها تنقلب علي. إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء، وهذا طبيعي أن يشعر أنه في صراع لا تسلم له نفسه دائماً فهو يتعرض لهجمات من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهذا فيه خير، أما من اطمأنت نفسه بحاله فهذه هي المشكلة.

قال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل.

قال الزبيد اليامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء، حتى في الطعام والشراب.

عن داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك به خيراً وإن لم تنضب. أي حتى وإن لم تتعب، فإن ما حصلته من اجتماع نفسك له وإخراج حظوظ النفس من قلبك هذا أمر عظيم.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيام، بل بشيء وقر في قلبه.

قال داود: البر همة التقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

قيل لنافع بن جبير: ألا تشهد الجنازة فقال: كما أنت حتى أنوي. أي انتظر حتى أجاهد نفسي.

قال الفضيل: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك.

ومن أصلح لله سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وما بين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

ومما قيل في الإخلاص:

- نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

- إفراد الحق سبحانه بالقصد والطاعة.

- استواء عمل الظاهر والباطن.

- من تزين للناس فيما ليس منه سقط من عين الله.

- إنه سر بين الله والعبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، والله قد يعلم الملائكة ما يشاء من أحوال العبد.

- الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً إلا الله، وإذا داوم عليه الإنسان رزقه الله الحكمة.

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

قال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرياء.

كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم عنها زوجة ولا غيرها. وأعز شيء في الدنيا الإخلاص.

يقول يوسف بن الحسين: كم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي فينبت لي على لون آخر.

وكان من دعاء مطرف بن عبد الله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفِ لك به، وأستغفرك مما زعمت أنني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمته.

تنبيهات في مسألة الإخلاص

١. متى يكون إظهار العمل مشروعاً؟

قال ابن قدامة: {فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات} قال: وفي الإظهار فائدة الاقتداء، ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد، والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به {إذاً ينبغي أن نحسن نياتنا في الأعمال المظهرة لندفع الرياء وننوي الاقتداء لنأخذ الأجر}، قال ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، ومثل الذي يظهره وهو ضعيف كمثل إنسان سباحته ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل إليهم فتشبثوا به وغرقوا جميعاً.

المسألة فيها تفصيل:

- الأعمال التي من السنة أن يكون عملها سرّاً يسرّ.

- الأعمال التي من السنة أن يظهرها يظهرها.

- الأعمال التي من الممكن أن يسرها أو يظهرها، فإن كان قوياً يتحمل مدح الناس وذمهم فإنه يظهرها وإن كان لا يقوى فيخفي، فإذا قويت نفسه فلا بأس في الإظهار لأن الترغيب في الإظهار خير.

ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يظهرون بعض أعمالهم الشريفة ليقتدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين الاحتضار ((لا تبكوا عليّ، فإني ما لفظت سيئة منذ أسلمت)).

قال أبو بكر بن عياش لولده ((يا بني، إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة، فإني ختمت القرآن فيها اثنتا عشرة ألف ختمة)) من أجل موعظة الولد، فمن الممكن أن يظهر المرء أشياء لأناس معينين مع بقاء الإخلاص في عمله لقصد صالح.

٢. ترك العمل خوف الرياء، وهذا منزلق كشفه الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. قال النووي: «من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مرائي»، لأنه ترك لأجل الناس، لكن لو ترك العمل ليفعله في الخفاء. فمن ترك العمل بالكلية وقع في الرياء، وكذلك من كان يستحب في حقه إظهار العمل فليظهره كأن يكون عاملاً يقتدى به أو أن العمل الذي يعمله المشروع فيه الإظهار.

٣. أن من دعا إلى كتم جميع الأعمال الصالحة من جميع الناس؛ هذا إنسان خبيث وقصده إماتة الإسلام، لذلك المنافقون إذا رؤوا أمر خير وسموه بالرياء، فهدفهم تخريب نوايا المسلمين وأن لا يظهر في المجتمع عمل صالح، فهؤلاء ينكرون على أهل الدين والخير إذا رؤوا أمراً مشروعاً مظهراً، خصوصاً إذا أظهر عمل خير معرض للأذى، فيظهره احتسابا لإظهار الخير، فيستهدفه هؤلاء المنافقون، فليصبر على إظهاره ما دام لله، قال تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾.

ينبغي أن نفرق بين الرياء ومطلق التشريك في العمل، فمتى يبطل العمل؟ إذا حصل تشريك فيه، ومتى يأثم؟ ومتى لا يأثم؟

١- أن يعمل لله ولا يلتفت إلى شيء آخر (أعلى المراتب).

٢- أن يعمل لله ويلتفت إلى أمر يجوز الالتفات إليه، مثل رجل صام مع نية الصيام لله أراد حفظ صحته، ورجل نوى الحج والتجارة، ورجل جاهد ونظر إلى مغانم، ورجل مشى إلى المسجد وقصد الرياضة، ورجل حضر الجماعة لإثبات عدالته وألا يتهم، فهذا لا يبطل الأعمال، ولكن ينقص من أجرها، والأفضل أن لا تكون موجودة ولا مشركة في العمل ولا داخلة فيه أصلاً.

٣- أن يلتفت إلى أمر لا يجوز الالتفات إليه من الرياء والسمعة وحمد الناس طلباً للثناء ونحو ذلك:

أ- إذا كان في أصل العمل فإنه يبطله، كأن يصلي الرجل لأجل الناس.

ب- أن يعرض له خاطر الرياء أثناء العمل فيدافعه ويجاهده، فعمله صحيح وله أجر على جهاده.

جـ - أن يطرأ عليه الرياء أثناء العمل ولا يدافعه ويستمر معه، وهذا يبطل العمل.

٤- أن يكون عمله الصالح للدنيا فقط، فيصوم لأجل الحمية والرجيم ولا يطلب الأجر، ويحج للتجارة فقط، ويخرج زكاة أموال لتنمو، ويخرج للجهاد للغنيمة، فهؤلاء أعمالهم باطلة ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم﴾، ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها﴾

٥- أن يكون عمله رياءً محضاً، وبالرياء يحبط العمل بل ويأثم به الإنسان، لأن هناك أشياء تبطل العمل ولا يأثم صاحبها كخروج ريح أثناء الصلاة، ومن الناس من يرائي في الفتوى للأغنياء والوجهاء وقد يكون لضعفه أمامهم، فقال بعض السلف: ((إذا رأيت العالم على أبواب الغنى والسلطان فاعلم أنه لص))، أما الذي يذهب لقصد الإنكار والخير فلهو ما نوى.

هناك أشياء تظن من الرياء وليست منه:

- إذا حمدك الناس على الخير بدون قصد فهذا عاجل بشرى المؤمنين.

- رجل رأى العابدين فنشط للعبادة لرؤيته من هو أنشط منه.

- تحسين وتجميل الثياب والنعل وطيب المظهر والرائحة.

- كتم الذنوب وعدم التحدث بها ، فبعض الناس يظن أنك حتى تكون مخلصاً لابد من الإخبار بالذنوب، نحن مطالبون شرعاً بالستر، وكتم الذنوب ليس رياءً بل هو مما يحبّه الله، بل إن ظن غير ذلك تلبيس من الشيطان وإشاعة للفاحشة وفضح للنفس.

- اكتساب شهرة بغير طلبها، كعالم اشتهر وقصده منفعة الناس و بيان الحق ومحاربة الباطل والرد على الشبهات ونشر دين الله، فإن كانت هذه الأعمال وجاءت الشهرة تبعاً لها وليست مقصداً أصلياً فليس من الرياء.

- ليس من الرياء أن يشتهر المرء، ولكن الشهرة يمكن أن توقع في الرياء!!

علامات الإخلاص

١. الحماس للعمل للدين.

٢. أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.

٣. المبادرة للعمل واحتساب الأجر.

٤. الصبر والتحمل وعدم التشكي.

٥. الحرص على إخفاء العمل.

٦. إتقان العمل في السر.

٧. الإكثار من العمل في السر.

المبحث الرابع: الشكر (٤٧)

لماذا الحديث عن الشكر؟

من الأسباب التي دعتني إلى الكتابة في مثل هذا الموضوع ما يلي:

١. الشكر أصل من أصول الإيمان التي يجب العمل بها، فكما قيل: الإيمان نصفان، نصف شكر، ونصف صبر.

٢. ورود نصوص كثيرة من القرآن والسنة تحثنا على الشكر، وتحذرنا من الجحود.

٣. قلة السالكين في طريق الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

٤. انتشار ظاهرة الإسراف والتبذير في مجتمعنا مما قد يؤذن بأن ما نحن فيه من نعم في خطر، فلنتنبه جيدًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٥. غفلة كثير من الناس عن مثل هذا الموضوع، وعده نافلة من نوافل القول والعمل.

٦. إن الشكر من أخلاق الأنبياء، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

٧. إن الله وعد الشاكرين بالمزيد، والجاحدين بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

٨. عدم شكر النعم هدف يسعى الشيطان إلى تحقيقه. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

٩. الشكر يجلب النعم ويزيدها، ويدفع حلول النقم.

١٠. مدى أهمية حاجتنا إلى معرفة نعم الله علينا، فنرد الجميل إلى المنعم بالشكر والعرفان بفضله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

١١. إن كثيراً من النعم - وللأسف الشديد - استعملت في معصية الله، وهذا من أشد أنواع الجحود والكفران.

تعريف الشكر

الشكر لغة:

مصدر شكر يشكر، وهو عرفان الإحسان ونشره. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل. والشكور: كثير الشكر، والجمع شُكُر، وفي التنزيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وهو من أبنية المبالغة.

وأما الشكور في صفات الله عز وجل فمعناه أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء، وشكره لعباده مغفرته لهم، وقولهم: (شكر الله سعيه) أي بمعنى أثابه الله على ذلك.

الشكر اصطلاحًا:

قال ابن القيم رحمه الله: الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة.

وقال السعدي رحمه الله في تفسيره: (الشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية).

وعرفه آخرون بقولهم: الشكر هو الثناء على المنعم بما أولاكه من معروف.

حقيقة الشكر

إن حقيقة الشكر لا يمكن لنا أن نحيط بها إلا إذا أمعنا النظر في النعم وعرفنا قيمتها إذ لو فقدت مثلاً، ولكن قبل هذا وذاك دعونا نتأمل ما قاله صاحب كتاب «إذا صح الإيمان» عن حقيقة الشكر فيقول: «إذا صح إيمان العبد قامت في قلبه حقيقة الشكر لله والاعتراف له بالفضل والمنة واستشعر قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. واستحضر أن كل ما به من قوة وسمع وبصر وحركة وقدرة، وذكاء وعقل، وأكل وشرب، ونفس، وأن ما احتوى عليه هذا الجسم من خلايا وعروق، وأنسجة وأعصاب، وما يجري فيه من دماء، أن كل ذلك وغيره مما نعلم ومما لا نعلم أنه من الله وبتدبيره وفضله، ورعايته وحفظه، ليس فقط على المتقين، بل على الناس أجمعين؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾.

ويقول أيضًا: «إن من قامت في قلبه حقيقة الشكر استشعر أنه بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار».

فضل الشكر

لقد ذكر الله الشكر في أكثر من خمسين موضعًا من كتابه الكريم، فمرة قرنه سبحانه بالإيمان به وأخبر أنه لا غرض ولا حاجة له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

وتارة أخرى يخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

بل إن الله وصف عباده الشاكرين بأنهم قلة من عباده فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، ومما يدل على فضل الشكر وعلو منزلته أن رضا الله معلق بالشكر.

يقول ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة ((الرضا)) وزيادة؛ فالرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها).

وعلق سبحانه زيادة النعم بشكره عليها ومن جحدها كان له العذاب الشديد من الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾؛ فبين سبحانه أنه متى ما شكرت نعمه يزيدك بغير حساب، وزيادته لا حد لها، كما أنه لا نهاية لشكره.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرجل من همذان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا».

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: ((يا معاذ، والله إني لأحبك ثم أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))؛ فهذا الحديث يدل على عظم منزلة الشكر وفضله، إذ جعل الشكر مدار الخير وعنوانه، ولهذا أوصى معاذًا بطلب العون من الله على هذه العبادة، وجعل موضع الطلب في دبر كل صلاة تشريفًا، وتكرار الطلب في اليوم خمس مرات دلالة على أهميته وفضله.

الشيطان يحول بينك وبين الشكر

ولما عرف عدو الله إبليس اللعين قدر مقام الشكر وفضله، وأنه من أجل المقامات وأرفعها، جعل غايته ومناه أن يحول بين العباد وبين الشكر، وصرفهم عنها بأي وسيلة كانت، فعندما أمره الله سبحانه وتعالى بالسجود لآدم عليه السلام امتنع للاستجابة لهذا الأمر، فطرده وجعله من الملعونين وتوعده بدخول النار، ولكنه لم يكتف بسماع أوامر الطرد والإبعاد، وإنما قام بكل وقاحة وخبث بسرد خطته لإغواء بني آدم.

يقول الله تعالى: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؛ فهنا يكشف إبليس حقيقة تخفى على كثير من الناس وهي أن معظم الناس لا يقومون بشكر الله والناجي منهم هو الذي يقوم بأداء الشكر.

يقول الشيخ: عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطريقة التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة».

وذكر الأستاذ: سيد قطب رحمه الله كلامًا لطيفًا حول هذه الآية فقال: «ويجيء الشكر تنسيقًا مع ما سبق في مطلع السورة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]، لبيان السبب الحقيقي في قلة الشكر، وكشف الدافع الحقيقي الخفي من حيلولة إبليس دونه، وقعوده على الطريق إليه، ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الشكر والهدى».

أمور معينة على الشكر

الأمور المعينة على الشكر كثيرة، ولكن نجملها في هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر لها:

١. إمعان النظر في كثرة النعم التي نرفل فيها ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، وأننا مطالبون بشكر الله عليها سواءً كانت حسية أو معنوية.

٢. النظر في أمور الدنيا إلى من هو دونك، وإلى أمور الآخرة في من فوقك، كما أرشدنا إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

٣. مقارنة ما نحن اليوم فيه من النعم وبين ما كان عليه سلفنا وأجدادنا في الماضي.

٤. التحدث بالنعم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ قال الحسن البصري: «أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر».

٥. الاقتصاد في النعمة وصرفها في الخير.

٦. النظر في سير الصالحين، وكيف كانوا يشكرون الله على نعمه.

٧. زيارة دور الإعاقة والمصحات النفسية وغيرها، والنظر في حال أولئك المرضى لنستشعر قيمة ما نحن فيه من نعم كثيرة قلّ لها شكرنا.

٨. محبة النعمة واحترامها طريق إلى الشكر.

٩. تذكر الماضي من جاهلية وضلال وفقر، وكيف توالت عليك نعم الله، قال تعالى مذكرًا نبيه - صلى الله عليه وسلم - بعض نعمه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾.

١٠. التفكر في حقيقة الشكر.

كيف يتحقق الشكر لله؟

لكي يتم لك تحقيق الشكر على أكمل وجه لا حظ أن الشكر يقوم على ثلاثة أركان وهي:

الركن الأول: الاعتقاد الصادق بالقلب بأن الله وحده هو واهب النعم فيزداد معها حبك للمنعم، لأن القلوب جبلت على محبة من أحسن إليها.

الله أكبر!! كم يكون حبنا لله مقابل نعمه علينا، وهو الذي قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

الركن الثاني: الاعتراف باللسان، أي بالتحدث بالنعمة ونسبتها إلى منعمها وكثرة الحمد والثناء عليه كلما لاحت لنا نعمة نقول: الحمد لله.. الحمد لله.

الركن الثالث: استعمال النعم في طاعة الله وبذلها فيما يرضيه، وكفها عن معاصيه، فليحذر المسلم من أن يستعين بنعم الله على معاصيه، أو يتقوى بها لبلوغ شهواته فهذا عين النكران والجحود.

الشكر والبلاء

اعلم أن النعمة ليست وحدها التي تستحق الشكر فقط، بل اعلم أن في كل فقر ومرض وخوف وأي بلاء في الدنيا كان خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر الله عليها:

الأولى: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون هناك أكثر منها شناعة وفداحة، لأن مقدرات الله لا تتناهى، فلو ضاعفها الله على العبد فما كان يمنعه؟! فليشكر العبد ربه إذ لم تكن أعظم.

الثانية: أن المصيبة لم تكن في الدين، قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال، اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد عليك إيمانك ماذا كنت تصنع؟!

الثالثة: أنه ما من عقوبة أو مرض إلا كانت للمؤمن كفارة له ورفعة في درجاته يوم القيامة، كما جاء ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه))؛ [متفق عليه]

الرابعة: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ولا بد أن تصل إليه، فقد وصلت ولم يعدم الرضا، واستراح منها، فهي نعمة.

الخامسة: أن الابتلاء دلالة على محبة الله للعبد، ويبتلى المؤمن على قدر إيمانه.؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)).

قال الغزالي: رحمه الله: «وكل عبد سئل عن حاله فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء؟! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو القادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل».

أخي المسلم: إذا أصبت ببلاء فعليك بالصبر والشكر، ثم وإياك والتسخط والضخر، (واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك).

موانع الشكر

الأمور التي تمنع المسلم من الشكر وتصرفه عن هذه العبادة كثيرة، ومنها:

١. عدم استشعار قيمة النعمة، وما ذاك إلاّ أنه لم يذق طعم حرمانها، أو لجهله بحقيقة الشكر.

٢. الغرور بدوام النعمة، وكثرة التقلب فيها، فيغفل عن زوالها أو مفارقته إياها.

٣. طلب المثالية في النعم، فإما أن يطلب المستحيل أو ما ليس له وجود على أرض الواقع فيشغل نفسه عن شكرها.

٤. عدم القناعة بما هو فيه من نعمة، فتجده ينظر إلى من هو أحسن منه حالاً وأوفر نعمة، فيزدري نعمة الله عليه فلا يرى لها حق شكر عليه.

٥. الأمن من مكر الله، فترى كثيراً من ضعاف الإيمان ينظر إلى الكفرة والطغاة وهم يرفلون بوافر من النعم مع ما هم عليه من الكفر والطغيان، فيأمن على نفسه، لأنه يرى أنه أحسن منهم حالاً.

٦. عدم أخذ العظة والعبرة ممن حُرم بعض النعم، إما وُلد فاقدًا لها، أو قدر الله عليه بحادث أفقده بعض ما كان ينعم به.

٧. الكِبر والبطر، فتجد بعض من اغتنى بعد فقر يرى أنه اغتنى على استحقاق منه، كما قال تعالى على لسان قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

٨. الاستهزاء بأصحاب البلاء وعدم ذكر الدعاء الوارد عند رؤية المبتلى.

العلاقة بين الحمد والشكر

الفرق بين الحمد والشكر محل نزاع بين أهل العلم واللغة، فمنهم من قال: أن الشكر مثل الحمد إلاّ أن الحمد أعم منه، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة، وعلى معروفه ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته.

قال ثعلب: «الشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد»، وقال القرطبي: «وتكلم الناس في الحمد والشكر، هل هما بمعنى واحد؟ أو بمعنيين؟فذهب الطبري والمبرد إلى أنهما بمعنى واحد سواء، وهذا غير مرضي، والصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وهذا قول علماء اللغة الزجاج والقتبي وغيرهما».

وقال ابن القيم رحمه الله: «الحمد أخص من الشكر موردًا، وأعم منه متعلقًا، فمورد الحمد اللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها، ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة، والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب».

فالحمد لا يكون إلاّ باللسان فقط، وأما الشكر فإنك تشكر بلسانك وبقلبك بحبك له، وبفعلك تعبيراً لصاحب المعروف عن شكرك له.

التفكر يقودك إلى الشكر

فيم تفكر؟ وعلام تشكر؟

إنك إذا أطلقت العنان للفكر، واستدام بك النظر في نعم الله عليك، فلا بد أن يدفعك إلى الشكر.

دعني أحلق بك سريعًا في نظرة تأمل خاطفة لنعمة واحدة من بين سائر النعم لنرى عجيب صنع الله ومنته علينا، فمع نعمة الأكل فإلى هناك.

خلق الله لك الطعام، ومن ثم خلق لك شهوة إليه، ولا يكفي، بل خلق لك حس الذوق إذ به تعلم ما ينفعك وما يضرك، ثم خلق لك الأعضاء التي تتناول بها الأكل، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد فكيف يصل إلى بطنك؟!

فجعل لك الفم واللحيين وركب فيهما الأسنان، ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب الفم ويحرك الأكل بحسب الحاجة، ثم هذا الطعام المطحون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم؟!

فهيأ الله لك المريء والحنجرة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فكيف يصير لحمًا ودمًا؟؟!

فجعل الله المعدة كالقدر يقع فيها الطعام فينضج بالحرارة ويصير مائعًا يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد فيستقر فيها ريثما ينضج تمامًا، ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه الرجيع، فيخرج فضلة زائدة عن حاجتك إليها.

كل ذلك يصير وأنت بمجرد أن بلعت اللقمة لا تشعر بها، من أدار هذه المصانع؟؟!

وأنت لا تعرف سوى أنك تجوع فتأكل، والبهيمة تعرف أيضًا أنها تجوع فتأكل، وتتعب فتنام، فإذا أنت لم تعرف من نفسك إلاّ ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله على نعمه التي لا تحصى؟؟!

لماذا لا نشكر؟

إننا حينما نشاهد المرضى والمبتلين، وقد فقدوا الصحة والعافية، والذين يُقتّلون ويُشرّدون، وقد فقدوا نعمة الأمن والاستقرار وغيرهم، فنشكر الله على اللطف والسلامة، إذ لم نكن نحن هم، ونحضر إلى المقابر فنعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى هو أن يرجعوا إلى الدنيا ليتدارك من عصى عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، ولكن هيهات لهم.

فالواجب علينا أن نشكر الله الذي بسط علينا الحياة والصحة والفراغ لنعمل صالحًا ونتوب إليه.

معاشر الإخوة:

إن من نعم الله علينا أنه ما من أحد إلاّ ويعرف من دسائس أمور نفسه وخفاياها الكثير من القبائح والذنوب المستورة، ولو كشف الغطاء ورفع الستير ستره عنا، واطلع عليها فرد من الخلق لافتضحنا وما ربحنا، فكيف لو اطلع الناس كلهم عليها في ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فلماذا لا نشكر الله بالستر الجميل على مساوئنا حيث أظهر الجميل وستر القبيح؟

بل إننا قبل هذا وذاك نشاهد خلقًا كثيراً قد ابتلوا ببلاء أفظع وصنيع أشنع من ذلك كله، ألا وهو الانحراف في الدين والوقوع في الشرك والبدع والخرافات وفي قاذورات المعاصي، والله قد حفظك منها، فلماذا لا تشكر الله على جميل فضله وإنعامه؟

وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يترجم لنا الشكر إلى عمل، فحينما سألته أم المؤمنين - رضي الله عنها - وهي تتعجب من قيامه حتى تتفطر قدماه فتقول له: وتفعل هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: - صلى الله عليه وسلم -: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!))

اشكر الله على نعمه ولا تكفرها، واعقل ولا تغفل عن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾.

حوار مع نعمة

لو وقفت مع نفسك أخي الحبيب وقفة تدبر وتأمل وحاورت النعم التي ترفل فيها وافترضتها تقبل الحوار، فليكن هذا الحوار:

من أنتِ؟

قالت: أنا النعمة التي ترفل فيها: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ومن أين جئت إليّ؟

قالت: أتيتك من عند مولاك هبة لك، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

عددك قليل أم كثير؟

قالت: لا يحصيني إلاّ الذي خلقني: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

بم تزيدين وبم تنقصين؟

قالت: أزيد بالشكر وأنقص بالكفر، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

هل أنت خير على كل أحد؟

قالت: لا... فربما كنت نقمة في صورة نعمة: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

من المحروم منكِ؟

قالت: المحروم من فقدني أو حُرم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]؛ أي يسبغ عليهم النعم ويحرمون الشكر.

هل نُسأل عنكِ يوم القيامة؟

قالت: نعم وربي: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

الخاتمة

وبعد: فإننا والله لفي نعم كثيرة لا تقدر بثمن، ولا تجزئها أعمالنا مهما طال بنا الزمن، فإذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أعظم الشاكرين، قد اعترف بتقصيره وعجزه عن شكر نعم الله فقال رضي الله عنه: (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، فماذا نقول نحن؟!

وبعد هذا كله: اعلموا يا رعاكم الله أن الحجة قامت علينا علمنا هذا أم تجاهلنا، ولا يبقى إلاّ أن نسأل أنفسنا بكل صراحة ووضوح، ما هو حالنا مع شكر نعم الله علينا؟؟!

أخي: إذا لم تسأل نفسك اليوم وتحاسبها، فسوف تُسأل غدًا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

المبحث الخامس: في بستان الصابرين.. آيات الصبر (٤٨)

ما أحوجنا في هذا العصر إلى زاد إيماني يعيننا على العواصف والشدائد التي تجتاحنا، وما أحوجنا كذلك إلى أخلاقنا الإسلامية الرفيعة؛ كي نواجه بها شتى المصاعب والمشكلات، ومن ذلك خلق الصبر، الذي وردت فيه آيات قرآنية كثيرة.

وفي الصبر اقتداء بأشرف خلق الله ورسله الكرام الذين سماهم الله عز وجل أولي العزم، حيث خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ونحن معنيون بالخطاب معه بقوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ} [الأحقاف: ٣٥].

معنى الصبر

والصبر في اللغة: هو الحبس. وفي الاصطلاح: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو ما يقتضيان حبسها عنه، أو هو حبس النفس على ما تكره ابتغاء مرضاة الله كما قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف: ٢٨]. والصبر خلق عظيم، وله فضائل كثيرة منها أن الله يضاعف أجر الصابرين على غيرهم، ويوفيهم أجرهم بغير حساب، فكل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى: {إِنَمَا يُوَفَى الصَابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠]. مكانة الصابرين الصابرون في معية الله، فهو معهم بهدايته ونصره وفتحه، قال تعالى: {إِنّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]، وكذلك هم أهل محبته قال تعالى: {وَاللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، وفي هذا أعظم ترغيب للراغبين. وأخبر الله سبحانه وتعالى أن الصبر خير لأهله فقال سبحانه: {وَلَئِن صَبَرتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦].

ولقد خص الله تعالى الصابرين بأمور ثلاثة لم يخص بها غيرهم وهي:

أ - الصلاة من الله عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: {وَبَشّرِ الصّابِرِينَ * الّذِينَ إذا أَصَابَتهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إنّا للهِ وَإنّا إلَيهِ راجِعُونَ * أُولئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ مِن رّبِهِم وَرَحمَةٌ وَأولئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

ب- علّق الله سبحانه وتعالى الفلاح في الدنيا والآخرة بالصبر، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]، فعلّق الفلاح بكل هذه الأمور.

جـ- ربط الله تعالى خصال الخير والحظوظ العظيمة بأهل الصبر في قوله تعالى: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠]، وقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٥]. قال تعالى: { إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [هود: ١١] قال تعالى : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [هود: ٤٩] قال تعالى: { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [هود: ١١٥]

ولقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان فضل الصبر والحث عليه، وما أعد الله للصابرين من الثواب والأجر في الدنيا والآخرة، منها: عن أنس رضي الله عنه قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال: "اتقي الله واصبري"، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي -ولم تعرفه-، فقيل لها: إنه النبي، فأخذها مثل الموت، فأتت باب النبي فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك. فقال: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، فإن مفاجأة المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها، فإن من صبر عند الصدمة الأولى انكسرت حدة المصيبة وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر" [رواه البخاري ومسلم]. وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسّم مالاً فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، فأُخبر بذلك رسول الله فقال: "رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر".

ماهي أنواع الصبر؟

للصبر أنواع كثيرة:

أولها: الصبر عن المعصية، وهذا صبر الصدّيقين؛ لأن المعصية من شهوات النفس وقد تتلذذ بها، قال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢].

ثانيًا: الصبر على الطاعة، وهذا صبر المثابرين، كصبر المؤمن على الصلاة في وقتها بتمام سجودها وركوعها، قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه: ١٣٢].

ثالثًا: الصبر عند الغضب، وهذا هو صبر الأقوياء، فبالغضب نفقد أنفسنا، ولا نستردها إلا بالحلم، وأفضل علاج للغضب التشبث بالصمت، وتأجيل الرد حتى تهدأ النفس، وذكر الله فبذكر الله تطمئن النفوس. قال تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين} [آل عمران: ١٣٤].

رابعًا: الصبر عند المصيبة، وهذا هو صبر الأتقياء، فهو نور في الظلام، وثبات عند الصدمة، فمن لم يصبر على البلاء، لم يرض بالقضاء، قال تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى: {الَّذِينَ إِذا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيهِم صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ} [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

خامسًا: الصبر على البلاء، وهذا صبر المجاهدين، وهو الصبر المذكور في القرآن الكريم عزاءً للقلوب المكلومة وشفاء للنفوس الحزينة، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد: ٣١]، وقال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَى الصَابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

وهناك أنواع عدة للصبر، منها: الصبر على كتمان الأسرار، كقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ}، وقوله: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}، وقوله لابنه يوسف عليه السلام: {لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ} [يوسف: ١٨، ٨٦، ٥]. وأيضًا الصبر على سماع الأذى وتحمله ومعالجته بالهجر الجميل، قال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً} [المزمل: ١٠].

ماذا قالوا عن الصبر؟

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"، وقال أيضًا: "أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا".

وقال علي رضي الله عنه: "ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد"، ثم رفع صوته فقال: "ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له"، وقال أيضًا: "والصبر مطية لا تكبو".

وقال الحسن رضي الله عنه: "الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده".

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعوضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه".

هم أهل الفضل

للصابرين عند ربهم منزلة عظيمة فهم يلقبون يوم القيامة بـ"أهل الفضل"؛ نظرًا لما يلاقون في دنياهم من ابتلاءات فيصبرون عليها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم أهل الفضل، فيقومون وهم قليل، فيسيرون سِراعًا إلى الجنة، فتستوقفهم الملائكة وتقول: من أنتم؟ فيقولن: نحن أهل الفضل، فيقولون لهم وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا غفرنا، وإذا جُهِلَ علينا حلمنا؛ فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين".

ومن هنا كان لأسلافنا الكرام -رحمهم الله- باع طويل في توضيح أهمية تلك الأسلحة الإيمانية التي هي بمثابة جهاز مناعة للإيمان والإنسان، ومن ذلك الكلام القيم للعلامة ابن القيم الذي أورد فيه كثيراً من المواضع التي ورد بها الصبر في القرآن الكريم، ونقل عن الإمام أحمد رحمه الله قوله: "ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن الكريم في نحو تسعين موضعًا"، منها:

- الأمر به كقوله تعالى: {وَاصبِر وَمَا صَبرُكَ إلا بِاللّهِ} [النحل: ١٢٧]، وقوله تعالى: {وَاصبِر لِحُكمِ رَبِكَ} [الطور: ٤٨].

- النهي عن ضده وهو الاستعجال كقوله تعالى: {فَاصبِر كَمَا صَبرَ أُوْلُوا العَزمِ مِنَ الرُسُلِ وَلاَ تَستَعجِل لَهُم} [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: {وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ} [القلم: ٤٨].

- الثناء على أهله، كقوله تعالى: {وَالصّابِرِينَ فِي البأسَاء وَالضّراء وَحِينَ البأسِ أُولَئِكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المتُقُونَ} [البقرة: ١٧٧].

- تعليق النصر والمدد عليه وعلى التقوى، كقوله تعالى: {بَلَى إن تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُم مِن فَورِهِم هَذَا يُمدِدكُم بِخَمسَةِ آلاَفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "واعلم أن النصر مع الصبر".

- الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة وسلام الملائكة عليهم، إنما نالوه بالصبر، كما قال: {وَالملائكةُ يَدخُلُونَ عَلَيهِم مِن كُلِ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم فَنِعمَ عُقبَى الدّارِ} [الرعد: ٢٣، ٢٤].

- الإخبار أنه إنما ينتفع بآيات الله ويتعظ بها أهل الصبر، كقوله تعالى: {وَلَقَد أرسَلنَا مُوسَى بِآيَاتِنَآ أن أخرِج قَومَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النورِ وَذَكِّرْهُم بِأيَامِ اللّهِ إنَ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِ صَبّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥].

- الإخبار أن خصال الخير والحظوظ العظيمة لا يلقاها إلا أهل الصبر كقوله تعالى: {وَيلَكُم ثوابُ اللّهِ خَيرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحاً وَلاَ يُلَقَاها إلا الصَابِرُونَ} [القصص: ٨٠]، وقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَاها إلا الذّينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّها إلا ذُو حَظ عَظِيم} [فصلت: ٣٥]. وقوله تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٦]

- تعليق الإمامة في الدين بالصبر واليقين، كقوله تعالى: {وَجَعَلنا مِنهُم أئِمّةً يَهدُون بِأمرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَايَاتِنا يُوقِنُون} [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

- أن الله أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: {إنّا وَجَدنَاهُ صَابِراً نِعمَ العَبدُ إنَهُ أوابٌ} [ص: ٤٤]، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرًا، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه بئس العبد.

- أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان، فقرنه بالصلاة في قوله: {وَاستَعِينُوا بِالصّبرِ وَالصّلاةِ} [البقرة: ٤٥]، وبالتقوى في قوله تعالى: {إنّهُ مَن يَتَقِ وَيَصبِر} [يوسف: ٩٠]، وبالشكر في قوله تعالى: {إن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [لقمان: ٣١]، وبالرحمة في قوله تعالى: {وَتَوَاصَوا بِالصّبرِ وَتَوَاصَوا بِالمرحَمَةِ} [البلد: ١٧]، وبالصدق في قوله: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِين وَالصَّابِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥].

- أعطى الله سبحانه وتعالى للصابرين دون غيرهم أجرهم بغير حساب كما قال تعالى: {إنَمَّا يُوَفَى الصَابِرُونَ أجْرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ} [الزمر: ١٠].

أمور منافية للصبر

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التسخط والجزع، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب وخمش الوجوه، ونحو ذلك، كان ما يقع من العبد منافيًا له، ومن هذه الأمور:

مما ينافي الصبر الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكا العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضره ونفعه إلى من لا يرحمه وليس بيده نفعه ولا ضره. وهذا من عدم المعرفة وضعف الإيمان. وقد رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: "يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!". ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلمُ

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

بيد أن الصبر لا ينافي الشكوى إلى الله، فقد شكا يعقوب عليه السلام إلى ربه مع أنه وعد بالصبر فقال: {إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦]. ولا ينافي الصبر أيضًا إخبار المخلوق بحاله؛ كإخبار المريض الطبيب بحاله، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به، إذا كان ذلك للاستعانة بإرشاده أو معاونته على زوال الضر.

ومما ينافي الصبر ما يفعله أكثر الناس في زماننا عند نزول المصيبة من شق الثياب، ولطم الخدود، وخمش الوجوه، ونتف الشعر، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، والدعاء بالويل، ورفع الصوت عند المصيبة؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن فعل ذلك. بيد أنه لا ينافي الصبر البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم، قال تعالى عن يعقوب: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} [يوسف: ٨٤]. قال قتادة: "كظيم على الحزن، فلم يقل إلا خيراً".

ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها. وقد قيل: "من البرِّ كتمان المصائب والأمراض والصدقة". وقيل أيضًا: "كتمان المصائب رأس الصبر". بيد أن الكلام عن المصيبة لمجرد أن يستشعر الإنسان وقوف إخوانه بجانبه وحاجته إليهم دون توسع فهذا لا ينافي الصبر.

ومما ينافي الصبر الهلع، وهو الجزع الشديد عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً} [المعارج: ١٩ - ٢١]. بيد أن الحزن والهلع الذي يتناسب مع حجم الموقف دون إفراط ودون معصية لا ينافي الصبر.

وأخيراً.. للبحر مد وجزر، وللكلمة نفع وضر، ولكل جراح بلسم، وأفضل البلسم الصبر، فهو فضيلة المتقين، وسبيل إلى جنة النعيم، وهو في الحياة أليق بالأبي الكريم. فإذا كان لديك الصبر فأبشر بقريب الفرج، فكلما طال بالإنسان صبره، نجح أمره. أما إذا كان جوابك النفي.. فما عليك سوى ترويض النفس على ما تكره، ومعاودة الكرَّة، وبذل الجهد والمسرة. ثم اشترِ من البضائع أجودها وأشدّها حمدًا للعاقبة، قال الشاعر: يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري فدرهم الصبر يساوي ألف دينار.

المبحث السادس: الرضا بالقدر.. أجمل اختيار في الحياة (٤٩)

الرضا مَقامٌ عظيم من مقامات الإيمانِ واليقين، والتخلُّقُ به لا يتأتى إلا بعد طولِ عبادة وذِكر، وفهمٍ ومعرفة وفكر.

وبالحصول عليه، والتمكنِ منه يتخطى المؤمنُ في إيمانه بالأقدار أعظَمَ اختبار في الحياة، وتصبح الآلام والشدائد عنده لذائذَ؛ لأنَّه يتعامل مع الأقدار الإلهية بلُغةِ الحب والرضا، لا بلُغةِ الاختبار والتحدي.

وليعلمْ يقينًا بأن الله سبحانه ما ابتلاه إلا ليرقيَه في مدارج الكمال؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

نعم، أجملُ ما في الإيمان بالأقدار، المقترنِ بالرضا: أنه يخلِّص الإنسانَ من رتابة الحياة، ويُنجيه من الملل.

وقد جاء في هذا الموضوع عدةُ نصوص، أُجملها في الآتي:

١. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي المصيبات تصيبُ المرءَ فيَعلمُ أنها من عند الله فيسلِّم ويرضى».

٢. وعن أنس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)).

فمن رضي بما قضاه الله وقدَّره عليه من الابتلاء؛ فله الرضا من الله جزاءً وِفاقًا، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]

ومن سَخِطَ أقدارَ الله، فله السخط من الله، وكفى بذلك عقوبة؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]

وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر، وقد يُستدل به على إيجاب الرضا، كما هو اختيار ابنِ عقيل الحنبليِّ، وذهب بعض العلماء إلى أنه مستحَب، ويبدو لي: أن الإنسان إذا وصل إلى مرحلة السخط على الأقدار بقولٍ أو فعل، فهنا يكون الرضا في حقه واجبًا.

٣. وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ((وأسألك الرضا بعد القضاء))

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلِّمنا أن نقول حين نصبح، وحين نمسي ثلاثًا: ((رضيتُ باللَّهِ رَبًّا، وبالإِسْلام دينًا، وبمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًّا)).

ويقول: ((كان حَقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة))

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهمَّ إني أسألك نفسًا مطمئنةً تؤمِن بلقائك، وترضى بقضائك، وتَقنَع بعطائك)).

٤. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وَارْضَ بِما قَسَمَ الله لَكَ، تكُنْ أَغْنَى الناسِ)).

لقد أصبح الرضا في هذا العصرِ ضرورةً، وأشعُرُ أن القناعة والرضا لما غابت من قلوبنا فقَدْنا الراحةَ والاطمئنان في حياتنا المعاصرة.

٥. وجاء عن الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان كلَّمَا أفاق من سكرات الموت يقول: «اخنُقْني خنقك، فوعزَّتِكَ إنك تعلم أني أحبُّك».

٦. وقال ابن مسعود: «إن الله بقسطه وعلمه جعَل الروحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط».

٧. وقال ابن عون: «ارضِ بقضاء الله من عسرٍ ويسر؛ فإن ذلك أقلُّ لهمِّك، وأبلَغُ فيما تطلُبُ من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقةَ الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرِضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيتَ قضاه مخالفًا لهواك؟! ولعل ما هويت من ذلك لو وفِّق لك، لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلة علمِك بالغيب، إذا كنت كذلك، ما أنصفتَ من نفسك، ولا أصبت باب الرضا».

٨. وقال غيلان بن جريرٍ: «من أُعطِيَ الرِّضَا، والتوكل، والتفويض، فقد كُفِيَ».

٩. وجاء عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان يقول: «أصبحت وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر؛ إن تكن السراءُ فعندي الشكر، وإن تكن الضراءُ فعندي الصبر».

١٠. وقال ابن عطاء الله: «يخفِّف ألمَ البلاء عنك علمُك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلي لك، فالذي واجهتْك منه الأقدار، هو الذي عوَّدك حسنَ الاختيار».

١١. وقال عبد الواحد بن زيد: «ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدَّم الصبرَ إلا الرضا، ولا أعلم درجةً أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة».

١٢. ومن علامات الرضا: الابتعاد عن الألفاظ التي تتضمَّن التسخط على الأقدار، والإكثارُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]

وهي كلمة عظيمة تعني: العبودية المطلقة لله، والتفويضَ الكامل له سبحانه.

تعني: التسلية عن المصائب لا التحسُّر، وإذا قالها المصاب كانت له حصنًا من الوقوع في عدم الرضا، ومنجاة من الاعتراض على القدَر. إنها تخاطبه: أنْ لا تحزن؛ فأنت مِلكٌ لله سبحانه، ولا تخَفْ؛ فأنت قادم على الله سبحانه.

وحسْبُنا قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

١٣. وصدق من قال:

كنْ عن همومك معرِضا ... وكِلِ الأمورَ إلى القَضَا

أبشِرْ بخيرٍ عاجل ... تَنسى به ما قد مضَى

فلرُبَّ أمرٍ مسخطٍ ... لك في عواقبِه رضا

ولربمَّا اتَّسَعَ المضيقُ ... وربما ضاق الفضا

اللهُ يفعل ما يشاء .... فلا تكنْ متعرِّضًا

اللهُ عوَّدك الجميلَ .... فقِسْ على ما قد مضى

١٤. وقد عبَّر عن هذه الحقيقة أجملَ تعبيرٍ أحدُ الشعراء عندما قال:

تَلَذُّ ليَ الآلام إذ أنت مُسقمي ... وإن تمتحِنِّي فهْي عندي صنائعُ

تحَكَّمْ بما تهواه فيَّ فإنَّني .... فقيرٌ لسلطان المحبة طائعُ

١٥. وللشاعر محمد مصطفى حَمَام قصيدةٌ جميلة حول هذه المعاني، وهي:

علَّمتني الحياةُ أن أتلقَّى ... كلَّ ألوانها رضًا وقَبولاَ

ورأيتُ الرِّضا يخفِّف أثقا ... لي ويُلقي على المآسي سُدولاَ

والذي أُلهمَ الرِّضا لا تراهُ ... أبدَ الدهر حاسدًا أو عَذولاَ

أنا راضٍ بكلِّ ما كتب اللهُ ... ومُزْجٍ إليه حَمْدًا جَزيلاَ

أنا راضٍ بكلِّ صِنفٍ من الناسِ ... لئيمًا ألفيتُه أو نبيلاَ

لستُ أخشى من اللئيم أذاه ... لا، ولن أسألَ النبيلَ فَتيلاَ

فسَحَ الله في فؤادي فلا أرْ ... ضى من الحبِّ والودادِ بديلاَ

في فؤادي لكلِّ ضيفٍ مكانٌ ... فكُنِ الضيفَ مؤنسًا أو ثقيلاَ

ضلَّ من يحسب الرضا عن هَوانٍ ... أو يراه على النِّفاق دليلاَ

فالرضا نعمةٌ من الله لم يَس ... عدْ بها في العباد إلا القليلا

والرضا آيةُ البراءة والإي ... مانِ بالله ناصرًا ووكيلاَ

علَّمتني الحياةُ أنَّ لها طَعْ ... مَينِ: مُرًّا، وسائغًا معسولاَ

فتعوَّدتُ حالَتَيْها قريرًا ... وألِفتُ التغيير والتبديلاَ

أيُّها الناسُ كلُّنا شاربُ الكأ ... سَينِ إنْ علقمًا وإنْ سلسبيلاَ

١٦. من أسباب الرضا أن تعلم يقينًا بأنَّ منْعَه تعالى هو عينُ العطاء، وصدَق من قال:

«إنَّ منْـعَ اللـه عبـدَه مـن بعـض محبوباتـه هـو عطـاءٌ منـه لـه؛ لأن اللـه تعـالى لم يمنعـه منهـا بخـلاً؛ وإنمـا منعـه لطفًـا».

ومن قال: «من رضي بقضاء الله تعالى، أرضاه الله بجميل قدره».

١٧. وقال الحليمي رحمه الله:

«مـن أحَـبَّ اللـه تعـالى لم يعُـدَّ المصائـب التـي يقضيهـا عليـه إسـاءة منـه إليـه، ولم يسـتثقل وظائـفَ عبادتـه وتكاليفـه المكتوبـة عليـه، كـما أن مـن أحـب أحـدًا مـن جنسـه لم يكـد يبـصر منـه إلا مـا يستحسـنه ويزيـده إعجابًـا بـه، ولا يصـدِّق مِـن خـبر المخبِريـن عنـه إلا مـا يتخـذه سـببًا للولـوع بـه والغلـو في محبتـه».

١٨- وقال ابن ناصر الدين الدمشقي:

إذا اشتدَّت البلوى تُخفف بالرضا ... عن الله قد فاز الرَّضيُّ المراقبُ

وكم نعمةٍ مقرونة ببلية ... على الناس تَخفى والبلايا مواهبُ

١٩- مـن الكتـب المهمـة في هـذا البـاب: جنـة الرضـا في التسـليم لمـا قـدَّر اللـه وقـضى؛ للغرناطـي، وهـو مطبـوع بتحقيـق د. صـلاح جـرار.

المبحث السابع: التوكل على الله (٥٠)

فإن للتوكل على الله تعالى منزلة عظيمة في الإسلام، يلحظها من تأمل النصوص الواردة فيه، وكل عبد مضطرٌ إليه، لا يستغني عنه طرفة عين، كما أنه من أعظم العبادات من جهة توثق صلته بتوحيد الرب سبحانه، يقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].في هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتوكل عليه سبحانه وتعالى، وألا يركن إلا إليه؛ لأنه الحي الذي لا يموت، وهو القوي القادر سبحانه وتعالى، ومن يتوكل عليه جل وعلا فهو حسبُه، أي كافيه ومؤيدُه وناصرُه، ومن توكل على غير الله، فإنما يتوكل على من يموت ويفنى، والضعف والعجز يعتورُه من كل جهة، ولأجل ذلك فالمتوكِّل عليه يضيع ويزيغ، وكل من اعتمد على غير الله فقد ضل سعيه.

فدلّ ذلك على فضل التوكل على الله-جل وعلا-وتعليق القلب به سبحانه.

والتوكل معناه: صدق اعتماد القلب على الله عزوجل في استجلاب المصالح ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، وأن يَكِلَ العبد أموره كلها إلى الله جل وعلا، وأن يحقق إيمانَه بأنه لا يعطي، ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع: سواه جل وعلا.

وقد حَضَّ الله عباده المؤمنين على التوكل في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، وبيَّن سبحانه ثمراته وفضائله:

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وقوله-عزوجل-:﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:٣]، وقوله-جل وعلا-:﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال سبحانه واصفاً عباده المؤمنين في معرض الثناء والمدح:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وفي السنة المطهرة تكاثرت النصوص الموضِّحة لأهمية التوكل والحضِ عليه، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم -: (لو أنكم توكَّلون على اللّه حق توكله، لَرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً، وتعود بِطاناً).

قال الحافظ ابن رجب - رحمه اللّه -: « هذا الحديث أصلٌ في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق »، قال اللّه عزوجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢،٣].

ودلَّ حديث عمر المذكور على أن الناس إنما يُؤتَون من قلة تحقيق التوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكنتهم لها، فلذلك يُتْعِبُون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قُدِّرَ لهم، فلو حققوا التوكل على اللّه بقلوبهم لساق اللّه إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغُدوِّ والرّواح، وهو نوع من الطلب والسعي، لكنه سعي يسير. وهذا ما يشير إليه قوله-صلى اللّه عليه وسلم-: (لرزقكم كما يرزق الطير...)، ومعناه أنها تذهب أول النهار خماصاً، أي ضامرة البطون من الجوع، وتتجه إلى غير وجهة محددة، تطير وتبحث وتسعى، ثم ترجع آخر النهار بطاناً، أي ممتلئة البطون.

وصح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه عنه جابر بن عبد اللّه-رضي اللّه عنه-أنه قال: (إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا اللّه وأَجْملوا في الطلب، خذوا ما حلَّ ودَعُوا ما حَرُم) [رواه ابن ماجة والحاكم وابن حبان].

وقال عمر - رضي اللّه عنه -: « بين العبد وبين رزقه حجاب، فإن قَنَعَ ورضيت نفسه أتاه رزقُه، وإن اقتحم وهتك الحجاب لم يُزَدْ فوق رزقه ».

وقال بعض السلف: « توكَّلْ تُسَقْ إليك الأرزاق بلا تعبٍ ولا تكلف ».

وها هنا تنبيه إلى أن التوكل الصحيح يستلزم من صاحبه أن يُعْمِلَ الأسباب كما قال تعالى:﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المائدة:١١].فجعل التوكل مع التقوى، وهي هنا شاملة للقيام بالأسباب المأمور بها، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجزٌ محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها.

وهذا المعنى يدل عليه أيضاً ما رواه الترمذي وغيره عن أنس رضي اللّه عنه قال: قال رجل: يا رسول اللّه! أَعْقِلُها وأتوكل، أو أُطْلِقُهَا وأتوكل؟ قال:(اعقلها وتوكل).

وقد أخطأ في هذا الباب أقوام، فعوَّلوا عجزهم على التوكل، وتذرَّعوا به، فضيَّعوا من الحقوق والواجبات لأنفسهم ولعيالهم، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -:(كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يَقُوت) [رواه أبو داود].

ولمثل أولئك قال-عليه الصلاة والسلام-: (المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن باللّه ولا تعجز، فإن أصابك شيءٌ فلا تقولن: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر اللّه وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

ومما ينبَّهُ إليه هنا أن ضعف التوكل لدى الإنسان إنما ينتج عن ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك لأن من وكَلَ أموره إلى اللّه ورضي بما يقضيه له ويختاره، فقد حقق التوكل عليه، وأما من وكل أموره لغير اللّه، وتعلق قلبه به، فهو مخذول غافل عن ربه جل وعلا.

روى ابن مسعود - رضي اللّه عنه - عن رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته، ومن أنزلها باللّه أوشك اللّه له بالغنى...) الحديث [رواه أبو داود وغيره].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللّه -: « وما رجا أحدٌ مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] ».

قال الشيخ سليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب - رحمهم اللّه -: « التوكل قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللّه، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم، من نصرٍ أو حفظِ رزق أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

والثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أَقْدَرَهُ اللّه تعالى عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع من شرك أصغر.

والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسانِ الإنسانَ في فعل ما يقدر عليه نيابةً عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وُكِّل فيه، بل يتوكل على اللّه في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبِّب الذي أوجد السبب والمسبَّب ».

ومما يزيد إيضاح تحقيق التوكل والعمل بالأسباب مع تعليق القلب باللّه وحده: ما أخبر به أبو بكر الصديق - رضي اللّه عنه - في هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - للمدينة إذ قال: « نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا، فقلت: يا رسول اللّه! لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللّه ثالثهما) [متفق عليه]. وتصديقه قوله تعالى:﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]

ومن توكَّل على اللّه فإنه ينال من فضائله وثمراته بحسب تحقيقه له ما لا يخطر له على بال، ولا يحيط به مقال، فهو أشرح الناس صدراً، وأطيبهم عيشاً، قال تعالى:﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

ولأهمية هذه المسألة فقد عدَّها العلماء في أبواب التوحيد والعقائد، إذ أنها من أجَلِّ العبادات وأعظمها، ولذا عقد لها الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب باباً في كتابه « كتاب التوحيد» ودلَّل عليها وبيَّن أنها من الفرائض ومن شروط الإيمان. فالواجب على كل مسلم ومسلمة العناية بها وتعاهُدُ قلبه على ذلك.

وفقنا اللّه لهداه، ورزقنا صدق التوكل عليه، وحسن الإنابة إليه، وصلى اللّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الثامن: سلوا الله اليقين (٥١)

صفةٌ عزيزٌ نوالُها، ومطمعٌ تتوقُ إليه كلُّ نفسٍ عاقلٍ لبيبٍ، هي طريقٌ قلَّ سالِكوه، وإنها الحادِي في المهامه، والمُؤنِس في وحشَة الأثَرة، وهي القوةُ في زوبَعةِ الضَّعفِ، والرِّيِّ في ذروة العطَش. هي قبسٌ في ظُلَمةٍ، وكثرةٌ في قلَّةٍ.

من اتَّصَفَ بها بلغَ عنانَ السماءِ وإن كان مُضطجِعًا على فِراشه، للمُتدثِّر بها من الهيبة والوقار والرِّفعة ما لا يفتقِرُ معه إلى حسَبٍ أو نسَبٍ أو جاهٍ، فلا هي بالمال تُشترَى، ولا بالقوة تُكتسب.

هي صفةٌ وخصلةٌ حضَّ عليها نبيُّنا وقُدوتُنا - صلوات الله وسلامه عليه -، ولا يأمرُنا إلا بما هو خير؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «سلُوا اللهَ اليقينَ والمُعافاة؛ فإنه لم يُؤتَ أحدٌ بعد اليقين خيراً من المُعافاة»؛ رواه أحمد.

إنه اليقينُ - عباد الله -، اليقينُ الذي يستقرُّ معه العلمُ بالله - جل وعلا -؛ فلا ينقلِبُ ولا يحُول، ولا يتغيَّرُ في قلبِ المُوقِن؛ بل تغشاه طُمأنينةُ القلبِ على حقيقة الشيء، وتحقيق الإيمان بالغيب الغابِر والحاضر والمُستقبل، بإزالةِ كلِّ شكٍّ أو ريبٍ في جنب الله.

يُحقِّقُ المرءُ في ذلك من خلال يقينه جميعَ مراتبِ اليقين المشهورة، وهي: علمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين.

هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد؛ فمن عاشَ بلا يقينٍ ففيه من صفاتِ الميت بلا روحٍ، فلا بُدَّ للمُؤمنِ من اليقين في خبر الله - سبحانه -، فيُوقِنُ المرءُ بكل ما أخبرَ به - سبحانه -، وبكل ما أخبرَ به رسولُه - صلى الله عليه وسلم -، ويُؤمنُ بأمر الله ونهيه وأمرِ رسولِه - صلى الله عليه وسلم - ونهيه.

ليشعُر بالرِّفعة والغبطة بأن يصلَ درجةً فيه قد سبقَه إليها خيارُ أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعده، وهو الصدِّيقُ - رضي الله تعالى عنه - الذي جعله اليقينُ صامِدًا ثابتًا في ثلاثة مواقف سجَّلها التأريخُ بمِدادٍ من نورٍ في زمنِ فتنةٍ تهتزُّ لها الجبالُ الراسيات:

أولُها: حينما أتاه كُفَّارُ قريشٍ يُريدون أن يُشكِّكوه في دينه، وما يُخبرُ به نبيُّه وصاحبُه - صلوات الله وسلامه عليه -، فيقولون له: إن صاحبَك زعمَ أنه أُسريَ به لبيت المقدس، وعُرِج به إلى السماء. فأجابَ دون تريُّثٍ حتى يسمعَ النبي - صلى الله عليه وسلم - ماذا يقول؛ بل قال - مُوقِنًا بعلمه بخبر الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه -، فقال قولتَه المشهورةَ: «إن كان قالَه فقد صدقَ».

نعم، «إن كان قالَه فقد صدقَ».

والموقفُ الآخر: حينما صعدَ أمام الملأ وهم يصطرِخون غيرَ مُصدِّقين بوفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: «من كان يعبُدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبُدُ اللهَ فإن اللهَ حيٌّ لا يموت».

والموقفُ الثالث: حينما صمَدَ فردًا كأمَّةٍ في قتال المُرتدِّين، وقال قولتَه المشهورةَ: «واللهِ لأُقاتِلنَّ من فرَّقَ بين الصلاةِ والزكاةِ، واللهِ لو منَعوني عِقالاً كانوا يُؤدُّونَها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتَلتُهم عليها».

فاليقينُ ليس اقتناعًا عقليًّا مُجرَّدًا فحسبُ؛ بل لو كان الأمرُ كذلك لما احتاجَ النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أكملُ الناس عقلاً، وأنقاهم لُبًّا قبل بعثته - صلوا الله وسلامه عليه -، ومع ذلك قال الله عنه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

ومن هذا المُنطلَق؛ سألَ هِرقلُ أبا سفيان - رضي الله عنه - قبل إسلامه -: هل يرجِعُ أحدٌ - أي: من أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ قال: «لا»، قال: وكذلك الإيمان إذا خالطَت بشاشتُه القلوبَ لا يسخطُه أحدٌ.

ومعلومٌ - عباد الله - أن الإيمانَ إذا لامسَت بشاشتُه القلبَ ارتفعَ بصاحبِه إلى درجةِ اليقين التي لا يعقبُها سخَطٌ على شيءٍ من دين الله.

إن المرءَ المُؤمنَ بربِّه إذا عاشَ حياتَه باليقين بالله علمَ أن الدنيا لا تُساوي عند الله جناحَ بعوضة، وأنه لن يأخُذ منها إلا ما كُتبَ له فيها؛ لأن له غايةً ساميةً ترتفعُ عن غايات الآخرين، ومن ذاقَ عرَفَ، وليس راءٍ كمن سمِع؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ بين المرء وبين ربِّه لا يرى أثرَه عليه من الناس إلا ذوو البصيرة اللمَّاحُون، وبخاصَّة حالَ خشية الله في الغيبِ والشهادة، وقولِ الحقِّ في الغضبِ والرِّضا، والامتثال بأمر الله وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - في المنشَط والمكرَه.

وحُقَّ لصاحب اليقين هذا أن يُؤتىَ البصيرة والهُدى والرحمة، وما قوامُ الحياة الدينية الحقَّة إلا بتلكُم الخصال الثلاث، ولقد صدقَ الله - سبحانه -: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

المُوقِنُ حقًّا - عباد الله - هو من لا يعرفُ إلا الله، ولا يرجُو غيرَه، ولا يخافُ إلا هو، لا يضُرُّه من ضلَّ إذا هو اهتدَى، يرضَى أن يذهبَ الناسُ بالشاء والبعير، والدينار والدرهَم، والحسَب والجاه، ويذهبَ هو بربِّه - جلَّ شأنُه -؛ لأن من عرفَ اللهَ فلن يُبالِيَ بمن لا يعرِفُ الله، ومن عرفَ الحقَّ فلن يُضيرَه من لا يعرِفُ إلا الباطلَ.

ولا جرَم - عباد الله -؛ فمن وجدَ اللهَ فماذا فقدَ؟! ومن فقدَ اللهَ فماذا عساه أن يجِد؟!

لقد أكرمَ اللهُ الخليلَ إبراهيم - عليه السلام - باليقين؛ حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

فكان يقينُه بالله لا يزيدُه إلا إيمانًا بربِّه، وأنه على الحقِّ المُبين، ولا يزيدُه إلا قناعةً بضلال قومِه وانحرافِهم عن جادَّة الطريق، الذين اتَّخَذوا من دون الله آلهةً وصدُّوا عن سبيل الله وكانوا مُستبصِرين.

اليقينُ - عباد الله - هو الذي جعلَ الخليلَ إبراهيم - عليه السلام - يمتثِلُ أمرَ ربِّه في ذبحِ ابنه إسماعيل، وهو الذي جعلَ ولدَه إسماعيل يقول لأبيه: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال - صلوات الله وسلامه عليه -: «أحبُّ الأعمال إلى الله: إيمانٌ لا ريبَ فيه، أو لا شكَّ فيه»؛ رواه أحمد.

وهذه مرتبةُ علمِ اليقين المشهورة.

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «الصبرُ شطرُ الإيمان، واليقينُ الإيمانُ كلُّه»؛ رواه البخاري.

إنه لا يُمكن لأحدٍ أن يكون هاديًا مهديًّا في بيته وسُوقه، ومُجتمعه وأمَّته وهو فاقدٌ أهمَّ مُقوِّمات اليقين بالله؛ لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ولم يقُل: يشكُرون، أو يعقِلون، أو يسمَعون؛ لأن المتَّصفين بها كثُر.

ولأجل هذا؛ لما كانت الإمامةُ في الدين عزيزةً ربَطَها بأمرٍ عزيزٍ في القلوب - وهو اليقينُ بالله -، ولا يُدرِكُ حقيقةَ اليقين ولا يستطعِمُ ثمرتَه إلا من نظرَ للموت والحياة نظرَ العالِمِ العارِف.

ولقد اختصرَ أميرُ المؤمنين عليٌّ - رضي الله عنه - صورةَ اليقين في أوجز عبارةٍ في التعامُل مع العيش والموت، اللَّذَيْن هما محلُّ اليقين بالله، فقال - رضي الله تعالى عنه -:

أيُّ يوميَّ من الموتِ أفِرُّ ... يومَ لا يُقدَر أو يوم قُدِر

يوم لا يُقدَر لا أحذَرُه ... ومن المقدورِ لا ينجُو الحَذِر

فهذا يقينٌ استحضَرَ فيه كلَّ لحظةٍ تضعُفُ فيها النفسُ مع زُخرُف الدنيا على حسابِ خالقِها ومولاها، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١- ٨].

اعلَموا - يا رعاكم الله - أن اليقينَ بالله قد أوصلَ عبادَه الراسخين في العلم إلى أن يقولوا عن دين الله وأمره ونهيه: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]، لا يُمارُون في ذلك، ولا يُجادلون في حقيقته، ولا ينكُثون عنه، ولا يُؤمنون ببعضه ويكفُرون ببعض، ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٩، ٥٠].

فارتِضاءُ شرع الله بحذافيره على أكمل وجه هو أساسُ اليقين بالله الذي لا يقبَلُ التجزئةَ والتبعيضَ، ولقد صدقَ الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ولقد كان من دُعاء المُصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث المشهور: «ومن اليقين ما تُهوِّنُ به علينا مصائبَ الدنيا»؛ رواه الترمذي.

أي: هـبْ لنـا مـن اليقـين مـا نـرضَى بـه عـلى كل بـلاءٍ ومُصيبـةٍ لـك فيهـا حِكمـة؛ لئـلا نسـخَطَ شـيئًا مـن أمـرِك وقـدرِك، وألا نرتـدَّ عـلى أعقابنـا بمُجادلتِنـا في الاستِسـلام لشرعِـك.

إن يقـينَ المؤمـن كالنـور مـن فوقِـه النـور يُـضيءُ في سـمائه عـلى الـدوام؛ لأنـه يُـدرِكُ أن اللـهَ يـرى مكانَـه، ويسـمعُ نجـواه، ويعلـمُ بلْـواه وأزيـزَ صـدره المُفعَـم باليقـين، ليُـدرِك أن مـا أصابَـه لم يكـن ليُخطِئـه، ومـا أخطـأَه لم يكـن ليُصيبَـه، وأنـه مـا ابتـلاهُ إلا ليُعافِيَـه، ومـا أخـذَ منـه إلا ليُعطِيَـه، ومـا نقـصَ منـه إلا ليزيـدَه، يأخُـذ بيـدِه في المضايـق، ويطـوِي لـه الطريـقَ إذا جـدَّ بـه المسـيرُ، وفي نهايـة النفـق المُظلـم ضـوءٌ سـاطِعٌ، وللأقفـال مفاتيـح، وللظـمآن مـورِد، وفي المِحَـن منَـح، وبعـد التَّرَح فـرَح، وتحـت الرُّغـوة اللَّـبنُ الصريـحُ، ومـا الدُّنيـا إلا كـسرابٍ بقيعـةٍ، وأنَّ مرَدَّنـا إلى اللـه، وأنَّ الآخـرةَ هـي دارُ القـرار.

من رامَ أن يحيا حياةً حرَّةً ... ويُعزَّ في دنيا الورَى والدينِ

فليَرْجُ عافيةً يقَرُّ بمثلِها ... وليحمِ إيمانًا له بيقينِ

المبحث التاسع: التفاؤل (٥٢)

التفاؤل هو استشعار قدوم الخير بتحقق الأفراح والمسرات واستبعاد وقوع الأذى والمكروهات، وهذا الاستشعار يولد في النفس والذات انفعالا قويا ينشط معه التفكير وتقوى به الإرادة وتشتد به العزيمة، ويشحن به الذهن فينتج عن ذلك تصميم وعمل في اتجاه طلب الخير المتفاءل به. إنه بمثابة الوقود الذي يحرك الإرادة!

والتفاؤل واحد من الظواهر النفسية التي تشكل حالة فريدة في السلوك النفسي الإنساني، احتار فيها علماء النفس والدراسات الإنسانية وتحدثوا من خلالها في فلسفات ونظريات عديدة عن قوة كامنة في النفس تجعل من التوقع شيئا ممكن التحقق، بحسب قوته وصدقه ودبجوا في ذلك كتبا عن العقل الباطن وأسراره وقوانينه وعن «الوعي واللاوعي» و«الشعور واللاشعور»، نحت معظمها مناحي كفرية بعيدة عن أصول الإيمان واغتر بها خلق كثير، لكنها في مجملها استطاعت أن تشير إلى قوة الأفكار والخطرات النفسية التي تؤثر على مسار القوة والضعف في حياة الإنسان عموما وعلى إرادته وطموحه وعزيمته ونجاحه وفشله، ونحن في هذا الإطار لا نتحدث عن التفاؤل فقط بل عن كل شعور إيجابي أو سلبي في نفس الإنسان ما يعني أن ما يقولونه يصدق على التشاؤم أيضا.

بعيدا عن الفلسفة والدراسات الإنسانية، نجد التفاؤل في الإسلام قيمة إيجابية بل خلقا نفسانيا فاضلا حث عليه في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، في سياقات مختلفة وبمرادفات متنوعة فتارة يأتي في سياق الحث على الاستبشار بالخير وبرحمة الله وتارة بالنهي عن اليأس واعتباره من أخلاق الكفار وتارة بالنهي عن القنوط واعتباره ضلالا، -وكلها مفردات تستلزم التشاؤم وتتناقض مع التفاؤل- وتارة بالحث على إحسان الظن بالله: فحينما خاطبت الملائكة إبراهيم عليه الصلاة والسلام قائلة: {فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ} [الحجر: من الآية٥٥] رد عليها بعزم ويقين: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:٥٦]. وحينما أرسل يعقوب عليه السلام أبناءه للبحث عن أخيهم يوسف عليه السلام في مصر قال: {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:٨٧]، وقال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: من الآية١٩٥]. قال سفيان الثوري: (أي أحسنوا بالله تعالى الظن) وحينما داهم كفار قريش منطقة الغار التي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبوبكر رضي الله عنه خشي أبو بكر أن يراهم المشركون فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتحزن إن الله معنا». فعن أنس عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فرفعت رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهم» رواه البخاري ومسلم.

وفي الحديث الصحيح: عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة» متفق عليه. والطيرة هي التشاؤم.

وما أجمل تلك الحكمة التي قالها الشيخ ناصر العمر في صفحته على موقع تويتر ولخصت دلالة القرآن على ذلك التفاؤل إذ يقول: «كم في القرآن من بشائر ومفاتح للتفاؤل! {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} [الشورى: من الآية٢٨] فها هي الأرض تسقى بعد جدبها، فلننتظر بشائر عزة الأمة ونصرها {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: من الآية١١٠]، ولنتفاءل بعودة الغائب بعد طول عناء {وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} [يوسف: من الآية٨٧]، فأملوا خيراً {لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر: من الآية٥٣] مهما طال الزمن واستحكم البلاء». أهـ.

لكن التفاؤل المطلوب في الإسلام ليس مجرد توقع أو كلام عاريا عن الضوابط، وإنما هو سلوك نفسي حث عليه الإسلام مقرونا بضوابطه، وهي:

الأول: أن يكون التفاؤل مقرونا بالإيمان:

إذ المعتقد الصحيح ومعرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، له أثر عظيم، في التخلق بخلق التفاؤل والحياة به على كل حال ذلك لأن المؤمن يستشعر معية الله له في كافة أحواله ونظره إليه في سائر أعماله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: من الآية٤] كما يعرف ربه بأسمائه الحسنى وأنه أرحم الراحمين {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: من الآية٦٤] لطيف بالعباد {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى: من الآية١٩] وسعت رحمته كل شيء {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: من الآية١٥٦] يدافع عن المؤمنين {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: من الآية٣٨] يعفو عن السيئات ويقيل العثرات واسع المغفرة قابل التوب وغافر الذنب يريد لعباده الهداية والتوبة {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً} [النساء:٢٧] ناصر لعباده المؤمنين {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١] وغيرها من صفاته الحسنى سبحانه وتعالى تجعل المؤمن في تطلع للأمل وتوقع للخير وانتظار دائم للفرج واستصحاب لمعية الله له بالنصر والتأييد وإجابة الدعاء ومزيد العطاء وهذه كلها تصب في معنى التفاؤل وتحث عليه!

والتفاؤل من صميم حسن الظن بما هو قادم من الأحداث في كل الأمور وما هو قادم إنما هو أقدار الله المقدرة فحسن الظن بها هو حسن ظن بمقدرها الذي هو الله لذلك كان التفاؤل بالخير من حسن الظن بالله ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله». رواه أحمد.

وهو بهذا من صميم التوحيد، فلا يستقيم أن يجتمع في قلب الإنسان إيمان راسخ مع سوء ظن بالله وتشاؤم بأقداره، فنور الإيمان يبدد ظلام التشاؤم ويجعل المؤمن في تفاؤل دائم واستبشار مستمر بحصول الخير وقدوم الرحمة في سائر الأحوال. وهو ما أشار إليه الشيخ ناصر العمر في إحدى حكمه على تويتر إذ قال: «أخشى أن يكون المتشائمون ممن لم يجعل الله لهم نوراً {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: من الآية٤٠]، حيث إن بوادر التفاؤل واضحة جلية»!!

وأقوى وأصدق ما يكون التفاؤل حين يمتزج في القلب بقوة الإيمان وصدق التوكل، فإن إحسان العمل بالقيام بمراد الله في كل شأن يدفع المؤمن إلى الاطمئنان إلى ربه والركون إليه والطمع الشديد في رحمته وعطائه وبره وإحسانه وفضله، ويجعله -مهما اغتنى- فقيرا إليه فينتج عن قوة طمعه في رحمة الله الواسعة حسن الظن بالله والتفاؤل باستشعار عطائه ومدده فتتهيأ نفسه لتلقي الكرامات الإلهية على قدر ما في قلبه من طمأنينة الإيمان وقوة اليقين، ومع ذلك لا يرى نفسه أهلا للعطاء ولا للكرامة ولكنه يغلب جانب الظن الحسن بالله على ما سواه لغلبة رحمة الله وسعتها {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف: من الآية١٥٦].

وهناك سر لطيف في قوة انبعاث التفاؤل، وقوة تصور وقوع الخير الذي يتفاءل به المؤمن، هذا السر له علاقة بقوة العزم واليقين في الله كما له علاقة بالعلم بسنن الله في الكون وناموسه في هذه الحياة، والناس في هذا الشأن يتفاوتون علما وعملا وتبعا لذلك تتفاوت هممهم في التفاؤل بالخير. فإن لله لطائف تسبق الفرج وعلامات يدركها أهل العلم والخشية كما يدرك جهابذة الحديث علله الخفية وتلك العلامات واللطائف تكون كالنسيم الخفيف العليل الذي يلامس البشرة ولا تراه العين وهي من البشائر التي تأتي في ثنايا البلاء تخفيفاً وتثبيتاً {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعراف: من الآية٥٧] وهذا من معاني اسم الله اللطيف، ومن القواعد الكليه في ذلك قاعدة (التيسير علامة التوفيق) وغيرها مما يطول سرده ومثل هذا يحتاجه الناس في ساعة العسرة وشدة الفتنة فإنها الساعة التي تمتحن فيها القلوب والعقول على السواء.

الثاني: أن يكون التفاؤل مقرونا بالعمل الصالح:

فالتفاؤل مع التفريط في تقوى الله عموما والإصرار على ذلك فيه مخادعة للنفس، فإن الله جل وعلا كما دعا عباده لحسن الظن به وتغليب الطمع في رحمته حذرهم أيضا من مخالفة أمره، بل حذرهم من نفسه رحمة بهم حتى لا يتمادوا في عصيانه فقال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: من الآية٢٨] وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: من الآية٦٣]، وقال: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٩].
فالتفريط في أوامر الله والإعراض عنها وارتكاب محاذيره دون رجوع بالتوبة موجب لغضب الله كما قال تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} [فصلت: من الآية٦]، والتفاؤل مع تعمد التقصير فيه نوع مخادعة، بل هو من الجهل الذي وقعت فيه فرق ضالة مثل المرجئة الذين جعلوا من سعة رحمة الله مطية لارتكاب الخطايا حتى قال شاعرهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا *** إذا كان القدوم على كريم

نعم يُحسن المؤمن الظن بربه عند كل بلاء وفتنة ويتطلع إلى وقوع فرج وشيك وخير عميم فهذا مطلوب وهو من حسن الظن بالله لكن يسعى جهده لإحسان العمل أيضا وإحداث التوبة من الذنوب فإنها سبب البلاء، لا أن يحسن الظن بخالقه ويتمادى في الوقت نفسه في عصيانه فإن سنن الله الشرعية اقتضت أن يكون من البلاء ما هو عقوبة لا يرتفع إلا بالتوبة {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٣-١٤٤]، {فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس:٩٨] حتى قال بعض السلف: «رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق». لذلك عرف الشيخ ناصر العمر في إحدى حكمه على تويتر التفاؤل بقوله: التفاؤل الحقيقي: هو الذي ينبعث من القلب عن إيمان وبرهان، ويظهر على قسمات الوجه وحصائد اللسان، ويصدقه العمل المطرد مهما تغيرت الأحوال والأزمان».

الثالث: أن يكون التفاؤل مقرونا بالطلب:

فالدعاء عبادة من أجل العبادات به تستمطر الرحمة ويستجلب الخير، وعاجز من لم يستعمله سلاحا في وجه البلاء ووسيلة لبلوغ الأمل، ففي الحديث الصحيح: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع. وإذا قرن التفاؤل بالخير مع العمل والدعاء كان أدعى لتحققه ونيل المراد فإن الله يغضب على من لم يسأله، ولذلك قال: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦]، {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف:٥٥]. وفي الحديث الصحيح: «من لم يسأل الله يغضب عليه» رواه الترمذي.

الرابع: ألا يغيب التفاؤل سنن الله في الكون، من بذل الأسباب الدافعة للأذى، بفقه الواقع وتصور الأمور على ما هي عليه لدفع ضررها والانتفاع بخيرها، فليس من التفاؤل أن نتجاهل تربص الأعداء وقوتهم وعدتهم وعددهم متوقعين النصر بدون عدة على قدر ما نستطيع، وليس من التفاؤل الاستبشار بالشفاء مع ترك الاستشفاء بالدواء وهو بين أيدينا وليس من التفاؤل توقع النجاح مع الكسل والخلود للراحة، وقد كان سعيد بن جبير يقول: (اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك). وفي هذا السياق يقول الشيخ ناصر العمر في إحدى حكمه على صفحته في موقع تويتر: (هناك طريقان للحياة: إما أن تخضع للدنيا وقسوتها فهنا تعيش البؤس والحرمان والتشاؤم، اذ اصبحت عبدا لها. واما ان تخضعها لدينك، فتواجه كبدها وأدواءها وفق السنن الشرعية والأدوية الربانية، وتستمتع بما فيها من اشراقات وفرص، فهنا ستعيش اسعد من الملوك، اذ تتخلص من عبودية الدنيا، وترتقي في مدارج العبودية لله).

تفاءل.... فالتفاؤل عبادة!! به ستشرق شمس في نفسك بأنوار أمل تبدد ظلام اليأس والإحباط، فإذا الفرج يلوح لك في الأفق كفلق الصبح! وأحسن الظن بربك مع إحسان العمل وكن جميلا تر الوجود جميلا.. كما قال الشيخ العمر: (من لا يرى في الحقل إلا الأشواك، كيف ينتظر منه أن يقطف الزهور؟) تويتر -

تفاءل بالنصر لهذه الأمة: (فيوم النصر قادم بإذن الله، وسوف يمن الله فيه على المستضعفين من المسلمين في هذا الزمان، وينصرهم على من بغى عليهم وتجبر، ذلك اليوم الذي سيري فيه المتجبرون وأعوانهم ما كانوا يحذرون، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وإن تأخر ذلك اليوم لحكمة يعلمها الله، فلن تهتز قناعتنا بشروق شمسه بعد انقشاع الغبار!)

المبحث العاشر: حُسن الظَّن بالله (٥٣)

أيها المسلمون: إنَّ مِنْ أخصِّ مسائلِ التوحيدِ أن تُحْسِنُوا الظَّنَّ بربِّكم، قال ابنُ القيِّم: (وكُلَّمَا كانَ العبدُ حَسَنَ الظَّنِّ بالله، حَسَنَ الرَّجاءِ لهُ، صادقَ التوكُّلِ عليه، فإنَّ اللهَ لا يُخَيِّبُ أَمَلَهُ فيه الْبَتَّةَ، فإنهُ سُبحانهُ لا يُخَيِّبُ أَمَلَ آمِلٍ، ولا يُضَيِّعُ عَمَلَ عامِلٍ... فإنهُ لا أَشْرَحَ للصَّدْرِ، ولا أَوْسَعَ لهُ بعدَ الإيمانِ مِنْ ثِقَتِهِ باللهِ ورَجائهِ لهُ وحُسْنِ ظَنِّهِ بهِ) انتهى.

وبوَّبَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد: بابُ قولِ الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ليُنبِّه رحمه الله على وُجوبِ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ ومنزلتهِ في الاعتقاد.

أيها المسلمون: إن لِحُسْنِ الظَّنِّ بالله أهمية عظيمة، ومن أبرز ذلك:

أولاً: امتثالُ أمرِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٦، ٧]، وَ(عنْ جابرٍ قالَ: سَمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَبْلَ وفاتهِ بثلاثٍ يقولُ: «لا يمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلاَّ وهوَ يُحْسِنُ باللهِ الظَّنَّ») رواه مسلم.

ثانياً: ارتباطُ حُسنَ الظنِّ باللهِ تعالى بنواحٍ عَقَديةٍ كثيرةٍ، من الإيمان باللهِ والاستجابة لأمره، والإيمان بقضائهِ وقَدَرِه، والتوكُّلِ عليه، والاستعانةِ بهِ، وخوفهِ ورجائهِ، والإيمان بأسمائه وصفاته.. الخ.

ثالثاً: حُسن الظنِّ باللهِ من أعمال القُلوب التي تُجمِّلُ العبادات فتظهرُ على الجوارحِ، ومن المتقرِّر في اعتقاد أهل السنة أن العَمَل من الإيمان، ولذلك كان السلف يعملون الصالحات ويسألون الله حُسنَ الظنِّ به، (عن سعيد بن جُبَيْرٍ: أنهُ كانَ يَدْعُو: «اللهُمَّ إني أسألُكَ صِدْقَ التَّوكُّلِ عليكَ، وحُسْنَ الظَّنِّ بكَ») رواه أبو نُعيم في الحلية.

رابعاً: إنَّ منَ الناسِ من لا يَظُنُّ باللهِ إلاَّ بما يحصلُ لهُ، فإنْ أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ بهِ، وإنْ أصابَهُ بَلاءٌ انقلبَ على وَجْهِهِ وظنَّ أنه لا يستحقُّ هذا البَلاء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فَمَا حقيقةُ حُسنِ الظنِّ باللهِ؟ وما أدلَّتُه وعلاقتُه بالعَمل؟ وما أهميتُه وصلتُه بالعقيدة؟ وما الأسباب الشرعية الموصلة إلى تحقيقه؟ وما الأحوال التي يتأكَّدُ فيها حُسنُ الظنِّ باللهِ تعالى؟

عبادَ الله:إن من أبرز معاني ودلالات حُسن الظنِّ بالله: حُسنُ العبادة وإتقانُها وإخلاصُها ورجاءَ رحمة اللهِ وحُصول عفوه ومغفرته، ويقينُ العبد بوعد الله ووعيده، مع اعتقاد ما يليق بالله من أسمائه وصفاته وأفعاله، واعتقاد الحكم العظيمة فيما قدَّرَهُ الله، وأن تتوقعَ كُلَّ جميلٍ من الله تعالى، مع إحسانكَ فيما أمركَ اللهُ، وتركِ ما نهاكَ الله عنه، قالَ الخَطَّابيُّ: (إنما يُحْسنُ الظَّنَّ بالله مَنْ حَسُنَ عَمَلُهُ، فكأنهُ قالَ: أحْسنُوا أعمالَكُمْ يَحْسُنْ ظنُّكُمْ بالله، فمَنْ ساءَ عَمَلُهُ ساءَ ظَنُّهُ، وقد يكونُ أيضاً حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ مِنْ ناحيةِ جهةِ الرَّجاءِ وتأْميلِ العَفْوِ) انتهى.

فحقيقةُ حُسنِ ظَنِّكَ بالله: أن تَظُنَّ بربِّكَ معاني الخير كُلِّها، فإذا عملتَ عَمَلاً صالحاً تَظُنِّ بربِّكَ الشاكرِ الشكورِ أنْ يَتقبَّلَ عَمَلَكَ بالقَبُولِ الحَسَن، وإذا تُبتَ إليه توبةً نصوحاً تظنُّ به وهو الرحمن الرحيم الغفور أَنْ يغفرَ لك، وإذا دعوتَهُ بإخلاصٍ وصوَابٍ أنه وهو القريب المجيب أنْ يستجيبُ لكَ، قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (فإذا سألتُمُ اللهَ عزَّ وجَلَّ أيها الناسُ، فاسألُوهُ وأنتُمْ مُوقِنُونَ بالإجابةِ) رواه الإمام أحمد وحسَّنه المنذريُّ والهيثمي.

عبادَ الله:لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب حُسن الظنِّ بالله على جهة اليقين والجزم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠]، قال قتادة: (ظَنَّ ظَنّاً يَقيناً فنَفَعَهُ اللهُ بظنِّه)، وقال ابنُ زيد: (إنَّ الظَّنَّ من المؤمنِ يَقينٌ) رواهما ابنُ جرير، وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (لا يَمُوتَنَّ أحدُكُمْ إلاَّ وهوَ يُحْسنُ باللهِ الظَّنَّ) رواه مسلم، قال الطيبيُّ: (أيْ: أحسنُوا أعمالكُمُ الآنَ حَتَّى يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ باللهِ عندَ الموتِ، فإنَّ مَنْ ساءَ عَمَلُهُ قبلَ الموتِ يَسُوءُ ظَنُّهُ عندَ الموتِ) انتهى، وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (يقولُ اللهُ تعالى: أَنا عندَ ظَنِّ عَبْدِي بي) متفقٌ عليه، قال القُرطبيُّ: (قيل: معناه: ظنُّ الإجابة عند الدُّعاء، وظنُّ القَبُولِ عند التوبة، وظنُّ المغفرة عند الاستغفار، وظنُّ قبول الأعمال عند فعلها على شروطها، تَمَسُّكاً بصادقِ وَعْدِهِ وجزيل فضله) انتهى، وقال ابن حجر: (أيْ: قادرٌ على أنْ أعْمَلَ بهِ ما ظَنَّ أني عاملٌ بهِ) انتهى.

عبادَ الله: وأما الأحوال التي يتأكَّدُ فيها حُسنُ ظنِّكَ بالله تعالى، فقد قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللهِ تعالى مِنْ عِبادةِ اللهِ) رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبيُّ.

فأنتَ يا عبدَ الله لا حولَ لكَ ولا قوة إلا بالله، فتُحسنَ الظنَّ بربِّك دائماً، وخاصةً في هذه المواضع:

أولاً: عند نُزول الكرب وشدَّة البَلاء بكَ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، فلم يكشفِ اللهُ ما نزلَ بهم من الكرب العظيم إلا بعدما أحسَنُوا الظنَّ بالله.

ثانياً: عندَ تَضَرُّعِكَ ودُعائكَ: فتُوقنُ بقدرة مَن توجَّهتَ إليه وسَعَة رحمته وتمام لطفه وشُمول فضله وأنه سبحانه لا يَردُّ سائلاً ولا يخيب راجياً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

قال ابن القيم: (وحُسنُ الظَّنِ بالله لقاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إليه، فإذا اجتمَعَا أثمرَ إجابةَ الدُّعَاء) انتهى.

ثالثاً: عند التوبة، فيُشرعُ لك تجديد التوبة لأنك مجبولٌ على الخطأ، فتُجدِّدُ التوبة مع إحسان ظنِّكَ بالله التواب أن يتقبَّلَ توبتك، (عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَحْكي عنْ رَبِّه عزَّ وجلَّ، قالَ: أذنَبَ عبدٌ ذنْباً، فقالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبي، فقالَ تبارَكَ وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدي ذَنْباً، فعَلِمَ أنَّ لَهُ ربَّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بالذَّنْب، ثمَّ عادَ فَأَذْنَبَ، فقالَ: أيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبي، فقالَ تبارَكَ وتعالى: عَبْدي أذْنَبَ ذَنْباً، فعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بالذَّنْب، ثُمَّ عادَ فأَذْنَبَ فقالَ: أيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبي، فقالَ تبارَكَ وتعالى: أذْنَبَ عَبْدي ذَنْباً، فعَلِمَ أنَّ لَهُ ربَّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بالذَّنْب، اعْمَلْ ما شِئْتَ فقدْ غَفَرْتُ لَكَ) رواه مسلم، وبوَّبوا لهذا الحديث: (بابُ قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وإنْ تكَرَّرَتِ الذُّنُوبُ والتَّوْبَةُ).

رابعاً: عند الاحتضار، (عن أنسٍ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ على شَابٍّ وهُوَ في الْمَوْتِ، فقالَ: «كيْفَ تَجِدُكَ؟»، قالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، إني أَرْجُو اللهَ وإنِّي أَخَافُ ذُنُوبي، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «لا يَجْتَمِعَانِ في قَلْبِ عَبْدٍ في مِثْلِ هذا الموْطِنِ إلاَّ أعْطَاهُ اللهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ») رواه الترمذي وجوَّد إسناده النووي، و قالَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ: «إذا رأيْتُمُ الرَّجُلَ بالْمَوْتِ، فَبَشِّرُوهُ حتَّى يَلْقَى ربَّهُ وهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ، وإذا كَانَ حَيّاً فخَوِّفُوهُ بِرَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ» رواه ابنُ المبارك في الزهد.

خامساً: عندَ ضيق العيش وكثرة الدُّيون، فتُحسن الظنَّ بربك، وأنه لا يرفعُ الضيق إلى مَن أنزلهُ وهو الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (مَنْ نَزَلَتْ به فاقَةٌ فأَنْزَلَها بالناسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، ومَنْ نَزَلَتْ بِهِ فاقَةٌ فَأَنْزَلَها باللهِ، فيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عاجِلٍ أوْ آجِلٍ) رواه الترمذي وحسَّنه.

عباد الله: إن حُسنَ الظنِّ بالله من دلائل الإيمان بربوبية الله وأنه الخالقُ المالكُ المدبِّر، وأنه وحده هو المستحق للعبادة، فمن استعان واستعاذ بالله وحده فقد أحسنَ الظنَّ بالله، ومن حُسن الظنِّ بالله

اجتناب الشركِ كبيره وصغيره والسُّمعةِ والرِّياءِ، واجتناب كل ما يُنقص من التوكل على الله، فحُسن الظن بالله عبادةٌ عظيمة، يجمع أركان العبادة الأربعة الكُبرى: المحبةُ والتعظيمُ والرَّجاءُ والخوف، وهو من تمَام التوكُّل على الله، وهو الفأل الحسن الذي كان يُعجِبُ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلم، وعليك أخي المسلم أن تُحسنَ الظنَّ بربِّ العالمين بما يُناسبُ كل اسمٍ من أسمائه وصفة من صفاته، فصفاته عزَّ وجلَّ مُشتقةٌ من أسمائه، وكلُّ صفةٍ لها معنىً خاص، وكلُّ صفةٍ لها عبوديةٌ خاصة وحُسنُ ظنٍّ خاصٍ بها، فإيمانُك بصفة الرَّحمةِ لله الرحمن يَقتضي حُسنَ ظنكَ برحمة الله، وإيمانك بصفة علم الله، يقتضي حُسن ظنك أن الله العالم العليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهكذا في سائر أسماء الله وصفاته، قال ابنُ القيم في زاد المعاد: (وأَكْثرُ الناسِ يَظُنُّونَ بالله غيرَ الحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ فيما يَخْتَصُّ بهِمْ وفيمَا يَفْعَلُهُ بغَيْرِهِمْ، ولا يَسْلَمُ عنْ ذلكَ إلاَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وصِفَاتِهِ) انتهى.

عبد الله: وإذا أحسنت الظنَّ بربِّك سبحانه كان لزاماً عليك أن تُؤمن باليوم الآخر وما يَتضمَّنُه من الإيمان بأن الله سيبعثُكَ بعد موتك، وسيُحاسبُك ويُجازيكَ على أعمالك، فإن خيراً فلكَ الجنة، وإنْ شرّاً فيُخشى عليك النار، واعلم يا عبدَ الله أن حُسن ظنك بالله يُعتبرُ أحد الشواهد الدالة على الإيمان بالقضاءِ والقدر وبمراتبه الأربعة: العلم، والكتابة، والخلق، والمشيئة، فإيمانُك بالقضاءِ والقدر يُثمرُ حُسن ظنك بالله.

الفصل الثامن: مصاعب الحياة

المبحث الأول: حقيقة الدنيا

المبحث الثاني: التدبير في شأن الرزق

المبحث الثالث: كيف نتعامل مع مصاعب الحياة؟

المبحث الرابع: الرحمة الحقيقية

المبحث الخامس: أصول في مقام المصائب للمؤمنين

المبحث السادس: اترك همومك وانطرح

المبحث السابع: السعادة المنشودة

المبحث الثامن: نور البصيرة

المبحث الأول: حقيقة الدنيا (٥٤)

أولاً: قال الله تعالى: {ألهاكم التكاثر - حتى زرتم المقابر - كلا سوف تعلمون - ثم كلا سوف تعلمون - كلا لو تعلمون علم اليقين - لترون الجحيم - ثم لترونها عين اليقين - ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} [التكاثر: ١ - ٨].

جاء في «مختصر ابن كثير» ما مختصره: يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: {ألهاكم التكاثر} عن الطاعة، {حتى زرتم المقابر} حتى يأتيكم الموت. وقال الحسن البصري: {ألهاكم التكاثر} في الأموال والأولاد، وعن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: {ألهاكم التكاثر} يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: «{ألهاكم التكاثر} يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟».

وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

وعن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «يهرم ابن آدم وتبقى معه اثنتان: الحرص، والأمل». وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس أنه رأى في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقل الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

وقوله تعالى: {كلا سوف تعلمون - ثم كلا سوف تعلمون} قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد، وقال الضحاك: {كلا سوف تعلمون} يعني: أيها الكفار، {ثم كلا سوف تعلمون} يعني: أيها المؤمنون، وقوله تعالى: {كلا لو تعلمون علم اليقين} أي: لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ثم قال: {لترون الجحيم - ثم لترونها عين اليقين} هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: {كلا سوف تعلمون - ثم كلا سوف تعلمون} توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار، التي إذا زفرت زفرة واحدة، خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله تعالى: {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. انتهى.

ثانياً: قال الله تعالى: {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى} [طه: ١٣١، ١٣٢].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم وما فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: {أزواجا منهم} يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيرا مما آتاهم. ولهذا قال: {ورزق ربك خير وأبقى}. وفي «الصحيح» أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة، فابتدرت عينا عمر

بالبكاء، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه! فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». فكان - صلى الله عليه وسلم - أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد.

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض».

وقال قتادة والسدي: {زهرة الحياة} يعني: زينة الحياة الدنيا.

وقال قتادة: {لنفتنهم فيه} لنبتليهم، وقوله: {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها} أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا} [التحريم: ٦]. وقوله: {لا نسألك رزقا نحن نرزقك} يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا - ويرزقه من حيث لا يحتسب} [الطلاق: ٢، ٣]، ولهذا قال: {لا نسألك رزقا نحن نرزقك}، وقال الثوري: لا نسألك رزقا: أي: لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم، عن ثابت قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا، صلوا، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يقول الله تعالى يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»، وقوله: {والعاقبة للتقوى} أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله .. انتهى.

ثالثاً: يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء». رواه الترمذي وصححه. وصححه الألباني.

وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور

جاء في «مختصر منهاج القاصدين» ما مختصره:

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة:

كقوله تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب - قل أؤنبئكم بخير من ذلكم} [آل عمران: ١٤ - ١٥]،

وقوله: {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} [آل عمران: ١٨٥]،

وقوله: {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء} [يونس: ٢٤]،

وقوله: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة} [الحديد: ٢٠]،

وقوله: {وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين} [الزخرف: ٣٥]،

وقوله: {فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم} [النجم:٢٩ - ٣٠].

وأما الأحاديث:

ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟».

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابا طويلا فيه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة، وكن أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن.

ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارا، وبسطها لأعدائه اغترارا، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك

عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء - يعني الدنيا.

ومن أمثلة الدنيا:

قال يونس بن عبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه.

ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل: إن عيسى - عليه السلام - رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى - عليه السلام -: بؤسا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر.

وعن أبي العلاء، قال: رأيت في النوم عجوزا كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت ويلك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة الخلقة حدباء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئا، وهي قبل أن توجد.

وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجودا بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، قال تحت شجرة، ثم راح وتركها»

وقال عيسى - عليه السلام -: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها.

هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلابد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربا، ازداد عطشا حتى يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم، ودجاجهم، وعسلهم، وسمنهم.

فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقا، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب.

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظنا منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه؛ لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضا للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يأخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون. اهـ من «مختصر منهاج القاصدين».

فائدة:

قال ابن السماك الواعظ: هب الدنيا في يديك، ومثلها ضم إليك، والمشرق والمغرب جاءا إليك، فجاءك الموت ماذا في يديك؟!

خاتمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة». رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «الفتح» (ج١١ ص ٢٤٤): قوله: «أعذر الله»: الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبق له اعتذار كأن يقول: لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكنه منه. وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية، والمعنى أن الله لم يترك للعبد سببا في الاعتذار يتمسك به. والحاصل أنه لا يعاقب إلا بعد حجة.

قوله (أخر أجله): يعني أطاله (حتى بلغه ستين سنة) وفي رواية معمر: «لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى يبلغ ستين سنة أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه».

قال ابن بطال: إنما كانت الستون حدا لهذا لأنها قريبة من المعترك، وهي سن الإنابة والخشوع وترقب المنية، فهذا إعذار بعد إعذار لطفا من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل، لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة، وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية. وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل.

وأصرح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رفعه: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك».

قال بعض الحكماء: الأسنان أربعة سن الطفولية، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة وهي آخر الأسنان، وغالب ما يكون ما بين الستين والسبعين فحينئذ يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط، فينبغي له الإقبال على الآخرة بالكلية لاستحالة أن يرجع إلى الحالة الأولى من النشاط والقوة. وقد استنبط منه بعض الشافعية أن من استكمل ستين فلم يحج مع القدرة فإنه يكون مقصرا ويأثم إن مات قبل أن يحج، بخلاف ما دون ذلك. اهـ.

المبحث الثاني: التدبير في شأن الرزق (٥٥)

فصل: كنا قد وعدنا بأنّا نفرد للتدبير في شأن الرزق بابًا؛ وذلك أن أكثر دخول التدبير على القلوب من جهته.

فاعلم أنَّ سلامة القلوب من التدبير في شأن الرزق منَّةٌ عظمى، لا يسلم منها إلا الموفقون الذين صدقوا الله في حسن الثقة؛ فاطمأنت قلوبهم إليه، وتَحَقَّقُوا بالتوكل عليه، حتى لقد قال بعض المشايخ: «احكموا لي أمر الرزق، ولا عليكم من سائر المقامات»، وقال بعض المشايخ: «أشد الهموم هموم الاقتضاء»، وتبين ما قال هذا الشيخ إن الله تعالى خلق هذا الآدمي محتاجًا إلى مدد يمسك بنيته ويمد قوته؛ لما كانت الحرارة الغريزية التي هي فيه تحلل أجزاء بدنه -كان هذا الغذاء تطبخه المعدة، فتأخذ خلاصته، فيعود جزء بدنه خلفًا لما حللته الحرارة الغريزية منه، ولو شاء الحق تعالى لأغنى وجود الآدمي عن المدد الحسي وتناول الأغذية، ولكن أراد-سبحانه وتعالى- أن يظهر حاجة الحيوان إلى وجود التغذية واضطراره إلى ذلك، وغناه -سبحانه وتعالى-عَمَّا هو الحيوان محتاج إليه؛ فلذلك قال -سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فتمدح -سبحانه وتعالى- بوصفين:

أحدهما: أنه يطعم غيره؛ لأنَّ كل العباد آخذ من إحسانه، وآكل من رزقه وامتنانه.

والآخرة: أنَّه لا يطعم؛ لأنَّه المقدس عن الاحتياج إلى التغذية، بل هو الصمد، والصمد هو الذي لا يُطْعَمُ.

وإنَّما خص الحق تعالى الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون غيره من الموجودات؛ لأنه - سبحانه وتعالى - وَهَبَ الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقة لادعى أو ادعي فيه، فأراد الحق سبحانه وتعالى -وهو الحكيم الخبير- أن يحوجه إلى مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك؛ ليكون تكرار الحاجة منه سببًا لخمود الدعوى عنه أو فيه.

فائدة: اعلم أنَّ الحق تعالى أراد أن يجعل الحاجة لهذا النوع -وهو الحيوان من الآدمي وغيره- إما ليعرفه أو ليعرف به، ألا ترى أنَّ الحاجة باب إلى الله، وسبب يوصلك إليه! ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾! فجعل الفقر إلى الله سببًا يؤدي إلى الوصول إليه والدوام بين يديه، ولعلك تفهم ها هنا قوله صلى الله عليه وسلم: «من عرف نفسه عرف ربه»؛ أي: من عرف نفسه بحاجتها وافتقارها وذلتها وفاقتها ومسكنتها -عرف ربه بعزه وسلطانه ووجوده وإحسانه، إلى غير ذلك من أوصاف الكمال، لا سيما هذا النوع من الآدمي؛ فإنَّ الحق سبحانه وتعالى كَرَّرَ فيه أسباب الحاجة وعَدَّدَ فيه أنواع الفاقة؛ لأنه محتاج إلى صلاح معاشه ومعاده، وافهم ها هنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: من أمر دنياه وأخراه، فلكرامته عند الله كَرَّرَ أسباب الحاجة فيه، ألم تر أنَّ لأصناف الحيوان غنية بأصوافها وأوبارها وأشعارها، عن لباس دثارها! وغنية بمرابضها وأوكارها عن أن تتخذ بيتًا لقرارها!

سر خلق التدبير والاختيار

فائدة: اعلم أنَّ سر خلق التدبير والاختيار، ظهور قهر القهار؛ وذلك أنه سبحانه أراد أن يتعرف إلى العباد بقهره؛ فخلق فيهم تدبيراً واختياراً، ثم فسخ لهم بالحجة حتى أمكنهم ذلك؛ إذ كانوا في وجود المواجهة والمعاينة، لم يمكنهم التدبير والاختيار، كما لا يمكن الملأ الأعلى ذلك، فلما دبر العباد واختاروا -توجه بقهره إلى تدبيرهم واختيارهم، فزلزل أركانهم، وهدم بنيانهم، فلما تَعَرَّفَ للعباد بقهر مراده علموا أنه القاهر فوق عباده.

فما خلق الإرادة فيك لتكون لك الإرادة، ولكن لتدحض إرادته إرادتك؛ فتعلم أنه ليس لك إرادة، كذلك لم يجعل التدبير فيك؛ ليكون ذلك دائمًا فيك، وإنما جعله فيك لتدبر ويدبر فيكون ما يدبر لا ما تدبر؛ ولذلك قيل لبعضهم: بماذا عرفت الله؟ قال بنقض العزائم.

فائدة أخرى: وهو أن الحق تعالى أراد أن يختبر هذا الآدمي فأحوجه لأمور شتى لينظر أيدخل في استجلابها بعقله وتدبيره، أو يرجع إلى الله في قسمته وتقديره.

فائدة أخرى: وهو أنه سبحانه وتعالى أراد أن يتحبب إلى هذا العبد، فلما أورد عليه أسباب الفاقة ورفعها عنه، وجد العبد لذلك حلاوة في نفسه، وراحته في قلبه، فأوجب له ذلك تجديد الحب لربه، قال صلى الله عليه وسلم: (أحبوا الله لما يغذوكم به نعمه). فكلما تجددت النعم تجدد له من الحب بحسبها.

فائدة أخرى: وهو أنه سبحانه وتعالى، أراد أن يشكر، فلذلك أورد الفاقة على العباد، وتولى رفعها ليقوموا له بوجود شكره، وليعرفوه بإحسانه وبره، قال الله تعالى:{كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور}.

فائدة أخرى: وذلك انه تعالى أراد أن يفتح للعباد باب المناجاة، فكلما احتاجوا إلى الأقوات والنعم، توجهوا إليه برفع الهمم، فشرفوا بمناجاته ومنحوا من هباته، ولو لم تسقهم الفاقة إلى المناجاة لم يفقهها عقول العموم من العباد. ولولا الحاجة لم يستفتح بابها إلا عقول أهل الوداد.

فصار ورود الفاقة سببا للمناجاة والمناجاة شرف عظيم، ومنصب من الكرامة جسيم.

ألا ترى أن الحق سبحانه وتعالى أخبر عن موسى عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: {فسقى لهم ثم تولى إلى الظل، فقال، رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير}.

قال علي رضي الله عنه والله ما طلب إلا خبزا يأكله، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزاله.

فانظر رحمك الله: كيف سأل من ربه ذلك لعلمه أنه لا يملك شيئا غيره، وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، يسأل الله تعالى ما قل وجل حتى قال بعضهم: {أني لأسأل الله في صلاتي حتى ملح عجيني}.

ولا يصدنك أيها المؤمن عن طلب ما تحتاج إليه من الله قلة ذلك فانه إن لم تسأله في القليل، لم تجد ربا يعطيك ذلك غيره والمطلب وان كان قليلا، فقد صار لفتح باب المناجاة جليلا، حتى قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: لا يكن همك في دعائك، الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوبا عن ربك، وليكن همك مناجاة مولاك،

وفي هذه الآية: {فسقى لهم ثم تولى إلى الظل، فقال، رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير}. فوائد:

الفائدة الأولى: وهو أن يكون المؤمن طالبا من ربه ما قل وجل، وقد ذكرناه آنفا.

الفائدة الثانية: أنه صلى الله عليه وسلم نادى متعلقا باسم الربوبية لأنه المناسب في هذا المكان، لأن الرب من رباك بإحسانه، وغذاك بامتنانه، فكان في ذلك استعطاف لسيده إذ ناداه باسم الربوبية، التي ما قطع عنه موائدها، ولا حبس فوائدها.

الفائدة الثالثة: قوله: {إني لما أنزلت إليّ من خير فقير}، ولم يقل إني إلى الخير فقير، وفي ذلك من الفائدة: أنه لو قال: إني {إلى خيرك أو الخير فقير}، لم يتضمن أنه قد أنزل رزقه، ولم يهمك أمره.

فأتى بقوله: {أني لما أنزلت إليّ من خير فقير، ليدل على أنه واثق بالله، عالم بالله لا ينساه، فكأنه يقول:

رب إني اعلم أنك لا تهمل أمري، ولا أمر شيء، مما خلقت، وأنك قد أنزلت رزقي، فسق لي ما أنزلت لي، كيف تشاء على ما تشاء محفوفا بإحسانك مقرونا بامتنانك، فكان في ذلك فائدتان:

فائدة الطلب، وفائدة الاعتراف بأن الحق سبحانه وتعالى قد أنزل رزقه، ولكنه أبهم وقته، وسببه، وواسطته، ليقع اضطرار العبد، ومع الاضطرار تكون الإجابة، لقوله تعالى:

{أمن يجيب المضطر إذا دعاه}.

ولو تعين السبب والوقت والوسائط، لم يقع للعباد الاضطرار الذي وجوده عند إبهامها، فسبحان الإله الحكيم، والقادر العليم.

الفائدة الرابعة: تدل الآية على أن الطلب من الله تعالى، لا يناقض مقام العبودية وبعد ذلك طلب من الله، فدل على أن مقام العبودية لا يناقض الطلب.

فإن قلت: إن كان مقام العبودية لا يناقض الطلب، فكيف لم يطلب إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم حين رمي به في المنجنيق وتعرض له جبريل عليه السلام، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما الله فبلى.قال: سله، قال: حسبني من سؤالي، علمه بحالي. فاكتفى بعلم الله تعالى به عن إظهار الطلب منه.

فالجواب: أن الأنبياء صلوات الله عليهم يعاملون في كل موطن بما يفهمون عن الحق، أنه اللائق به.

ففهم إبراهيم عليه السلام أن المراد به في ذلك الموطن، عدم إظهار الطلب والاكتفاء بالعلم، فكان بما فهمه عن ربه، وكان هذا لأن الحق سبحانه أراد أن يظهر سره، وعنايته به للملأ الأعلى الذين لما قال لهم: {إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون}.

فأراد الحق تعالى، أن يظهر سر قوله: {إني أعلم ما لا تعلمون}.

يوم زج بإبراهيم عليه السلام في المنجنيق، كأنه يقول: يا من قال: أتجعل فيها من يفسد فيها، فكيف رأيتم خليلي؟

نظرتهم إلى ما يكون في الأرض من صنع أهل الفساد، كنمرود ومن ضاهاه من أهل الفساد، وما نظرتم إلى ما يكون فيها من أهل الصلاح والرشاد، كما كان من إبراهيم عليه السلام ومن تابعه من أهل الوداد؟

وأما موسى صلوات الله عليه، فإنه علم أن مراد الحق تعالى منه في ذلك الوقت إظهار الفاقة، وإبداء المسألة فقام بما يقتضيه وقته، ولكل وجهة هو موليها. فكل على بينة وهداية، وتوفيق من الله ورعاية.

الفائدة الخامسة: انظر إلى طلب موسى عليه السلام من ربه، وجود الرزق، ولم يواجهه بالطلب، بل اعترف بين يدي الله بوصف الفقر والفاقة، وشهد له سبحانه وتعالى بالغنى لأنه إذا عرف نفسه بالفقر والفاقة عرف به بالغنى والملاءة وهذا من بسط المناجاة وهي كثيرة:

فتارة يجلسك على بساط الفاقة فتناديه: يا غني.

وتارة على بساط الذلة فتناديه يا عزيز.

وتارة على بساط العجز فتناديه: يا قوي.

وكذلك في بقية الأسماء.

فاعترف موسى عليه السلام بالفقر والفاقة إلى الله تعالى، فكان في ذلك تعريض للطلب وان لم يطلب.

وقد يكون التعريض للتطلب بذكر أوصاف العبد من فقره إلى الله تعالى وحاجته.

وقد يكون التعريض بذكر أوصاف السيد من وجوده وأحديته كما جاء في الحديث:

(أفضل دعائي ودعاء الأنبياء من قبلي لا اله إلاّ الله، وحده لا شريك له).

فجعل الثناء على الله تعالى دعاء لأن في الثناء على السيد الغني بذكر أوصاف كماله تعريضا لفضله ونواله، كما قال الشاعر:

كريم لا يغيره صباح *** عن الخلق السني ولا مساء

إذا أثنى عليك المرء يوما *** كفاه من تعرضه الثناء

وقال الله تعالى حاكيا عن يونس عليه السلام:

{فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}.

ثم قال سبحانه وتعالى مخبرا عن نفسه:

{فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين}.

ويونس عليه السلام لم يطلب صريحا، ولكن لما أثنى على ربه عز وجل واعترف بين يديه فقد أظهر الفاقة إليه فجعل الحق تعالى ذلك طلبا.

الفائدة السادسة: وكان من حقها أن تكون أولى: إن موسى عليه السلام فعل المعروف مع إبنتي شعيب عليه السلام، ولم يقصد منهما أجرا، ولا طلب منهما جزاء، بل لما سقي لهما أقبل على ربه، فطلب منه، ولم يطلب منهما، وإنما طلب من مولاه الذي مهما طلب منه أعطاه، والصوفي من يوفى من نفسه، ولا يستوفى لها ولنا في هذا المعنى شعر:

لا تشتغل بالعتب يوما للورى *** فيضيع وقتك والزمان قصير

وعلام تعتبهم وأنت مصدق *** إن الأمور جرى بها المقدور

هم لم يوفوا للإله بحقه *** أتريد توفيه وأنت حقير؟

فاشهد حقوقهم عليك وقم بها *** واستوف منك لهم وأنت صبور

وإذا فعلت فاشهد بعين من *** هو بالخفايا عالم وخبير

فموسى عليه السلام وفي من نفسه ولم يستوف لها، فكان له عند الله الجزاء الأكمل، وعجل له سبحانه في الدنيا زائدا على ما ادخره له في الآخرة: أن زوجه إحدى الابنتين، وجعله صهرا لنبيه عليه السلام، وآنسه به حتى جاء أوان رسالته.

فلا تجعل معاملتك إلا مع الله تعالى، أيها العبد، تكن من الرابحين، ويكرمك بما أكرم به العباد المتقين.

الفائدة السابعة: انظر إلى قوله سبحانه وتعالى: {فسقى لهما ثم تولى إلى الظل}.

ففي ذلك دليل على أنه يجوز للمؤمن أن يؤثر الظلال على الضواحي، وبارد الماء على سخنه، وأسهل الطريقين على أشقهما وأوعرهما ولا يخرجه ذلك عن مقام الزهد.

ألا ترى أن الحق سبحانه وتعالى أخبر عن موسى عليه السلام، انه تولى إلى الظل أي قصده وجاء إليه.

فان قلت قد جاء عن بعضهم: أنه دخل عليه فوجد قد انبسطت الشمس على قلته التي يشرب منها، فقيل له في ذلك، فقال: إني لما وضعتها لم يكن شمس، وإني لأستحي أن امشي بحظ نفسي.

فاعلم رحمك الله: أن هذا حال عبد يتطلب الصدق من نفسه ويمنعها مناها ليشغلها بذلك عن الغفلة عن مولاها، ولو اكتمل مقامه لرفع الماء عن الشمس قاصدا بذلك قيامه بحق نفسه التي أمر الله تعالى أن يقوم بها لا استجلابا لحظه، ولكن ليقوم بحق ربه في نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}.

وقال تعالى: {يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا}.

ولذلك كان عند الفقهاء: إذا نذر المشي إلى مكة شرفها الله حافيا جاز له أن ينتعل ولا يلزمه الحفاء، لأنه ليس للشرع في متاعب العباد قصد خاص، ولم تأت الشرائع بمنع الملاذ للعباد، وكيف وهي مخلوقة من أجلهم.

قال الربيع ابن زياد الحارثي لعلي رضي الله عنه: أسعدني على أخي عاصم، قال: ما باله؟ قال: لبس العباءة يريد النسك فقال علي رضي الله عنه: علي به.

فأتى مؤتزرا بعباءة مترديا بأخرى، شعث الرأس واللحية فعبس في وجهه وقال:

ويحك: أما استحيت من اهلك؟ أما رحمت ولدك؟

أترى أن الله تعالى أباح لك الطيبات وهو يكره أن تنال منها شيئا، بل أنت أهون على الله.

أما سمعت من الله يقول في كتابه: {والأرض وضعها للأنام.. إلى قوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان}.

أفترى من الله أباح هذا للعباد إلا ليبتذلوه، ويحمدوا الله عليه فيثيبهم؟ وان ابتذالك نعم الله بالفعل خير منه المقال، قال عاصم: (فما بالك في خشونة مأكلك وخشونة ملبسك).

قال: ويحك أن الله فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس.

فقد تبين لك من علي رضي الله عنه، أن الحق تعالى لم يطالب العبد بعدم تنازل الملذوذات وإنما طالبهم بالشكر عليها إذ تناولوها فقال تعالى: {كلوا من رزق ربكم واشكروا له}.

وقال: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا}.

ولم يقل: لا تأكلوا، وإنما قال: كلوا واعملوا.

فإن قلت: الطيبات في هاتين الآيتين: المراد بها الحلال، إذ هو الطيب باعتبار نظر الشرع.

فاعلم أنه يمكن أن يكون المراد بالطيبات الحلال، لأنه طيب باعتبار انه لم يتعلق به إثم ولا مذمة ولا حجبه .

ويمكن أن يكون المراد بالطيبات، الملذوذات من المطاعم، ويكون سر إباحتها، والأمر بأكلها ليجد متناولها لذاذتها فتنشط همته للشكر فيقوم بوجود الخدمة، ويرعى حق المحرمة.

قال لي الشيخ أبو الحسن رحمه الله: قال لي شيخ: يا بني، برد الماء، فان العبد إذا شرب الماء الساخن، قال: الحمد لله بكزازة، وإذا شرب الماء البارد. فقال الحمد لله، استجاب كل عضو فيه بالحمد لله.

ثم قال: وأما الذي دخل عليه فوجد قد انبسطت الشمس على قلته، فقيل له: ألا ترفعها؟ فقال: حين وضعتها لم تكن شمس، واني لاستحي أن امشي لحظ نفسي، فانه صاحب حال لا يقتدى به.

المبحث الثالث: كيف نتعامل مع مصاعب الحياة؟ (٥٦)

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]، والكَبَد هو المشقة والشدة والتعب، الإنسان عمومًا لا تتبين ملامحُ شخصيته ولا تتوضح إلا إذا وقع في الشدة والمصاعب، وهو أيضًا يكتشف قدراته وطاقته على التحمل وكيفية التعامل مع الأزمات وتجاوزها، فللمصيبة دورٌ كبير في تكوين شخصيته، الناس في حالة اليسر متساوون في الطباع؛ أليفون مَرِحون مقبلون على الحياة، فإذا وقعت المصيبة؛ كأن يخسر الإنسان عمله أو ما يملك، أو يُبتلى في صحته، يظهرون على حقيقتهم من الهلع والخوف من المجهول، والعجز عن تلبية متطلبات الحياة، وبالتالي قد ينهارون ويعانون من المشاكل النفسية والصحية، ويفقدون الحافز والدافع للحياة.

وقد يتخبط الكثير حول كيفية البدء من جديد، الإنسان الواقعي والشجاع يبدأ من موقعه وما وصل إليه، ولا ينتظر المعجزات ولا يحمِّل أحدًا مسؤولية إخفاقاته، نعم خسارة العمل مصيبة في الوقت الحاضر؛ لما ينتج عنها من العجز عن توفير المتطلبات الضرورية من الأكل والسكن والتعليم، وانعكاسها على حالة الأولاد النفسية وعلى المحيطين بنا، وقد يلجأ البعض إلى الوقوع في فخ الديون لسد الحاجات الضرورية، وتبدأ دوامة الانفعالات واتخاذ المواقف وتقييم الآخرين والحاجة إلى الأهل، والتدخل في القرارات، وفقدان الاستقلالية المادية.

المصائب تقع لكل الأمم ولكل الناس حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فخليل الرحمن إبراهيمُ عليه السلام تعرَّض لابتلاءات كثيرة فصبرَ على ذلك، من ابتلائه بالحرق بالنار التي أبدلها الله بردًا وسلامًا، وخروجه من أرضه إلى ديار أخرى، وتركِه زوجتَه وابنه في أرض مقفرة ووادٍ غير ذي زرع، امرأة وطفل رضيع في مكان مهجور، ولكنه أمر الله والثقة بأن الله لن يضيعهم، وابتلائه بذبح وحيده إسماعيل عليه السلام، كلُّ هذه المصائب ولكنه كان صابرًا أوابًا حتى أصبح أمَّةً وحده ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وهذا نبيُّ الله يعقوب عليه السلام، فَقَدَ أحَبَّ أبنائه إليه - يوسف - على يد إخوته، فكانت المصيبة مضاعفةً عليه - فقدُ الابن وظلمُ الإخوة - حتى أشرَفَ من حزنه على الهلاك، وقال له أهل بيته: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، فما حنَّ عليه أبناؤه، ولا رقت قلوبهم القاسية لحزنه، فكانت هذه الحادثة لمصلحة يوسفَ عليه السلام؛ لتمكينه في الأرض وتعلُّمه تأويلَ الأحاديث.

قد تكون بعض الأحداث مصيبةً في نظر البعض، ولكنها تحمل جوانبَ إيجابية، ونعمًا كثيرة يغفل عنها البشر، ونبيُّ الله أيوبُ أصيب في صحته وأهله، حتى ذكر دعاءً خالدًا يدعو به من أصيبَ في مثل مصيبته: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، وهكذا معظم الأنبياء تعرَّضوا لابتلاءات كثيرة فصبَروا.

قال علماء اللغة رحمهم الله في تعريف المصيبة بأنها الأمر المكروه والسيئ الذي يصيب الإنسانَ، وتكون مكروهة؛ لأنها لا تلائم طبع الإنسان الذي يميل إلى الراحة والسكون والثبات، وينفر عن كل ما يؤلمه، ولكن ماذا نفعل؟ هذه طبيعةُ الحياة لا تدوم على حال واحدة؛ فدوام الحال من المحال.

يتفاوت البشر - بغض النظر عن الدِّين - في تلقِّيهم المصائبَ؛ فقد يتقبَّلها البعض بهدوء وسكينة، وقد ينهار البعض من هولها وشدتها؛ ولذلك ورد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه في مدح الروم بأنهم أسرع الناسِ إفاقةً بعد مصيبة، جميع الناس تنزل بهم المصائب لا فرق بين مسلم ولا كافر، ولكن ما يميِّز المؤمنَ والمسلم هو طريقة تعاطيه مع المصيبة ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

الله أمَرَنا بالصبر عند نزول البلاء، والرضا والتسليم والرجوع إلى الله، فالمصيبة تجري علينا شئنا أم أبينا، و ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، والموت أكبرُ المصائب؛ يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، فالموت نهاية رحلة وحياة الإنسان بكل ما تحمله من طاعة ومعصية وقرب وبعدٍ عن الله تعالى، وما حملَ الإنسان من أوزار لا يستطيع الرجوع عنها، ولما يخلفه من أهل وأولاد وراءه يحتاجون إلى الرعاية، وقد يضيعون بموت هذا المعيل، فتؤذيهم الحياة والبشر لوقت طويل إلى أن يقفوا على أقدامهم من جديد، والإنسان الخيِّر المؤمن يبحث عن الأرملة واليتيم، المحتاجين بصدق؛ ليقدِّم لهم يد المساعدة من غير مقابل، وليخفِّف من آلامهم.

ذُكرت المصيبة في القرآن الكريم في آيات كثيرة مفسرة الأسباب التي تؤدي إلى وقوعها بالبشر، ولنرَ الآن كيف فسَّر القرآن الكريم المصائب التي تنزل بالناس: كثيرة هي الآيات الكريمة التي تتحدث عن المصائب وأسبابها، وبتدبر هذه الآيات نرى أنها تنزل بالناس لأسباب، منها:

أولًا: قد تكون هذه المصائب كنوع من العقوبة في الدنيا على أعمال وذنوب يقترفها البشر، يدل عليها بعضُ هذه الآيات، كما يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: ٥١]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، فالأعمال السيئة سبب وقوع المصيبة ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧].

وكانت المصائب العامة التي نزلت بالأمم السابقة لظلمهم وكفرهم وتكذيبهم الرسلَ عقابًا من الله تعالى على هذه الأعمال التي قاموا بها: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧]، فكان جزاء قوم سبأ على كفرهم أن أرسل الله عليهم السيل القويَّ، فخسروا الحياة الهانئة التي كانوا يعيشونها.

ونوح عليه السلام دعا قومه زمنًا طويلًا إلى الإسلام، فلم يؤمن إلا عددٌ قليل، فكانت عاقبتهم الغرق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وهكذا حال الأمم الأخرى التي كذَّبت الرسل وظلمت وتعدَّت: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود: ٩٤]، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤ - ٨].

وقوم لوط الذين يعملون الفاحشة كان عقابهم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، وقوم فرعون لما كذَّبوا موسى ورفضوا إرسال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام كان عقابهم: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ومثلما تنزل المصائب بالأمم الكافرة عقوبةً لهم على كفرهم، تنزل كذلك بالأفراد؛ مثلًا قارون كان من قوم موسى أعطاه الله من الكنوز الكثير، فبغى عليهم وبغى في الأرض الفساد: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١]، والسامري الرجل الذي أضلَّ بني إسرائيل وصنع لهم العجل ليعبدوه، عوقب كما يقال بمرض يجعله لا يمسُّ أحدًا ولا أحد يمسه، وهو ما قيل في تفسير الآية الكريمة: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧].

وكذلك الأعمال الخيِّرة والحسنة تجلب رضا الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، فكان من المفهوم أن الأعمال السيئة والشريرة تجلب على الناس البلاءَ والشر، فيقول تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

ثانيًا: قد تكون هذه المصائب من باب الابتلاء والاختبار والامتحان:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: أن الله رحيم غفور، كيف يرضى بأن يصيب عباده بالمصائب والابتلاءات؟ فيأتي الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

والأمر الواضح والمفهوم أن الابتلاء لا يكون بالسيئات فقط، فقد تكون النعمة أيضًا من باب الابتلاء: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ثالثًا: وقد تكون المصائب وسيلة لتكفير الذنوب، فبعض البشر يحبُّهم الله تعالى؛ لذلك يريد أن يخفف من ذنوبهم بمجازاتهم على بعض أعمالهم في الحياة الدنيا، ولعلهم يرجعون إلى الله، أو قد تكون مصيبة شخص فائدةً لشخص آخر، ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة: ١١٨]، ويقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، فعلى الإنسان اللبيب أن يعرف من أين أصيبَ، ويتفكر في المصيبة التي نزلت به، ويبحث في أسبابها؛ ليعالج ما وقع فيه، ويشكر الله ويحمده على ما أخذ وما أبقى، ويطلب الصبر على البلاء، ويصلح من حاله.

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى كيفية التعامل مع الأمور المكروهة والمؤذية التي تنزل بنا، ومن هذه الأمور:

الاسترجاع: بأن يقول الإنسان المؤمن: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، يقولها الإنسان عن قناعة وثقة ويقين، لا مجرد أن يردد كلمات لا يعرف معناها ولا يشعر بها.

الصبر: وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن قيمة الصبر وعن منزلة الصابرين عند الله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))، ويقول صلى الله عليه وسلم: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ))، ويقول صلى الله عليه وسلم: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لطم الْخُدُودَ، وشَقَّ الْجُيُوبَ، ودَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ)).

ومن المفيد لنا لكي نستمر ونتغلب على أحزاننا: تغييرُ رؤيتنا لأحداث الحياة، واستبدال كلمة المصيبة بكلمة أقل وقعًا وألمًا على النفس؛ كأن تكون صعوبات تعترض الإنسان في حياته، أو ابتلاءات تكشف طبيعة هذا الإنسان، وعند الرضا والتسليم تكون وسيلة لتقريبنا من الله سبحانه وتعالى ورفع درجتنا عنده، أو كفارة لغفران بعض الذنوب وفرصة لبداية جديدة.

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه: لماذا وقعت هذه المصيبة؟ هل اقترف ذنبًا استحق عليه العقوبة؟ أو هل قصَّر في حق الله سبحانه وتعالى؟ فإذا حصل على الجواب سيشعر بالراحة والسكون بدل الصراخ واللوم؛ لأن هذا ما جنَتْه يداك يا رجل، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

البحث عن الجوانب الإيجابية للمصيبة:

في الحياة لا يوجد شيء كلُّه سوء، لا بد من وجود بعض الجوانب الجيدة فيما يمر علينا، عندما يخسر الإنسان أحد أبنائه قد يكون في ذلك خيرٌ؛ مثلًا قد يكون هذا الولد سيئًا، وقد يجلب الشقاء لأهله، أو يؤذي إنسانًا بريئًا في المستقبل، وقد يكون ذلك رحمة بالوالدين وزيادة لمنزلتهم عند الله تعالى، وعندما يخسر الإنسان وظيفته، هذه ليست نهاية الدنيا؛ فقط يحتاج لبعض الوقت والتفكير ليكتشف أن ذلك خيراً له، فقد يبدع الإنسان في مجال آخر، ويكتشف في نفسه إمكانيات أخرى يحقِّق بها حياة أفضل له ولعائلته، فقط يحتاج إلى أن يخرج من ضيق التفكير، ومن دائرة الراحة والسهولة إلى حياة التعب والبذل والجهد؛ للحصول على فرص أفضل، وألا يخاف من الفشل.

تغيير رؤية الإنسان للحياة:

كل ما في الحياة هو عبارة عن عرض وزينة ولهو والحياة كلها زائلة لذلك فالحب الحقيقي والتعلق الحقيقي يكون لله والعمل للدار الآخرة، والأشخاص والأموال وواجباتنا تجاهها تكون لرضى الله ومساعدة الناس، لا لنكون عبيدًا لها، فقد تكون خسارة المال لتنبيهنا إلى حق الآخرين في هذا المال الذي هو بالأساس ملك لله ونحن حفاظ وأمناء عليه فقط.

للمصيبة دور في إظهار الجانب الإنساني للبشر:

الإنسان قد يكون قاسيًا وظالمًا وبغيضًا ومؤذيًا ومتكبراً، ولكن عند الوقوع في المصيبة يظهر ضعفه وأنه بلا حول ولا قوة إلا بالله؛ لذلك يحتاج إلى الأهل والأصدقاء عند الوقوع في المصيبة، والواجب الدينيُّ والاجتماعي يفرض على الناس أن يكونوا قريبين من بعضهم، ويتناسوا الخلافات - ولو مرحليًّا - للتهوين على المصاب، والخروج به من حالة الأزمة واليأس والحزن، ولهم عظيم الأجر في ذلك.

الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره والقبول بخيره وشره:

فالمصيبة حلَّت ونزلت وانتهى الأمر، فلا نخسر ما فقدناه، ونخسر كذلك طاعة الله والرضا بحكمه، كل شيء في الحياة ملك لله، له ما أعطى وله ما أخذ، ونحن نشكرك يا الله على ما تركت وأبقيت لنا، وأنعمت وتفضَّلت به علينا.

اربط نفسك بهدف كبير في الحياة تريد تحقيقه بقوة:

عندها ستندفع بكل قوتك وطاقتك للعمل على تحقيق هذا الهدف، وسترى أن الأحداث القاسية والمصائب هي عبارة عن ملهيات ومضيعة للوقت، عليك أن تتعامل معها بسرعة؛ حتى لا تشغلك عن تحقيق أهدافك، سيساعد هذا الشيء على صرف انتباهك عن الآلام والمصائب، فإن ما حل بك ليس نهاية العالم.

الخروج من منطقة الراحة:

كل خبراء التنمية البشرية، ومعظم الناجحين أو الذين حققوا إنجازاتٍ كبيرة في الحياة يتحدثون عن الخروج من منطقة الراحة، فما هي منطقة الراحة؟ هي الحالة التي تعيشها وأنت تعرف ماذا ينتظرك، ويحدث ما تتوقعه وما ستحصل عليه، البعض يخسر هذه المنطقة بسبب خسارة العمل المريح أو لم يحصل عليه أصلاً، فيدخل في دوامة البحث عن العمل المستقر، واليأس إذا لم يحصل عليه، ونحن نعلم أن الحصول على وظيفة في الوقت الحالي أصبح صعبًا نسبيًّا، ويحتاج المال لشراء الوظيفة أو الواسطات؛ لذلك نكيف أنفسنا على تقبُّل العمل الحر وإن كان يحمل التعب والمشقة والمخاطرة، إلى أن نحصل على الوظيفة التي نستحقها، وهذا ما يسمى الخروج من منطقة الراحة والاستقرار إلى منطقة التعقيد والمشقة، صحيح أن السكون والنظام والاستقرار مريح، ولكن ليس دائمًا، فإذا وُضِعَ الإنسان في موقف يكون عليه أن يدخل مرحلة التعقيد والخروج من منطقة الراحة، فلا بأس بذلك.

الإنسان العربي نوعًا ما إنسان يميل إلى الهدوء والاستقرار والراحة والتقليدية، ويخشى الدخول في نمط حياة غير مستقرة تحمل الكثير من المفاجآت والخطورة أحيانًا، وهذا في الحقيقة يفوِّت عليه الكثير من المتعة والاكتشافات، بينما البعض يحب الصعاب ويسعى لها، يجد المتعة في تسلق الجبال وركوب الأمواج وسباق السيارات، والمشي لمسافات طويلة والرحلة في الصحراء.. كل هذه الأشياء تحرِّر تفكير الإنسان، وتبعد به عن الروتين الحياتي الملل وطرق التعامل الرتيبة مع أحداث الحياة ومصاعبها.

حب مساعدة الآخرين:

على الإنسان أن يبرمج عقله على نوع من المسؤولية تجاه الآخرين، كثير من الناس يستحق المساعدة، ابحث في محيطك عن أناس يعانون الوحدة أو الفقر أو المرض، ساعد هؤلاء بتحقيق بعض ما يتمنَّون أن يحصلوا عليه، ستجد سعادتك عندما تنظر في عيونهم أو تسمع دعاءهم لك بالخير، والشكر والامتنان، عندها ستعرف أن الحزن والألم الذي تشعر به لا يدوم، وهو مرحلة مؤقتة ستتجاوزها بالبذل والعطاء، فأنت عندما تعطي تفيد نفسك أكثرَ من المعطى لهم، تستيقظ صباحًا وأنت تعلم أن هناك من ينتظر مجيئك ومواساتك، سيتبدد حزنك بفرحهم ودعائهم، ورضا الله عنك.

ابكِ وابكِ كثيراً لا تكبح عواطفك، نحن لا نموت من البكاء، ولكننا نعاني عندما نحبس أحزاننا في أنفسنا وندخل في دوامة الأمراض النفسية، وهذا الشيء مضيعة للوقت، والصحة والمال والجهد.

تجنب الأشخاص الذين يسببون لك الألم أو الإزعاج: انشغل عن الاختلاط بهم بأي شيء، أو اهرُب من مواجهتهم للحصول على الراحة النفسية وتجنب التوتر.

وقت مستقطع:

اهرب من المسؤوليات قليلاً وأعطِ لنفسك قليلاً من الوقت للراحة والنوم، أو للتفكير في ما مر بك من أحداث وما قمت به من أعمال، وإن كنت أسأت إلى أحد ما، فأصلح ما قمت به حالاً، لا تسبب التعاسة لأحد.

لا تعش أسير الماضي، تصالح مع نفسك، لا تنشغل بالمستقبل كثيراً، عش اللحظة، اهتم بعائلتك ومن يحيط بك، ولا تسبب الإزعاج والألم للآخرين.

لا تقارن نفسك مع الآخرين:

لكل شخص بصمته الخاصة به ولكلٍّ دورُه، أنت مميز وتستحق النجاح والتقدير، حتى لو كنت عامل نظافة بسيطًا، أنت مهم، لو كنت مثل الآخرين لفقدت تميزك، ما يجعل منك مختلفًا هو ما يجعل منك متميزًا، أنت بكل ما تحمله من حب وإيمان وعطف أنت مميز وثمين، ولك دور في الحياة، تقبَّل نفسك وواقعك - طبعًا مع السعي الدائم للتغيير نحو الأفضل.

عليك أن تسأل نفسك دائمًا: ما هو النجاح؟ هل هو امتلاك أكبر قدر من المال أم من يمتلك وظيفة جيدة وعملاً مثمرًا، حتى هؤلاء الناس قد لا يكونون سعداء، من الخبرة في الحياة لا نرى إنسانًا يملك كل شيء، هناك دومًا أشياء ناقصة يفتقر إليها كثير من الناس.

وأنت في خضمِّ هذه الأحداث لا تنسَ أن تقدِّم تفسيراً منطقيًّا واعتذارًا صادقًا لمن كانوا ضحية قراراتك الخاطئة، ولا تعطِ وعودًا لا تستطيع الإيفاء بها.

الأمان المادي:

الإنسان بحاجة إلى ادخار بعض المال للتصرف به في أوقات الشدة، وللحصول على الأمان الاقتصادي والاستقلالية والحرية في اتخاذ قرارات بدون تدخل الآخرين، كل هذا يوفره الأمان المادي.

وبعد، فإن الأمر كلّه لله سبحانه وتعالى يتصرف في عباده كيف يشاء: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]،

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

ونختم بحِكم الشافعي رحمه الله تعالى:

دَعِ الأَيَّامَ تَفعَلُ ما تَشاءُ ... وَطِب نَفسًا إِذا حَكَمَ القَضاءُ

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَّيالي ... فَما لِحَوادِثِ الدُّنيا بَقاءُ

وَكُن رَجُلًا عَلى الأَهوالِ جَلدًا ... وَشيمَتُكَ السَّماحَةُ وَالوَفاءُ

وَإِن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَرايا ... وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ

تَسَتَّر بِالسَّخاءِ فَكُلُّ عَيبٍ ... يُغَطّيهِ كَما قيلَ السَّخاءُ

وَلا تُرِ لِلأَعادي قَطُّ ذُلًّا ... فَإِنَّ شَماتَةَ الأَعدا بَلاءُ

وَلا تَرجُ السَّماحَةَ مِن بَخيلٍ ... فَما في النارِ لِلظَّمآنِ ماءُ

وَرِزقُكَ لَيسَ يَنقُصُهُ التَأَنّي ... وَلَيسَ يَزيدُ في الرِّزقِ العَناءُ

وَلا حُزنٌ يَدومُ وَلا سُرورٌ ... وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخاءُ

إِذا ما كُنتَ ذا قَلبٍ قَنوعٍ ... فَأَنتَ وَمالِكُ الدُّنيا سَواءُ

وَمَن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايا ... فَلا أَرضٌ تَقيهِ وَلا سَماءُ

وَأَرضُ اللَهِ واسِعَةٌ، وَلَكِنْ ... إِذا نَزَلَ القَضا ضاقَ الفَضاءُ

دَعِ الأَيَّامَ تَغدِرُ كُلَّ حينٍ ... فَما يُغني عَنِ المَوتِ الدَّواءُ

المبحث الرابع: الرحمة الحقيقية (٥٧)

الرحمة الحقيقية

ومما ينبغي أن يعلم : أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك. فمن رحمة الأب بولده : أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم. ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين : تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته : من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: « إن المبتلى إذا دعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟ »

وفي أثر آخر : « إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه » ، فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه. كيف وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، و جود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها. فمن رحمته سبحانه بعباده : ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم. ومن رحمته : أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ قال غير واحد من السلف : من رأفته بالعباد : حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به.

المبحث الخامس: أصول في مقام المصائب للمؤمنين (٥٨)

ما يصيب كثيرا من المؤمنين من المصائب وكثيرا من الكفار والفساق من الرياسة والمال وغير ذلك

وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة:

الأصل الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر والاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤونته، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه سبحانه على ذلك بقوله: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما} [النساء: ١٠٤]. فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن، فإنه يدفع عنه كثيرا من البلاء، وإذا كان لابد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومؤونته ومشقته وتبعته.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصروالجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قال الحسن رحمه الله: إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم النعال، إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة. ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته، ولهذا كان «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب، يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن، حتى يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة».

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان، أمر لازم لابد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين.

فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالما غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار.

وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار، كما قال تعالى: {ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون} [الأنفال: ٣٧].

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا، فيه حكم عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل.

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة. فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبتهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائما منصورين غالبين قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفى حال العافية والبلاء، وفى حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش والنصب وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين} إلى قوله: {وسيجزي الله الشاكرين} [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٤].

فذكر سبحانه أنواعا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار، بعد أن ثبتهم وقواهم، وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولا بين الناس، فيصيب كلا منهم نصيبه منها، كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعا.

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي تخليصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذا بعض حكمه في نصر عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع: أنه سبحانه وتعالى إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها، لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

قال تعالى: {وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [هود: ٧].

وقال: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا} [الكهف: ٧].

وقال: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك: ٢].

وقال تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون} [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} [محمد: ٣١].

وقال تعالى: {الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} [العنكبوت: ١ ـ ٣].

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت، أو لا يؤمن، بل يستمر على السيئات والكفر، ولابد من امتحان هذا وهذا.

فأما من قال: آمنت فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه، ليتبين هل هو صادق في قوله: آمنت أو كاذب؟

فإن كان كاذبا رجع على عقبيه، وفر من الامتحان كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقا ثبت على قوله، ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانا على إيمانه.

قال تعالى: {ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما} [الأحزاب: ٢٢].

وأما من لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إذا سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها، التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم، فلا بد من المحنة في هذه الدار وفى البرزخ وفى القيامة لكل أحد.

ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية، فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يهون به عليه محنته. وأما الكافر والمنافق والفاجر، فتشتد محنته وبليته وتدوم، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعمة ابتداء، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أنه يخلص من المحنة والألم البتة.

يوضحه: الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات، وتصورات، واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفى الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفى المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المرتب على موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم، أو فاحشة، أو شهادة زور، أو المعاونة على محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فرارا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فينالهم من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولا بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد، فألم يسير يعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تعقب ألما عظيما دائما، والتوفيق بيد الله.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب، والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف. فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله.

وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس. ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم.

فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الموتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش! وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن، حيث يقول: {قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا} [الأحزاب: ١٦].

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا، إذ لابد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: {قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله، إن أراد به سوءا غير الموت الذي فر منه، فإنه فر من الموت لما كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءا غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فهكذا الأمر في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلا وآجلا. وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره.

وكذلك من رفه بدنه وعرضه، وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى.

واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم فرارا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادما لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته.

وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، وأن يعبدوا إلها واحدا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا إلها من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه في طاعته، لابد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبة له. كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته.

المبحث السادس: اترك همومك وانطرح (٥٩)

قد تكفَّل الله تعالى لعبادِه برزْقِهم، وبتقدير آجالهم، وبتكليفهم، فلا قدرة للعبد على جلب الرزق ولا دفع الأجل، فانشغالُ المرء بما لا طاقة له به بطالةٌ وعطالة، وقد قال سهل بن عبد الله التستري: للعباد على الله ثلاثة أشياء تكليفهم وآجالهم والقيام بأمرهم. ولله على العباد ثلاثة التوكل عليه، واتباع نبيه، والصبر على ذلك حتى الممات.

فإذا تيقَّن العبدُ أن رزقه مضمون، وأنَّ أجَلَهُ مقدَّر، فقد تحقَّق بالرِّضا، الذي هو جنَّة الدنيا وهو باب الله الأعظم ومستراح العارفين، ذلك أنَّ الراضي هو مَن علم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهو مَن تَيقَّن أن ما قدَّره الله هو الخير، فلا يَتَّهم مولاه في شيءٍ أصابه، وقد قيل ليحيى بن معاذ -رحمه الله-: متى يبلغ العبدُ إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسَه على أربعة فصولٍ فيما يعامل به ربه، فيقول: (إن أعطيتني قبلتُ، وإنْ مَنعتني رضيتُ، وإنْ تركتني عَبَدْتُ، وإنْ دَعوتني أجبتُ).

فالرضا أن يترك العبد اختيارَه لما يختاره اللهُ له، لأنه لا يرى شيئًا يقع في الوجود إلا ويعلم أنه من الله، فلا يعترضُ على حكم الله، ولا يقابل قضاءَه إلا بالتسليم والرضا، فيكون قلبُه مسرورًا بمُرِّ القضاء كما يكون مسرورًا بحُلْوِه، فَهَواهُ تابعٌ لما أراده مولاه، كما رويَ في الحديث: (لا يُؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تَبَعًا لما جئتُ به) فتجدُه في غاية السرور أمام أيِّ أمر تكليفي مِن الله تعالى، تسرُّه الصلاة ويسرُّه الصيام، فيسرُّه فعلُ كلِّ ما يُرضي الله، وكذلك شأنه في أيِّ حكم تعريفي، فإن نزلتْ به نعمةٌ سُرَّ بها لأنه شَهدَ فيها مظهر برِّ الله به، وإنْ نزلَ به ابتلاءٌ، رأى فيه شاهدًا على قوَّة الله وقَهْره لعباده، فهذا هو الرضا الذي سئل أحدهم عنه فقال: (أن ترضى به مُدبِّرا ومُختارا، وتَرضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا، وترضاهُ إلهًا ومعبودًا وربًا)

ومن أجل هذا المعنى كان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- كثيرا ما يدعو قائلا: (اللهم رَضِّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحبَّ تعجيل شيء أَخَّرتَه، ولا تأخيرَ شيء عَجَّلْتَه)

وهو الذي حين مات ولدُه قال: (إنَّ الله أَحبَّ قَبْضَه، وإني أعوذ بالله أنْ تكون لي مَحبَّةً في شيء مِن الأمور يُخالفُ مَحبَّةَ الله)

ومن جميل ما قاله الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: (مَن لم يكن في دعائه تاركا لاختياره، راضيا باختيار الحق تعالى له، فهو مستدْرَجٌ، وهو ممن قيل فيه: اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته)

فالعبد يسأل الله أن يَقْدرَ له الخيرَ حيث كان، وأنْ يُرضِّيه بهذا الخير، أما أنْ يُشغل العبدُ نفسَه عن بذل الأسباب، فلا يقوم بما كُلِّفَ به من الواجبات، وينصرفُ إلى النَّظر في دُبُر الأمور، باستدعاء الهموم والأحزان، فهذا نقيضُ بذل الأسباب، وهو ما يُسمِّيه العلماء تدبيرا، وإليه أشار سهل بن عبد الله بقوله: (ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدِّران على الناس عَيشَهم)

فالأمر كما قيل:

ما ثَمَّ إلا ما أرادْ *** فاتركْ همومَكَ وانْطَرِحْ

واترُكْ شواغلَكَ التي *** شَغَلتْ فؤادَكَ تَسْتَرِحْ

فترْكُ الرِّضا بالقضاء هو الحُمْقُ الذي ليس له دواء، وهكذا يصل العبدُ إلى الراحة والسعادة، لأنه أدرك أنه عبدٌ مملوك لله، فاختيار الله له خيرٌ من اختياره لنفسه، وأدرك أن الأدب مع مولاه أن يُفوِّض أَمْرَه إليه، كما قال سبحانه: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

وأدرَكَ أنَّ حقَّ العبوديَّة يقتضي منه الامتثال والطاعة، فسلَّم أمْرَه إليه.

وأختم بقصة إبراهيم بن أدهم حين مرَّ على رجل مهموم فقال له: إني سأسألك ثلاثة فأجبني، فقال الرجل: نعم،

فقال إبراهيم: أَيَجْري في هذا الكون شيءٌ لا يريده الله؟ فقال الرجل: لا،

فقال إبراهيم: أفينقصُ من رزقك شيءٌ قدره الله؟ فقال الرجل: لا،

فقال إبراهيم: أَيَنقصُ مِن أَجَلِكَ لحظةٌ كتبها الله؟ قال: لا،

قال: فلماذا هذا الهم والحزن؟

المبحث السابع: السعادة المنشودة (٦٠)

أيها المسلمون، لا يعرف مفقود، تواطأ الناس على البحث عنه، والإعياء في طلابه، وهم مع ذلك يسيرون في غير مساره، ويلتمسونه في غير مظانه، مثل السعادة والطمأنينة والبال الرخي، فلله ما أقل عارفيها! وما أقل في أولئك العارفين من يقدرها ويغالي بها ويعيش لها!

بل لو غلغل النظر في بعض عارفيها، لما وجد إلا حق قليل، يكتنفه باطل كثيف، حق يعرف في خفوت كأنه نجمة توشك أن تنطفئ في أعماق الليل، وما أكثر العواصف التي تهب علينا وتملأ آفاقنا بالغيوم المرعدة! وكم يواجه المرء منا بما يكره، ويحرم ما يشتهي، وهنا يجيء دور السعادة التي تطارد الجزع، والرضا الذي ينفي السخط.

السعادة التي تسير مع الإنسان حيث استقلت ركائبه، وتنزل إن نزل وتدفن في قبره، السعادة التي يعبّر عنها شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ في أوج إحساسه بها: «ما يفعل بي أعدائي؟ إن سجني خلوة، وإن قتلي شهادة، وإن تشريدي سياحة في سبيل الله».

إن الحديث عن السعادة والشقاء، سيظل باقيا ما دام في الدنيا حياة وأحياء، وإن كل إنسان على هذه البسيطة ليبحث عنها جاهدا، ويود الوصول إليها والحصول عليها، ولو كلفه ذلك كل ما يملك، ألا وإن جمعا من الواهمين يعرفون السعادة بأنها لا حقيقة لها، وأنها خيال يبتدعه الوهم ويكذبه الواقع.

والحق ـ عباد الله ـ، أن هؤلاء جاهلون أو مخادعون؛ لأنه لا يعقل البتة أن يخلقنا الله ثم يريد لنا أن نشقى جميعا، كيف ذلك؟ والله يقول لنبيه: ﴿طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه:١، ٢]. ويقول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣].

السعادة ـ عباد الله ـ هي جنة الأحلام، التي ينشدها كل البشر، من المثقف المتعلم في قمة تفكيره وتجريده، إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته، ومن السلطان في قصره المشيد، إلى الصعلوك في كوخه الصغير يعيش على تراب الإملاق، ولا نحسب أحدا منهم يبحث عمدا عن الشقاء لنفسه أو يرضى بتعاستها.

أيها المسلمون، إن العبد بغير إيمان مخلوق ضعيف، وإن من ضعفه أنه إذا أصابه شر جزع، وإذا أصابه خير منع، وهو في كلتا الحالين قلق هلع ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

إن فقدان السعادة من قلب المرء، يعني بداهةً، حلولَ القلق والاضطراب النفسي في شخصه، فتجتمع عليه السباع الأربعة، التي تهد البدن وتوهنه، فضلا عن كونها تحلق سعادته وتقصر اطمئنانه، ألا وهي الهم، والحزن، والأرق والسهر.

ولا أشد عباد الله، من وقوع الهم في حياة العبد، إذ هو جند من جنود الله ـ عز وجل ـ سلطه على من يشاء من عباده ممن كان ضعيف الصلة بالله، خوي الروح، مرتعا للمعاصي والذنوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧].

ولقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: من أشد جند الله؟ قال: (الجبال، الجبال يقطعها الحديد؛ فالحديد أقوى، والنار تذيب الحديد؛ فالنار أقوى، الماء يطفئ النار؛ فالماء أقوى، السحاب يحمل الماء؛ فالسحاب أقوى، والريح تعبث بالسحاب، فالريح أقوى والإنسان يتكفأ الريح بيده وثوبه؛ فالإنسان أقوى، والنوم يغلب الإنسان؛ فالنوم أقوى، والهم يغلب النوم؛ فأقوى جند الله هو الهم يسلطه الله على من يشاء من عباده).

فالمفهوم إذاً ـ عباد الله ـ أن السعادة والطمأنينة عطاء من الله ورحمة، كما أن الهم والقلق والضيق غضب من الله ومحنة، فقد يلتقي الملتقيان يتواجهان النفس بالنفس، وبينهما من الفوارق كما بين السماء والأرض، بل وفي أحلك الظروف، وحين تدلهم الخطوب يظهر البون شاسعا بين موفق سعيد يُغبط، وبين هلع جزع يُتعوذ بالله من حاله، ولقد ذكر الله مثل هذا في كتابه الحكيم عن غزوة أحد حينما ألقى النوم والنعاس على المؤمنين، في حين أن القتال قائم بعد سويعات ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. النعاس في هذه الحال دليل على الأمن والأمان، لمن كانوا جازمين بأن الله سينصر رسوله، وينجز له مأموله، ولهذا قال عن الطائفة الأخرى ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران:١٥٤]؛ أي من القلق والجزع والخوف، وهذا شأن أهل الريب والشك، يعيشون بين (لو) المتندمة و(ليت) المتسحرة.

عباد الله، إن السعادة عبارة يتوهم معظم الناس في تفسيرها ولا يتفقون عليها، يجلبون بخيلهم ورجلهم على ما يتوهمونه، ثم يعودون بخفي حنين وكأنهم خرف يكلم الأشباح، أو يطعن في الرياح، فصاروا كطالب اللؤلؤ في الفلاة، مجهود البدن كسير النفس خائب الرجاء. فظن الغني منهم أن سعادته كامنة في صحته وعمارة قصره، وتوهمها الفقير في الثروة والملبس الحسن، وأكد السياسي أنها في تحقق الأهداف، والمهارة في جعل الجور عدلا والقوة شرا، وجزم العاشق على أنها في الوصال، والتيم بمعشوقه، وعند فلان كذا وعند علان هي ذا...

ولكن المنصف الملهم ـ عباد الله ـ حينما يبرق بعيني بصيرته، ليعلم يقينا سخف التخمين وسحق الهوة التي يقع فيها أصحاب الأوهام المعلولة ؛ فإذا بالغني يرى أن قصره المشيد قد شاطره السعادة الموهومة فيه، خدمه وحشمه بل وكلب حراسته وفيله، فتأكد له جيدا، أن السعادة لا تتمثل في بناء الدور وتشييد القصور، وإذا بالفقير المرهق، ينظر إلى أصحاب الثروة واللباس الفاخر ملتاثين بطيف سعادة، إنما هي رجع ضوء منعكس على سحابة عما قريب ستنقشع؛ فيقول في قرارة نفسه: هذا القطن الذي يلبسونه، كان في الغابة على الأشجار، والحرير الذي يباهون به في بطن دودة تعيش في الأوكار، أما الحلي الذي يلبسونه فقد كان وسط أحجار ينقلها بغل أو حمار، فيتيقن حينئذ أن السعادة الحقة، قد تمثلت في مثل شخص الفاروق في حين إن البردة تكسوه مرقعة، والزيت أدم له والكوخ مأواه، ومع ذلك يهتز كسرى على كرسيه فرقا من خوفه وملوك الروم تخشاه.

فالسعادة إذاً ـ يا رعاكم الله ـ، ليست في وفرة المال ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا حسن السياسة، السعادة أمر لا يقاس بالكم ولا يشترى بالدنانير، لا يملك بشر أن يعطيها، كما أنه لا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها.

السعادة دين يتبعه عمل، ويصحبه حمل النفس على المكاره، وجبلها على تحمل المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، والسعيد من آثر الباقي على الفاني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]. ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

السعادة ـ أيها المسلمون ـ، هي الرضا بالله والقناعة بالمقسوم والثقة بالله واستمداد المعونة منه، من ذاق طعم الإيمان ذاق طعم السعادة، قال رسول الله: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)) [رواه مسلم].

ولذا فإن من أضاع نعمة الرضا، أصابه سُعار الحرص والجشع؛ فهو يطمع ولا يقنع ويجمع ولا يدفع، يأكل كما تأكل الأنعام، ويشرب كما تشرب الهيم، ولقد صدق رسول الله؛ حيث يقول: ((من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله)) [رواه الترمذي].

ولقد كتب الفاروق إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ يقول له: (أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر).

إذاً يا عباد الله، لا تخش غمًّا ولا تشكُ هماً، ولا يصبك قلق مادام أمرك متعلقا بقول الله ـ جل وعلا ـ في الحديث القدسي: ((أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) [رواه البخاري ومسلم].

بهذا الحديث وأمثاله بدت السعادة في وجوه السعداء، والتي يعبر عنها من أحس بنشوتها من أئمة الإسلام فيقول: «إننا نحس بسعادة لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بحد سيوفهم".

السعادة التي يمثلها من يغدو في خمائلها ويقول: «إنه لتمر عليّ ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذاً في عيش طيب".

إن أمثال هؤلاء هم الذين ابتسموا للحياة حينما كشرت عن أنيابها، واستقبلوا الآلام بالرضى والتسليم، اللذين يحولانها إلى نعمة تستحق الشكر والحمد، على حين أنها عند غيرهم مصائب تستوجب الصراخ والعويل.

فإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، فإن الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هو ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ. ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد:٢٨، ٢٩].

اعلموا أن العلم الذي يبصر ويهدي، والهمة التي تحفز وترقي، إنما هما في الحقيقة مفتاحا مراتب السعادة والفلاح، وإنما تفوت هذه المراتب العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما، فإما أن لا يكون له علم بها، فلا يتحرك في طلبها، أو يكون علم بها ولا تنهض همته إليها ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ألا فاعلموا عباد الله أن لفقدان السعادة أبوابا ينبغي إحكام إغلاقها وكشف عوراتها، فمن ذلك الغناء مزمار الشيطان، ورقية الزنا، الذي ينبت النفاق والقلق كما ينبت الماء الكلأ، يقول الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٦]. ولقد أقسم ابن مسعود ثلاثا على أنه الغناء.

كما أن من مهلكات السعادة، جعل البيت المسلم محلا لمردة الجن وبعد الملائكة، وذلك بنشر الصور التي حرمها الشارع على جدرانه وفي فنائه، ورسول الله يقول: ((لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة))، فما بال الكثيرين يغلقون أبوابهم في وجوه الملائكة ويستدعون أسباب الشقاء والقلق ثم هم ينشدون السعادة بعد ذلك؟!

وبعدُ ـ عباد الله ـ فإن من أبواب الشقاء: الذنوب والمعاصي التي قال عنها المصطفى: ((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)) [رواه أحمد]. وقد قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسنده: «وجد في خزائن بني أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمر وهي في صرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل".

ولذا ـ عباد الله ـ فإن سعادة القلب، المثمرة بركة الرزق منوطة بالطاعة والتقوى، ولقد جاء عند مسلم في صحيحه في وصف المهدي المنتظر الحديث وفيه: ((ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها - أي قشرها - ويكون العنقود من العنب حمل بعير..)) الحديث.

ومن أسباب القلق ـ أيها المسلمون ـ التهاونُ بشأن الصلاة أو التقليل منها، ورسول الله يقول: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)) [رواه أحمد والنسائي].

(وكان إذا حزبه أمر اشتد عليه لجأ إلى الصلاة) [رواه أحمد وأبو داود]. ثم إن ترك الذكر والدعاء والاستغفار، محل للشقاء والهم والحزن، ولذا كان لزاما على من ينشد السعادة ألا يغفل هذا الأمر المهم، بل عليه أن يمسك بزمامه، ويعضّ عليه بالنواجذ، وليستحضر قول النبي: ((من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب)) [رواه أبو داود والنسائي]

ولقد دخل رسول الله المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة فقال: ((يا أبا أمامة، مالي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة؟)) قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله. قال: ((أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك)) قال: بلى يا رسول الله، قال: ((قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: الله إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)). وقال أبو أمامة: «ففعلت ذلك، فأذهب الله همي وقضى عني ديني». [رواه أبو داود].

المبحث الثامن: نور البصيرة (٦١)

ما أن يُخبت قلب العبد لرب العالمين، وتذوق جوارحه لذة النَّصَب في العبادة حتى يفيض الكريم الوهاب على صاحب هذا القلب بنور البصيرة، هذا النور الذي يرافقه في سَيره إلى الله - تعالى -، يهديه إلى مسالك الرشد، فيفرق به بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والسنة والبدعة، إلى أن يرزقه الله - عز وجل - حسن الخاتمة.

إن هذا النور منحة ربانية لا تشاهدها الأبصار، ولا تحدها الكلمات، بل يحسها كل صادق في إيمانه؛ ليعلم مَن فَقَدَ هذا النور أنه في العبادة يلعب، فما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من ظلمة القلب.

تعريف البصيرة:

قال علماء اللغة: البصيرة: الفطنة. تقول العرب: أعمى الله بصائره أي فطنه. وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ لما قال لهم: يا بني هاشم! تصابون في أبصاركم. قالوا له: وأنتم يا بني أمية! تصابون في بصائركم. وإنه لبصير بالأشياء أي عالم بها. ويقال للفراسة الصادقة فراسة ذات بصيرة. وقال الراغب: البصر يقال للجارحة الناظرة، كقوله تعالى -: {وَإِذ زَاغَتِ الأَبصَارُ} [الأحزاب: ١٠]، وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة، نحو قوله تعالى - : {أَدعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} [يوسف: ١٠٨].

أما في الشرع فيعرّفها ابن القيم بقوله: «هي نور يقذفه الله في القلب، يفرّق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب»، وفي تعريف آخر له يقول: «هي نور يقذفه الله في قلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: (البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به)».

البصيرة في القرآن الكريم:

قال تعالى -: {أَوَ مَن كَانَ مَيتًا فَأَحيَينَاهُ وَجَعَلنَا لَهُ نُورًا يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِّنهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢].

فهذا مثل للذي هداه الله بعد الضلالة، وأضاء بصيرته بنور الحجج والآيات، يتأمل بها الأشياء فيميز بين الحق والباطل ، ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق الوجود وحقائق الحياة وحقائق الناس وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس، ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث، يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته، ويجد الوضوح فيما يجري حوله، سواء من سنة الله النافذة أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة، ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله كأنه يقرأ من كتاب، ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضاءة في خواطره

ومشاعره وملامحه، ويجد الراحة في باله وحاله وقاله، ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها وفي استقبال الأحداث واستدبارها، ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين.

وقال تعالى -: {قَد جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُم فَمَن أَبصَرَ فَلِنَفسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيهَا وَمَا أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ} [الأنعام: ١٠٤]، قال القرطبي: «قد جاءكم آيات وبراهين يُبصر بها ويُستدل. جمع بصيرة وهي الدلالة، ووصفها بالمجيء لتفخيم شأنها إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس، كما يقال: جاءت العافية وقد انصرف المرض».

وقال تعالى -: {وَكَذَلِكَ أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحًا مِّن أَمرِنَا مَا كُنتَ تَدرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلنَاهُ نُورًا نَّهدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]، {رُوحًا} أي وحياً من أمرنا. وسمَّاه روحاً لأنه تحيا به القلوب الميتة لما فيه من الهداية والعلم الذي هو كالحياة.

وقال تعالى -: {وَاذكُر عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولِي الأَيدِي وَالأَبصَارِ} [ص: ٤٥]، يقول ابن القيم: «أي البصائر في دين الله - عز وجل -»، فبالبصائر يُدرك الحق ويُعرف، وبالقوة يُتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورُزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد سُئل: هل خصكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء دون الناس؟ فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه». فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض.

درجات البصيرة:

قسم ابن القيم البصيرة ثلاث درجات:

١. البصيرة في الأسماء والصفات: وهي أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم -، بل تكون الشُّبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

٢. البصيرة في الأمر والنهي: وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى، فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

٣. البصيرة في الوعد والوعيد: وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر عاجلاً وآجلاً في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته، فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته بل شك في وجوده، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن يُنسب إليه تعطيل الخليقة وإرسالها هملاً وتركها سدى، - تعالى - الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً.

المعاصي تطفئ نور البصيرة:

فمن عقوبات المعاصي أنها تُعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية، قال - تعالى - : {وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤]، إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة والحذر الدائم والاحتياط الدائم، اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، والحذر من كل همة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً، والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس، والتعلق الدائم بالله - سبحانه - مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته أو غفلة من غفلاته أو رفعة من رفعاته، ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو المعصوم يكثر من دعاء: (اللهم! يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك)، فكيف بالناس وهم ليسوا مرسلين ولا معصومين؟! وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى مخايل النجابة عليه: «إني أرى الله - تعالى - قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية».

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلكة يسقط فيها ولا يبصرها، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة ويا سرعة العطب! ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: (إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله - عز وجل - ينورها بصلاتي عليهم)، فإذا كان يوم المعاد وحُشر العباد علت هذه الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة (الفحم)، فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها.

أسباب تحصيل البصيرة:

- صِدقُ الإيمان بالله ورسوله: قال تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُم كِفلَينِ مِن رَّحمَتِهِ وَيَجعَل لَّكُم نُورًا تَمشُونَ بِهِ وَيَغفِر لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحديد: ٨٢]، فهذا النور هبة لدنيه يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله، هبة تنير تلك القلوب فتشرق وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر فلا تتخبط ولا يلتوي بها الطريق.

- العلم النافع بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -: قال - تعالى -: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنهُم يَتلُو عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجمعة: ٢].

فالحكمة نور الأبصار، وموقظة القلوب من سِنَة الغفلة، ومنقذة للبصائر من سِنَة الحيرة، ومحيية لها بإذن الله من موت الجهالة، ومستخرجة لها من ضيق الضلالة، وهي صديقة العقل، وميزان العدل، وروضة الأرواح، ومزيحة الهموم عن النفوس، وأنس المستوحش، وأمن الخائف، ومتجر الرابح، وحظ الدنيا والآخرة.

ومن أحب أن يكون للأنبياء وارثاً وفي مزارعهم حارثاً فليتعلم العلم النافع، ففي الحديث: (العلماء ورثة الأنبياء)، وليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة، ومن أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله، ففي الحديث: (مَن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، وكفى بالجهل قبحاً أن صاحبه عدو للحق وأهله. قيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن: مَن جهل شيئاً عاداه؟ قال: نعم، في موضعين: {بَل كَذَّبُوا بِمَا لَم يُحِيطُوا بِعِلمِهِ} [يونس: ٩٣]، وقوله تعالى -: {وَإِذ لَم يَهتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفكٌ قَدِيمٌ} [الأحقاف: ١١].

- العمل بالعلم: فمن عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم، وحقيقة التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، قال - تعالى - : {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢]، والتقوى تقود إلى نور البصيرة، قال - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجعَل لَّكُم فُرقَانًا وَيُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغفِر لَكُم وَاللَّهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ} [الأنفال: ٩٢]، فإذا اتقى العبد ربه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة وجوارحه بالأعمال الصالحة، وحفظ نفسه من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال الحرام جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إمكاناً.

ولما قال حارثة: «أصبحت مؤمناً حقاً»، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» قال: «عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها»، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «عرفت فالزم، عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه».

- صِدقُ اتباع السنة ظاهراً وباطناً: فالطريق إلى الله مسدود على خلق الله ـ - عز وجل - ـ إلا على المقتفين آثار النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال - تعالى - : {لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ١٢]، وقليل في سُنَّة خير من كثير في بدعة، وهذا يستلزم تعلم السنة، وتقديمها في الأصول والفروع على قول كل أحد وهديه، كما قال ابن القيم في شأن الهجرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقلب: «سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان، وحادثة من حوادث الأحكام، ومنزلة من منازل القلوب إلى منبع الهدى، ومصدر النور المتلقى من فم الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم-، فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات، وكل شاهد عدله هذا المزكى وإلا فعدّه من أهل الريب والتهمات ».

- المداومة على ذكر الله - عز وجل -: فالذكر يورث حياة القلب، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!»، وأشرف الذكر تلاوة القرآن وفهمه وتدبره، وبحسب نصيبك من القرآن يكون نصيبك من نور البصيرة، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن»، وقال: «من أحب القرآن فليبشر».

- كثرة العبادة: فمن أعظم الوسائل التي ينال بها العبد نصر الله وتأييده الاجتهاد في العبادة، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ومن أفضل العبادات الصلاة، فإنها خيرٌ موضوع، قال - تعالى -: {كَلاَّ لا تُطِعهُ وَاسجُد وَاقتَرِب} [العلق: ٩١]، وفي الحديث: «والصلاة نور»، وفيه: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»، فكلما اقترب العبد من ربه رأى الأمور على حقيقتها، وقدَّرها حق قدرها، ووزنها بميزان الحق، وكلما أخلد إلى الأرض ولم يرتفع واتبع هواه التبس عليه الحق بالباطل وترك الحق. ومن خير العبادات أيضاً الصوم، فإنه نصف الصبر، وفي الحديث: «والصبر ضياء».

- غضّ البصر وحفظ الفرج وتجنب الاختلاط المحرم: فغضّ البصر يُلبس القلب نوراً، كما أن إطلاقه يُلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله - سبحانه - آية النور عقيب الأمر بغضّ البصر: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكَاةٍ فِيهَا مِصبَاحٌ المِصبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيتُونَةٍ لاَّ شَرقِيَّةٍ وَلاَ غَربِيَّةٍ يَكَادُ زَيتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَم تَمسَسهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضرِبُ اللَّهُ الأَمثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٥٣]، أي مَثَل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، ونور القلب يورث صاحبه فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، وكان شجاع الكرماني يقول: «مَن عمَّر ظاهره باتباع السُّنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال لم تخطئ له فراسة»، وكان شجاع لا تخطئ له فراسة.

إن نور البصيرة عبق من الجنة، يأنس به الموحدون الذين نزَّهوا الخالق عن أي شائبة من شوائب الشرك، فانقادوا له لا يقدمون قولاً على قوله، ولا أمراً على أمره، ولا نهياً على نهيه. أولئك هم المفلحون.. أولئك هم المفلحون.

الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات:

وفي الختام، وبعد أن وضّحنا القلب ومكانته، والهداية وسبيلها، والنجاح وخريطته، ومكانة وفضل القراءة والعلم عامةً، والقرآن الكريم خاصة، وكذلك مكانة وأهمية الدعاء والصلاة، وعرّفنا أعمال القلوب، وبيّنا كيفية التعامل مع مصاعب الحياة، كانت هذه أهم النتائج والتوصيات التي تحصّلت من خلال البحث، وهي كما يلي:

١. ضرورة تعاهد القلب، والمجاهدة في علاجه من أمراضه، ومعرفة أن النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة متوقفين على سلامة القلب.

٢. معرفة أن الهداية فضلٌ محضٌ من الله، وضرورة سؤالها منه، وهي خير ما يمكن سؤاله وطلبه والإلحاح على الله في الحصول عليه.

٣. معرفة خريطة النجاح وهي القراءة، ولكن لا بُد أن تكون هذه القراءة بقلب.

٣. الاهتمام بالقراءة بقلب للانتفاع بها.

٤. الاتصال الدائم بالقرآن الكريم تلاوة وتدبرا وحفظا وعملا، فهو خير ما يمكن أن يُقرأ، فهو كلام الله سبحانه وتعالى.

٥. الدعاء هو سلاح المؤمن، وهو العبادة نفسها، وهو أساس التغيير والتوفيق والنجاة.

٦. المحافظة على الصلاة، فهي من أهم العبادات، وأساس الدين، وإنما حظ المسلم من الإسلام على حظ قدره من الصلاة، وكذلك المحافظة على صلوات النوافل عامة وقيام الليل خاصة.

٧. أهمية النية، ضرورة الاجتهاد في أعمال القلوب من إخلاص، وشكر، وصبر، وتوكل، ويقين، وتفاؤل، وحسن ظن بالله، فبهذه الأعمال يكون السبق.

٨. الدنيا طُبعت على كدر، والمؤمن العارف لحقيقتها، المُهتّم بالآخرة، والمتّصل بالله، دائماً يستطيع التعامل والتغلب على مصاعبها -بإذن الله-.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١. مكانة القلب وأهميته، ملتقى الخطباء - الفريق العلمي.

٢. تطهير وعاء العلم، الشيخ صالح العصيمي.

٣. من درر ابن القيم عن القلوب، فهد بن عبد العزيز الشويرخ.

٤. ابن القيم يحدثنا عن المعاصي، عمر بن محمد رزق الله.

٥.آثار ترك الذنوب والمعاصي، من كتاب «الفوائد» لابن القيم رحمه الله.

٦. الختم على القلب، د. عبد العزيز بايندر.

٧. علاج الختم على القلب، موقع حبل الله.

٨. الإنسان والحاجة إلى سكينة الإيمان، عبد الباقي يوسف.

٩. سبيل الهداية، عبد المحسن بن محمد القاسم.

١٠. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، عبد الباقي يوسف.

١١. اكتشف قدراتك.. بالعودة إلى الله، هاني رمضان.

١٢. من ظفر بالتوبة ظفر بحب الله تعالى، من كتاب « تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس » ابن عطاء الله السكندري

١٣. الطريق إلى النجاح في الحياة، من كتاب « مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

١٤. خريطة النجاح، من كتاب: « القراءة بقلب قلب النجاح في الحياة » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

١٥. مفاتيح القراءة بقلب، من كتاب: « القراءة بقلب قلب النجاح في الحياة »د. خالد عبد الكريم اللاحم.

١٦. فضل العلم وأهله، محمد عبد العاطي محمد عطية.

١٧. عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي، من كتاب «عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي» الشيخ: إبراهيم بن عبد الله المزروعي.

١٨. إدارة الوقت أم إدارة الذات؟، د. قاسم عبد الله التركي.

١٩. أهمية تحديد الأهداف، من كتاب « مفاتيح إنجاز الأهداف وبرنامج مواعيد » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٢٠. الآيات الدالة على فضائل القرآن، د. محمود بن أحمد الدوسري.

٢١. الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن، د. محمود بن أحمد الدوسري.

٢٢. أثر القرآن في تغيير الإنسان، مسعد عرفة.

٢٣.الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان، من كتاب « الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٢٤. قراءة القرآن في الصلاة، من كتاب « مفاتح إقامة الصلاة وإخلاص العبودية لله » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٢٥. ملخص كتاب « هذه رسالات القرآن، فمن يتلقّاها؟ »، د. سيرين الصعيدي.

٢٦. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرءان الكريم، محمد نبيل بهي.

٢٧. نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن، من كتاب « النبأ العظيم » د. محمد عبد الله دراز.

٢٨. الدعاء يصنع العجائب، أبو حاتم سعيد القاضي.

٢٩. الدعاء من أنفع الأدوية، من كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)» ابن القيم.

٣٠. آداب الدعاء، من كتاب« الدعاء من الكتاب والسنة » د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني.

٣١. الدعاء في الصلاة، من كتاب « مفاتح إقامة الصلاة وإخلاص العبودية لله » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٣٢. دعاء القنوت، من كتاب « دعاء القنوت » الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد.

٣٣. أربعون فائدة في الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، من كتاب « جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام » ابن القيم.

٣٤. الاستغفار.. فضائل وأسرار، عمر بن محمد السبيل.

٣٥. حسبنا الله ونعم الوكيل، أحمد عبد الله صالح.

٣٦. لا حول ولا قوة إلا بالله، الشيخ الدكتور صالح بن مقبل العصيمي التميمي.

٣٧. ذكر الله، من كتاب « ففروا إلى الله » أبو ذر القلموني.

٣٨. أذكار الصباح والمساء، من كتاب « حصن المسلم » د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني.

٣٩. فضل الصلاة والمحافظة عليها، من كتاب « ففروا إلى الله » أبو ذر القلموني.

٤٠. مقالات من كتاب مفاتح إقامة الصلاة، من كتاب « مفاتح إقامة الصلاة وإخلاص العبودية لله » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٤١. حفظ مقاصد الصلاة (لماذا أصلي؟)، من كتاب « مفاتح إقامة الصلاة وإخلاص العبودية لله » د. خالد عبد الكريم اللاحم.

٤٢. سر الصلاة الإقبال على الله، من كتاب « أسرار الخشوع في الصلاة » ابن القيم.

٤٣. قيام الليل لذة الروح ومتعة الحياة.. هل من طموح؟، سحر فؤاد أحمد.

٤٤. أهمية النية في حياة المسلم، أحمد مصطفى بدري.
٤٥. من درر ابن القيم عن الأعمال القلبية، فهد بن عبد العزيز الشويرخ.
٤٦. الإخلاص، موقع الكلم الطيب.
٤٧. الشكر، عبد العزيز بن سريان العصيمي.
٤٨. في بستان الصابرين.. آيات الصبر، جمال عبد الناصر.
٤٩. الرضا بالقدر.. أجمل اختيار في الحياة، د. عبد السميع الأنيس.
٥٠. التوكل على الله، الشيخ د. خالد بن عبد الرحمن الشايع.
٥١. سلوا الله اليقين، الشيخ سعود الشريم.
٥٢. التفاؤل، الشيخ ناصر العمر.
٥٣. حُسن الظَّن بالله، الشيخ عبد الرحمن بن سعد الشثري.
٥٤. حقيقة الدنيا، من كتاب « ففروا إلى الله » أبو ذر القلموني.
٥٥. التدبير في شأن الرزق، من كتاب « التنوير في إسقاط التدبير » ابن عطاء الله السكندري.
٥٦. كيف نتعامل مع مصاعب الحياة؟، ميسون سامي أحمد.
٥٧. الرحمة الحقيقية، من كتاب « إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان » ابن القيم.
٥٨. أصول في مقام المصائب للمؤمنين، من كتاب « إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان » ابن القيم.
٥٩. اترك همومك وانطرح، قيس المبارك.
٦٠. السعادة المنشودة، د. سعود الشريم.
٦١. نور البصيرة، خالد سعد النجار.

الفهرس

المقدمة	١
مشكلة البحث	٣
أهداف البحث	٣
أهميّة البحث	٣
خطّة البحث	٤
الفصل الأول: القلب	٧
المبحث الأول: مكانة القلب وأهميته	٨
المبحث الثاني: تطهير وعاء العلم	١١
المبحث الثالث: من درر ابن القيم عن القلوب	١٢
المبحث الرابع: ابن القيم يحدثنا عن المعاصي	٢٤
المبحث الخامس: آثار ترك الذنوب والمعاصي	٢٧
المبحث السادس: الختم على القلب	٢٨
المبحث السابع: علاج الختم على القلب	٣١
الفصل الثاني: الهداية	٣٢
المبحث الأول: الإنسان والحاجة إلى سكينة الإيمان	٣٣
المبحث الثاني: سبيل الهداية	٣٨
المبحث الثالث: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين	٤٢
المبحث الرابع: اكتشف قدراتك.. بالعودة إلى الله	٤٤
المبحث الخامس: من ظفر بالتوبة ظفر بحب الله تعالى	٤٧
الفصل الثالث: النجاح	٤٨
المبحث الأول: الطريق إلى النجاح في الحياة	٤٩
المبحث الثاني: خريطة النجاح	٥١
المبحث الثالث: مفاتيح القراءة بقلب	٥٣
المبحث الرابع: فضل العلم وأهله	٥٦
المبحث الخامس: عُلُو الهمّة في طلب العلم الشرعي	٦١
المبحث السادس: إدارة الوقت أم إدارة الذات؟	٦٣

المبحث السابع: أهمية تحديد الأهداف	٦٦
الفصل الرابع: القرآن الكريم	٦٩
المبحث الأول: الآيات الدالة على فضائل القرآن	٧٠
المبحث الثاني: الأحاديث والآثار الدَّالة على فضائل القرآن	٧٨
المبحث الثالث: أثر القرآن في تغيير الإنسان	٨٤
المبحث الرابع: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان	٩١
المبحث الخامس: قراءة القرآن في الصلاة	٩٤
المبحث السادس: ملخص كتاب «هذه رسالات القرآن، فمن يتلقّاها؟»	٩٥
المبحث السابع: «النبأ العظيم» نظرات جديدة في القرءان الكريم	٩٨
المبحث الثامن: نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن	١٠٢
الفصل الخامس: الدعاء	١٠٥
المبحث الأول: الدعاء يصنع العجائب	١٠٦
المبحث الثاني: الدعاء من أنفع الأدوية	١١٢
المبحث الثالث: آداب الدعاء	١١٤
المبحث الرابع: الدعاء في الصلاة	١١٨
المبحث الخامس: دعاء القنوت	١٢٠
المبحث السادس: أربعون فائدة في الصلاة على النبي محمد ﷺ	١٢٢
المبحث السابع: الاستغفار.. فضائل وأسرار	١٢٤
المبحث الثامن: حسبنا الله ونعم الوكيل	١٢٧
المبحث التاسع: لا حول ولا قوة إلا بالله	١٣٠
المبحث العاشر: ذكر الله	١٣٥
المبحث الحادي عشر: أذكار الصباح والمساء	١٤٠
الفصل السادس: الصلاة	١٤٢
المبحث الأول: فضل الصلاة والمحافظة عليها	١٤٣
المبحث الثاني: مقالات من كتاب مفاتح إقامة الصلاة	١٤٦
المبحث الثالث: حفظ مقاصد الصلاة (لماذا أصلي؟)	١٥٢
المبحث الرابع: سر الصلاة الإقبال على الله (٤٢)	١٥٤

المبحث الخامس: قيام الليل لذة الروح ومتعة الحياة..هل من طموح؟	١٥٦
الفصل السابع: أعمال القلوب	١٦٤
المبحث الأول: أهمية النية في حياة المسلم	١٦٥
المبحث الثاني: من درر ابن القيم عن الأعمال القلبية	١٧٠
المبحث الثالث: الإخلاص	١٨٠
المبحث الرابع: الشكر	١٩١
المبحث الخامس: في بستان الصابرين.. آيات الصبر	٢٠٠
المبحث السادس: الرضا بالقدر.. أجمل اختيار في الحياة	٢٠٥
المبحث السابع: التوكل على الله	٢٠٩
المبحث الثامن: سلوا الله اليقين	٢١٢
المبحث التاسع: التفاؤل	٢١٦
المبحث العاشر: حُسن الظَّن بالله	٢٢١
الفصل الثامن: مصاعب الحياة	٢٢٥
المبحث الأول: حقيقة الدنيا	٢٢٦
المبحث الثاني: التدبير في شأن الرزق	٢٣٢
المبحث الثالث: كيف نتعامل مع مصاعب الحياة؟	٢٣٨
المبحث الرابع: الرحمة الحقيقية	٢٤٦
المبحث الخامس: أصول في مقام المصائب للمؤمنين	٢٤٧
المبحث السادس: اترك همومك وانطرح	٢٥٣
المبحث السابع: السعادة المنشودة	٢٥٥
المبحث الثامن: نور البصيرة	٢٥٩
الخاتمة	٢٦٤
قائمة المراجع	٢٦٥